الدكتور عماد الدين الخليل

زنكي
عماد الدين



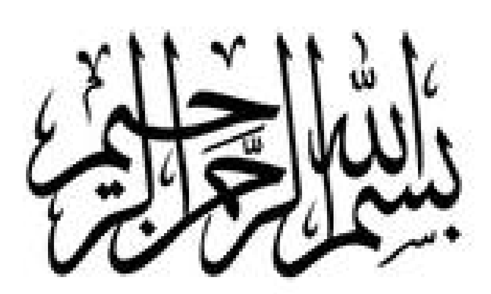
(٣٤)

عماد الدين زنكي

عماد الدين زنكي

تأليف

د. عماد الدين خليل



المقدمة

١ـ ملاحظات:

كثيرة هي الأسباب التي تشد الإنسان إلى جانب ما من جوانب التاريخ، تعلق بصره به، وتملؤه بالتقدير والإعجاب... حادثة من الأحداث.. إنجاز حضاري مبدع.. بطل يبرز فجأة من مآسي الانهزام والخور والسلب.. حركة تبعث الميّتين إلى الحياة.. وغيرها من الجوانب التي تجذب أقلام الباحثين من كل صوب، وفي كل مكان.. ومن وراء أقلامهم رغبات شتى، بعضها يطفو كالزبد على سطح التعصب والانفعال، وبعضها الآخر يستقر، بثقله وجموده في القعر، وينأى بالتاريخ عن طبيعته الثرة الدفاقة أو وجوده الحي المتحرك أبداً، بكل ما في كينونة الإنسان من طاقات، وما في الطبيعة حوله من عطاءات.. ورغبات ثالثة، تكمن خلف الأقلام، تبتغي الجد وحده، وتتوسل إليه بالأسلوب الذي لا يمكن اجتياز ساحة التاريخ إلا به.. الأسلوب الذي يجمع بين العقل والروح، وبين الإعجاب والتمعن العميق.

وتاريخنا الإسلامي مجرى دفاق، وأغوار عميقة، وحركة أبدية تموج بين ضفتين ينفسح المدى بينهما ـ أحياناً ـ لكي يغطي مساحات واسعة من العالم، ويضيق ـ أحياناً أخرى ـ حتى ليكاد يقطع أنفاس المبحرين فيه إلى مصائرهم. وفي فترات الاختناق والضيق هذه، في ساعات الخوف والعجز والهزيمة، في أيام المحن والأحزان والنكبات.. كان يطلع ـ دائماً ـ بطل من ثنايا الغيب، تبعثه حكمة الله من مداها البعيد، فيضرب، وجماهير أمته، يميناً وشمالاً،

بعزم وتصميم.. وسرعان ما يجد المبحرون المختنقون المدى وقد انفسح أمامهم، والطريق المضطرب المضني وقد استقام تحت خطواتهم، فإن هم ساروا على الطريق، وأسهموا في توسيع المدى، ودفع الاختناق، منحهم الله الأرض، وأدال الأيام لهم.. وإن هم عجزوا عن المتابعة، وكبتوا طاقاتهم وقدراتهم، سلبهم الله الأرض، وأدال الأيام منهم..

وسيظل تاريخ المسلمين هكذا.. يتأرجح بين المصيرين: إما حركة والتزام وجهد وإبداع، فالأرض والدولة.. وإما سكون وفسق ومروق وترف وتقليد، فتشرد وخضوع.. وليس ثمة ـ في سنة الله ـ حل وسط، إما هذا.. أو ذاك!!

❀ ❀ ❀

هذا هو الدرس الفريد الذي يعلمنا إياه البحث الجاد، المخلص، عبر أيام الحروب الصليبية التي استغرقت قرنين من الزمان.. وما أحوجنا إليه، ونحن نجتاز موجة عاتية جديدة من هذه الحروب التي يقف فيها الإسلام والمسلمون وحيدين، أمام القوى الهائلة التي تسعى إلى سحقهم وإبادتهم، وتستهدف إخراجهم من الأرض وتضييعهم في المتاهات، باسم المقدسات هذه المرة، كما كان الحال باسم المقدسات في المرة الأولى..

في تلك الأيام، انطلقت جموع الصليبيين التي حشدتها الكنيسة من كل مكان، تستهدف القدس.. وفي الطريق إلى القدس راحت حصون المسلمين وقلاعهم ومواقعهم تتساقط واحدة بعد الأخرى.. وفي الطريق إلى القدس أقيمت المجازر، ودخن على الناس في المغارات، وأجريت الدماء أنهاراً.. وفي الطريق إلى القدس مزق القرآن ـ كما روى لنا المؤرخون القدامى ـ مراراً، وسخر من الرسول العظيم تكراراً.. ليس هذا فحسب، بل إن أولئك المؤرخين اطلعوا على مآس يندى لها الجبين في تاريخ الصراع بين المعتقدات.. ثقب

القرآن الكريم ـ على سبيل المثال ـ وربط في مؤخرة حصان راح يقبح عليه بينما انطلقت ضحكات الفرسان الصليبيين المحيطين به، وارتفع صوت أحدهم منادياً المسلمين : ليأت (محمدكم) لتخليص هذا الكتاب !!

في الطريق إلى القدس تجرع المسلمون صنوفاً من العذاب وذاقوا الهوان والإذلال ألواناً . . كان الصراع قد طحنهم من قبل، وها هي قوة جديدة موحدة تبرز أمامهم في الميدان . . أمة بلا وحدة . . وبلا قائد . . حتم عليها أن تذل وأن تخضع، وأن تفقد الأرض والدولة . . ذلك هو منطق التاريخ، وتلك هي سنة الله . . وكان الطريق إلى القدس يتسع . . يوماً بعد يوم، تحت وقع سنابك الخيول المغيرة، وينفسح مداه أمام فرسان الصليب وقادته . . وهناك، في القدس، حدثت المذبحة . . قتل عشرات الآلاف من المسلمين رجالاً ونساءً وأطفالاً . . وراحت الخيول الغازية تجر قوائمها جراً، بمن عليها من فرسان، في برك الدماء، في تلك الأيام كان المسلمون يتحرقون لظهور المنقذ الذي يوحّدهم تحت لواء، ويجمع طاقاتهم ليصبوها في بحر هدفهم الذي صبروا على انتظاره طويلاً . . المنقذ الذي ينطلق بهم، بقوة وثقة وتخطيط، صوب ساحات الجهاد التي خلت سنين طويلة من المجاهدين . . وأقفرت من الأبطال. لكن الأرض الإسلامية ليست أرضاً بوراً، والتاريخ الإسلامي ليس مزرعة في الصحراء لا تنبت إلا الحسك والشوك والعلقم . . أبداً . . وهل يمكن ؟! وأرضنا الإسلامية هي تلك الأرض المعطاء، وتاريخنا هو تلك المزرعة التي استنبتها الزمن ـ دوماً ـ حدائق ذات بهجة . . وفاكهة . . وأبّاً؟ ومن ثم ما كان للمسلمين أن يطيلوا الانتظار . . إن الأرض التي تستمد من عقيدة التوحيد والحركة، لا يمكن أن تعلن استسلامها وأن تنام عندما تدهم حدودها قوات الأعداء، وتجتاز تخومها خيول المغيرين . . ما كان لهم أن يطيلوا الانتظار وهم يحيون في عصر لم تكن قد خبت فيه بعد قيم التوحيد والحركة التي أخرج بها الإسلام جاهليي العرب وأمواتهم من الظلمات إلى النور .

وهكذا راحت هذه الأرض تطلع على العالم الإسلامي بأبطال، يستلم الواحد منهم الراية ويسلمها بدوره للبطل الذي سيليه.. أبطال من كل مكان في ذلك العالم الفسيح، من كل جنس ومن كل لون: عرباً وأتراكاً وأكراداً، من العراق ومصر والشام، ومن بلاد فارس وما وراء النهر وتخوم الهند والصين.. ليس هذا فحسب، بل كان يقف وراء كل واحد من هؤلاء ألوف من المجاهدين شمروا عن سواعد الجد، وانطلقوا خلف قادتهم يدكون معاقل الغزاة، ويستعيدون منهم الحصون والمواقع التي انتزعوها واحداً بعد آخر، ويضيقون الخناق عليهم يوماً بعد يوم، حتى اضطروا ـ آخر الأمر ـ إلى إلقاء السلاح والعودة من حيث جاؤوا.

❁ ❁ ❁

من أجل هذا كانت فترة الصراع الطويل هذه، تشدني دائماً.. فهي المنجم الذي لا قرار له والجامعة التي لا نهاية لخريجيها.. والمدرسة التي لا حد لتعاليمها ومعطياتها. وكان اسم (عماد الدين زنكي) يلمع في ذهني منذ عهد بعيد.. لقد قالوا لنا يوماً ـ ونحن بعد صبيان ـ: إنه ظهر في عصر بدا المسلمون فيه عاجزين تماماً إزاء الحشود التي غزتهم ودمرت عليهم أمنهم وسلامهم.. ظهر من الظلمات، كما يلتمع نجم ثاقب في أطواء غيوم كثيفة سوداء.. وقالوا ـ ونحن بعد صبيان ـ إنه انطلق بالمسلمين ـ لأول مرة ـ بجد وإخلاص، وتحول بهم من مواقف الدفاع إلى الهجوم، ومن ثم أخذ يوجه بهم إلى خصومهم الضربات.

والأطفال تشدهم دوماً مفاجآت كهذه، انتقال سريع كهذا، وتعجبهم أبداً البطولات التي تظهر ـ على حين غرة ـ في عالم الخوف والجبن والانهزام.. كذلك انطبع اسم عماد الدين زنكي على أعصابنا، ونقشت صورته في عقولنا وقلوبنا.. وعندما قالوا لنا إنه هو الذي مهد الطريق لنور الدين محمود، وصلاح الدين من بعده، زدنا انبهاراً وإعجاباً!!

وفي دراستي للماجستير أتيح لي أن أكتب عن عماد الدين زنكي هذا . . وأن أتتبع حياته ومعطياته، من ألفها ـ كما يقولون ـ إلى يائها ـ ولقد وجدت بين الألف والياء الكثير الكثير مما يبعث على الإعجاب، ووجدت ـ كذلك ـ بعض ما يشوب هذا الكثير. ونقبت عن هذه الشوائب فوجدت لبعضها مبرراتٍ وأعذاراً، ولم أجد لبعضها الآخر مبرراتٍ ولا أعذاراً . . ولكن أليس كل ابن آدم خطاء، وأن خير الخطائين التوابون، كما علمنا الرسول عليه السلام ؟ ثم، أليس يكفي عماد الدين شرفاً ومجداً ألا تستعبده هذه الأخطاء، كما استعبدت الكثيرين من قادة الأرض وزعمائها وملوكها، وأن يتجاوزها صوب مشارف النصر التي أخذت تلوح للمسلمين من قريب، وفي مدى أبصارهم؟! أليس يكفيه أن يصرف جل جهوده لحراسة الأرض الصلبة، وتهيئتها لمولد أولئك الذين تسلموا الراية من بعده، وساروا بالمسلمين خطوات حاسمة في هذا السبيل : نور الدين وصلاح الدين ؟! أو ليس من الحق أن نتذكر ـ هنا ـ ما قاله يوماً شيخ من الصالحين لوالد المؤرخ الشهير ابن الأثير، من أنه رأى زنكي ـ بعد اغتياله ـ في المنام، في أحسن حال، وأنه سأله : ما فعل الله بك ؟ فأجاب : غفر لي !! فقال الرجل : بماذا ؟ فرد زنكي : بفتح الرها !! . . وسنعلم ـ فيما بعد ـ كم هي عظيمة تلك الخطوة التي أنجزها زنكي بإسقاطه الرها : أولى إمارات الصليبيين الأربع قياماً وأولاها سقوطاً!! .

وفيما بعد، عندما نقبت في نفس المنجم، عن موضوع لرسالتي التالية (الدكتوراه)، وانتهى بي المطاف إلى (الإمارات الأرتقية في ديار بكر)، تلك التي ظهرت في أقاصي شمالي الجزيرة الفراتية، على حدود الأناضول، وحكمت ما يزيد عن ثلاثة قرون . . فيما بعد، وأنا أعمل في هذا الموضوع الجديد، تبين لي أن عماد الدين زنكي لم يكن البطل الأول في هذا السبيل، وأن الأرض الإسلامية، والأمة الإسلامية، لا يمكنها ـ بحال ـ أن ينتظرا أكثر من ثلاثين سنة

كي يأتي عماد الدين زنكي . . فطلعا على العالم، منذ السنين الأولى للصراع، بأبطال قادوا المسلمين إلى مشارف النصر العظيم . . تسلم الواحد منهم الراية من الآخر، طيلة ثلاثة عقود . . ثم جاء عماد الدين زنكي فتسلمها، وأضاف إلى منجزات أولئك الأبطال الكثير الكثير . . وحّد الأرض . . وأزاح العقبات . . وأسقط الرها . . وفتح الطريق أمام نور الدين وصلاح الدين والناصر قلاوون، للسير فيه حتى النهاية، حيث عادت الأرض والدولة إلى الأمة التي صبرت طويلاً على صراع قاس رهيب، تحتم سنة الله الصبر عليه !!.

إن (سقمان بن أرتق) وأخاه (إيلغازي) وابن عمه (بلك بن بهرام)، أولئك الذين تولوا عبء المقاومة في العقود الثلاثة الأولى من الغزو الصليبي، لم يقصروا في ميدان الجهاد . . وماتوا، أو قتلوا، وهم قريرو العين لأنهم لم يخونوا العهد . . . مات سقمان وهو في طريقه لنجدة موقع إسلامي محاصر . . دهمه المرض وهو يحث الخطى للنجدة، فطلب منه أصحابه أن يعودوا ريثما يشفى من المرض الذي ألم به، فأجابهم : «لا والله! لا يراني الله تثاقلت عن قتال الكفار خوفاً من الموت!!» . . ومات أخوه إيلغازي لمرض ألم به هو الآخر، بعد جولات من الصراع المضني ضد المواقع الصليبية في شمالي الشام . . أما بلك بن بهرام، فما أروعه بطلاً، وهو ينتزع السهم الذي انغرز في ظهره، أرسلته يد واحد من أتباع أمراء المسلمين الذين لم يفكروا ـ يوماً ـ بوحدة المسلمين وأهدافهم العليا، انتزعه بيده، وبصق عليه احتقاراً وقال: «هذا قتل المسلمين كلهم»!! ومات . . وفيما بعد . . لاقى عماد الدين زنكي نفس المصير . . وفي ذات المكان!!

❁ ❁ ❁

ولا ريب أن مكانة زنكي الكبيرة في التاريخ الإسلامي ناجمة عن سعيه لجمع معظم بلاد الجزيرة والشام في ظل قيادة واحدة تستطيع الوقوف بوجه الخطر الصليبي، وتعمل للقضاء عليه. وقد اتبع زنكي لتحقيق غرضه هذا

خطوات سياسية وعسكرية منظمة جعلته مسؤولاً عن مرحلة جديدة في (الجهاد) ضد الصليبيين، تميزت (بالتنظيم) الذي يعتمد رؤية (استراتيجية) شاملة، بعد أن كان الأمراء المحليون، في الفترة السابقة، يقاتلون أعداءهم ارتجالاً، ودونما تخطيط شامل مدروس إلا في القليل النادر..

وهذا البحث دراسة للخطوات التي اتبعها زنكي لتحقيق هدفه، وعرض لشخصيته ومنجزاته على جبهتي الحرب والسلم، وتحليل الظروف السلبية والإيجابية التي أحاطت به خلال سعيه لإنشاء أكبر إمارة إسلامية شهدتها منطقة الجزيرة والشام وشمالي العراق.. تلك التي استمرت تحكم من بعده أكثر من قرن من الزمان، وامتدت لكي تضم دمشق ومصر واليمن والحجاز في دولة قوية واحدة..

وقد عدت إلى (الأطروحة) التي تضمنت البحث في صيغته الأولى، فحرصت على نشرها قريباً من الشكل الذي تمت به الموافقة عليها.. وكل ما أجريته من تغيير، فضلاً عن إعادة الصياغة اللغوية هو إلغاء حشد كبير من مصادر البحث ومراجعه، من أجل تركيز الهوامش في أقل عدد ومساحة ممكنتين، كيلا أثقل على القراء، هذا فوق إضافة فصل جديد في نهاية الكتاب تناولت فيه منجزات زنكي الإدارية، في محاولة لإحداث نوع من التوازن بين الجانب السياسي ـ العسكري، والجانب الحضاري من البحث، في عصر غدت فيه البحوث الحضارية ـ في مجال التاريخ ـ ذات شأن كبير، لا سيما وأن العلاقة الوثيقة بين النظم الإدارية والسياسية أمر يعرفه الجميع، إذ لا يمكن إعطاء صورة واضحة عن سياسة دولة أو إمارة ما، وتنظيمها العسكري، إلا بإلقاء الأضواء على نظمها الإدارية.

❁ ❁ ❁

ولا يسعني ـ أخيراً ـ إلا أن أتوجه بالشكر والتقدير لأستاذي الفاضل الدكتور صالح أحمد العلي ـ أستاذ التاريخ الإسلامي في كلية آداب جامعة

بغداد ـ الذي أشرف على إعداد هذه الرسالة، لما بذله من جهد كبير، وما أبداه من اطلاع واسع، وتوجيه قيم، وصبر على العمل، أثناء بحثي في الموضوع، مما كان له الأثر الأول في إخراجه بهذا الشكل.

كما أتقدم بالشكر والتقدير للأستاذين الفاضلين : الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور جعفر خصباك، للجهود التي بذلاها في إعدادي لهذه المرحلة، وللدكتور عبد المنعم رشاد، لقراءته مسودات الرسالة وإبداء بعض الملاحظات عليها . . ولن أنسى هنا المرحوم الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن، الذي شارك في لجنة مناقشة الرسالة، وأترع جو النقاش بظلال الألفة والمحبة، بما هو معروف عن الإخوة المصريين من نكتة بارعة وبديهة حاضرة!! .

أما الإخوة الذين تقدموا بالمساعدة في قراءة مسودات الرسالة وتصحيح ما فيها من أخطاء، فلهم مني جزيل الشكر والعرفان . . والحمد ـ أولاً وأخيراً ـ لله . . الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

٢ـ تحليل المصدر:

أنشأ عماد الدين زنكي دولته في ظروف شهدت ظهور عدد كبير من الإمارات المحلية في الجزيرة والشام، الأمر الذي كان له تأثيره المباشر على نمو الحركة الفكرية وبخاصة كتابة التاريخ، حيث إن الاعتزاز بالانتماء إلى إمارة ما كنتيجة من نتائج المنافسة الجادة بين تلك الإمارات، في شتى حقول الحياة والفكر، دفع عدداً من المؤرخين إلى كتابة التواريخ المحلية للإمارات التي عاشوا فيها، أو لقوا الرعاية والتشجيع من حكامها ومسؤوليها. وهكذا ظهر إلى حيز الوجود حشد مهم من هذه التواريخ عن الموصل وإربل وميافارقين وآمد وحلب وشيزر ودمشق وحمص وحماة وغيرها، تميز بأهميته الخاصة لكون معظمه كان يتكلم عن أوضاع معاصرة لفترة زنكي، أو قريبة منها، ولما نجد فيه من سرد لدقائق الحياة السياسية ـ والحضارية أحياناً ـ في تلك المناطق.

وقد كتبت في هذا المجال دراسات علمية دقيقة، أهمها:

المقالات الثلاث التي نشرت في كتاب :

The Historians of the Middle East, ed. by : ;B.Lewis, Oxford, 1962:

1. The Historiography of the Seljuquide Period, by Clude Cahen, p.59.
2. Some Notes on Arabic Historiography during the Zengid and Ayyubid Periods, (521-648) by : M.Hilmy M.Ahmad, p.79.
3. The Origin and Development of the Local Histories of Surya, by: Samy Dahan, p.108.

والفصل التحليلي القيم الذي كتبه كاهن في كتابه:

La Syrie du Nord, Les Sources Arabes, PP.33-73.

ومقال جب بعنوان : La Syrie Arabs , pp 33-73 .

ورسالة محمد حلمي محمد أحمد، التي قدمها للدكتوراه بعنوان:

Studies on the works of Abu Shama, 1951

والمقدمة التي كتبها في تحقيقه لكتاب (الروضتين في أخبار الدولتين) لأبي شامة (١٩٥٦م). وكذلك مقدمة الدكتور جمال الدين الشيال لكتاب (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) لابن واصل (١٩٥٣م) وكتاب (مؤرخو الحروب الصليبية) للسيد الباز العريني، ومقدمتا الدكتور سامي الدهان لكتابي (زبدة الحلب من تاريخ حلب) لابن العديم (١٩٥٤م) و(الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة) (قسم دمشق) لابن شداد (١٩٥٦م)، فضلاً عن دراسة عبد القادر أحمد طليمات لكتاب (الباهر) لابن الأثير (١٩٦٣م).

ولن أعيد هنا ما توصلت إليه تلك الأبحاث، ولكني سأقوم بتحليل أهم المصادر التي اعتمدتها في كتابة هذه الرسالة، لمعرفة طبيعة المادة التي قدمها كل منها، وما بينها من علاقات الأخذ والعطاء في هذا المجال.

ما من شك في أن ابن الأثير (٥٥٥ـ٦٣٠ هـ) يقف على رأس المؤرخين الذين تكلموا عن زنكي. ذلك أنه عاش في ظلال حكم الإمارة التي أنشأها الأخير، ونعم بما أتاحه له حكامها من مجالات وما حظي به لديهم من تقدير، فكان وفياً لهم، وخص أحدهم وهو الملك القاهر (٦٠٧ـ٦١٥ هـ) بكتاب عن تاريخ إمارة الأتابكة في الموصل سماه (الباهر). وهو يشمل على الفترة الواقعة بين سنتي (٤٧٧ـ ٦٠٧ هـ)، أي: منذ لمع اسم (آق سنقر) والد زنكي وحتى بدء ولاية (القاهر) الذي أهدي إليه الكتاب.

و(الباهر) هو أحد المصادر الرئيسية لهذا البحث، ففيه معلومات مفصلة عن نسب زنكي وسيرته وشخصيته، نقلها ابن الأثير عن والده، كما يقدم روايات عديدة عن موضوع الجيش وديوانه، وفرق الجند وأساليب القتال، وعلاقة زنكي بجنده، فضلاً عن بعض النصوص المتعلقة بتنظيم الإقطاع والإدارة، ويعتبر ما يقدمه (الباهر) في هذه المواضيع الأساس الذي اعتمد عليه عدد كبير من المؤرخين الذين نقلوا عنه، لا سيما أبو شامة وابن واصل. كما يعتبر المصدر الرئيسي عن علاقات زنكي السياسية، وأعماله العسكرية، وبخاصة في الجهات الشمالية : الموصل وإربل وجزيرة ابن عمر والمناطق الكردية، أما الجهات الأخرى، كبغداد والجزيرة وبلاد الشام، فبالرغم من تقديمه مادة واسعة عنها، إلا أنه لايعد مصدراً أساسياً، لقيام مؤلفه بالنقل عن مصادر أخرى تكمل ما قدمه في الباهر، وأهم تلك المصادر ما كتبه ابن أبي طي الحلبي، والعظيمي، وابن الأزرق الفارقي، والعماد الأصفهاني، وبهاء الدين بن شداد، وابن القلانسي، فضلاً عن كتاب (الاعتبار) للأمير ابن منقذ الشيزري الذي عاصر زنكي ورافقه بعض

الوقت، وقدم روايات مهمة عنه. إلا أن معظم ما أورده ابن الأثير في الباهر عن زنكي نقله بصورة مباشرة عن والده، حيث يقول: «ونقلت أكثره عن والدي... فإنه كان راوية حسنات ـ أتابكة الموصل ـ وعين الخبر بحركاتهم وسكناتهم».

يتبع ابن الأثير في الباهر التسلسل الزمني للأحداث، ويكتب رواياته بأسلوب بسيط واضح، وقلما يلجأ إلى السجع والتعقيد اللفظي. وفي الفصل الذي خصصه لسيرة زنكي يخرج عن التسلسل الزمني، وذلك بتقسيمه هذا الفصل إلى وحدات موضوعية يتناول في كل منها جانباً من جوانب سيرته كشجاعته وهيبته وصدقاته وقوة عزمه وحسن رأيه.. وهكذا.. ولا يستطيع الباحث أن يمر فيما كتبه ابن الأثير عن زنكي في كتابه هذا، دون أن يلحظ تحيزه إليه ضد خصومه في بعض الأحيان، حيث يبالغ بتمجيده، ويحاول إغفال الأخطاء التي مارسها والتي أشارت إليها مصادر أخرى. ولا ريب أن هذا التحيز يرجع إلى اعتزام مؤلفه تقديم كتابه هذا هدية للملك القاهر، أحد أحفاد زنكي، الأمر الذي دفعه إلى إظهار (مؤسس الإمارة) بمظهر (العظيم) البعيد عن اقتراف الأخطاء. (وقد أشرت إلى بعض مظاهر هذا التحيز في أماكنها من البحث).

أما كتاب (الكامل في التاريخ) فإن ابن الأثير يبدو فيه بوضوح أقل تحيزاً، وأكثر موضوعية، حيث يسهب في عرض أخطاء زنكي التي أغفلها في مؤلفه الآخر. ويشمل الكامل ما تضمنه الباهر من روايات عن زنكي، كثيراً ما نجد شبهاً بينها في الأسلوب، إلا أنها أقل تفصيلاً هنا مما هي عليه في (الباهر).

وتحتل التواريخ المحلية الأخرى مكانة خاصة ـ كذلك ـ بين مصادر هذا البحث، ذلك أن إمارة زنكي وعلاقاته شملتا مساحة جغرافية واسعة، انتشر

فيها الكثير من المدن والمواقع التي ألف عن بعضها كتب وصفت أحوالها بعمق وتفصيل، وقدمت عن أعمال زنكي ونشاطه مادة لا نجد كثيراً منها في كتب التاريخ العامة.

فقد أورد الفارقي (ت ٥٧٢ هـ) في كتابه (تاريخ آمد وميافارقين) معلومات مهمة، عن أمراء ديار بكر من الأراتقة وغيرهم، لم يذكرها ابن الأثير. كما قدم عز الدين بن شداد (ت ٦٨٤ هـ) ـ في الجزء الخاص بالجزيرة من كتابه : الأعلاق الخطيرة ـ معلومات مفصلة عن علاقات زنكي بمنطقة الجزيرة تعتبر متممة لما قدمه الفارقي. وتبدو أهمية ابن شداد ـ بصورة خاصة ـ فيما أورده من معلومات عن جغرافية كل مدينة من مدن الجزيرة وتاريخها السياسي، مما يلقي ضوءاً على الفترة التي فتح فيها زنكي بعض هذه المدن. وقد أشار ابن شداد أحياناً إلى بعض المؤرخين؛ الذين نقل عنهم في هذا المجال وهم الفارقي بالدرجة الأولى، ثم ابن القلانسي وابن الأثير وابن العديم، ولكنه لم يشر ـ في معظم الأحيان ـ إلى المصادر التي استقى منها معلوماته.

أما ابن العديم (ت ٦٦٠هـ) فقد قدم في تاريخه (زبدة الحلب من تاريخ حلب)، روايات بالغة الأهمية عن نشاط زنكي وعلاقاته في شمالي الشام، وبخاصة منطقة حلب، وعن أبيه (آق سنقر) الذي حكم حلب في الفترة (٤٧٩ ـ ٤٨٧هـ) وجهوده لنشر الأمن في المنطقة، كما أورد روايات مفصلة عن النشاط الذي بذله زنكي من أجل السيطرة على دمشق، وعن علاقاته بحكامها، فضلاً عما قدمه عن بعض جوانب شخصية زنكي وظروف مقتله. أما أهم المؤرخين الذين نقل عنهم ابن العديم فهم : ابن القلانسي وابن الجوزي وابن الأثير وبهاء الدين بن شداد، ثم العظيمي (ت ٥٥٦ هـ) الذي أكثر ابن العديم من الأخذ عن (تاريخه) الذي لم يصلنا كاملاً، بل وصلتنا معلومات مقتضبة منه في التاريخ (المختصر) الذي ألفه لزنكي.

ويعد كتاب ابن القلانسي (ت ٥٥٥هـ) (ذيل تاريخ دمشق) من كتب التاريخ العامة، إذ يتناول تفاصيل فترة طويلة (٣٦٠ـ٥٥٥هـ) ويغطي أحداث معظم العالم الإسلامي خلالها، لكن هذا لم يخرجه عن صفته (المحلية) لما يقدمه من تفاصيل دقيقة عن الأحداث التي شهدتها منطقة دمشق بشكل خاص، والجزيرة والشام بشكل عام، وترجع أهمية ابن القلانسي إلى أنه من معاصري زنكي، ومن رجال دمشق المسؤولين، لذا نجده يقدم روايات دقيقة عما جرى بين زنكي وحكام دمشق من حروب ومفاوضات ومعاهدات، في الجهات الوسطى من بلاد الشام، إلا أن أسلوب المؤلف المسجع يجعل قراءة كتابه مملة وصعبة، لكثرة ما فيه من تكرار لا أهمية له.

أما ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) الذي عاش في بغداد، فإنه يقدم في (المنتظم) روايات مفصلة مهمة، عن علاقات زنكي بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، وما بذله من جهود عسكرية وسياسية وإدارية في هذا المجال، مما لم يتطرق إليها بهذا التفصيل سائر المؤرخين المعاصرين، إلا أن روايات ابن الجوزي، عن الأحداث التي وقعت في جهات نائية عن بغداد، تتسم بالضعف وعدم الدقة بسبب بعده عنها.

ويقدم العماد الأصفهاني (ت٥٩٧هـ) في كتابه (تاريخ دولة آل سلجوق) عدداً من الروايات المهمة عن علاقات زنكي بالسلاجقة، وبخاصة تلك المتعلقة بأتابكيته، وما ترتب عليها، وبالظروف التي أحاطت حادث اغتياله، إلا أن الذي يقلل أهمية تلك الروايات ما فيها من مبالغة، وسجع في الأسلوب، ولم يصلنا كتاب الأصفهاني هذا إلا بالصورة التي اختصره بها مؤرخ آخر هو البنداري (ت٦٤٣هـ).

ويعد كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ) من المصادر المهمة عن الموضوع؛ لأن مؤلفه عاصر زنكي ورافقه عدة سنين، واطلع خلال ذلك

ـ على بعض تفاصيل نشاطاته السياسية، وعلى جوانب من حياته الخاصة. ومن ثم تكتسب رواياته عنه أهمية خاصة لأنها صدرت عن (شاهد عيان) معتمد، ولأن فيها إشارات ـ لا نجدها في المصادر الأخرى ـ عن بعض الجوانب كالفروسية والصيد، وعدد من المعارك والمهمات التي قام بها ابن منقذ نفسه، والتي كانت لها علاقة مباشرة بإمارة زنكي.

أما ابن واصل الحموي (ت٦٩٧هـ) فإنه ينقل في كتابه (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) عن عدد من المؤرخين الذين سبقوه أو عاصروه كالفارقي وبهاء الدين بن شداد والعماد الأصفهاني وسبط ابن الجوزي وابن العديم وأبي شامة. ويكثر من الاقتباس بشكل خاص عن كتابي ابن الأثير: الكامل والباهر. إلا أنه يقدم أحياناً روايات مفصلة، لم ترد في المصادر الأخرى، لا سيما عما وقع من أحداث في منطقة حماة، مسقط رأسه، وفي الأقسام الوسطى من بلاد الشام.

وأما أبو شامة (ت٦٦٥هـ) مؤلف كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية)، فإنه ينقل معظم رواياته عن زنكي من كتاب (الباهر)، نقلاً حرفياً أحياناً، وبتلخيص أحياناً أخرى بعد إعادة صياغتها بأسلوبه الخاص. كما أنه ينقل عن مؤرخين آخرين كابن القلانسي وبهاء الدين بن شداد وابن منقذ والعماد الأصفهاني وابن العديم، ويقتبس بعض رواياته عن ابن أبي طي الحلبي (ت٦٣٠ هـ) الذي لم تصلنا مؤلفاته، وما فيها من روايات مفصلة لم ترد في المصادر الأخرى، لا سيما تلك التي تتعلق باستيلاء زنكي على بعلبك ومعاملته لأمرائها بعد استسلامهم، وما أعقب ذلك من أحداث، كما تبدو أهمية أبي شامة فيما يقدمه من أشعار كثيرة لأدباء معاصرين لزنكي، لم ترد في (الباهر) أو في المصادر الأخرى.

ولا بد من كلمة عن كتاب (شر فنامه) للبدليسي الذي ألفه في حدود سنة (١٠٠٠هـ) وتناول فيه تاريخ الأكراد السياسي. فقد أدى تأخره الزمني،

ونقله الأخبار دون تمحيص، إلى إيراد كثير من المعلومات غير الدقيقة، كتلك التي أوردها عن علاقة زنكي بإمارة بدليس الكردية.

وهكذا يتضح أن التواريخ المحلية قدّمت الروايات الأساسية لموضوع هذا البحث، بما تميزت به من تركيز على مناطق بالذات، وبالتالي تقديم معلومات متكاملة، ودقيقة. عن معظم الجهات التي بلغها نشاط زنكي، الأمر الذي ساعد على سد الثغرات التي كان يمكن أن تبقى دون معالجة لو لم تتيسر تواريخ كهذه.

ويمكن أن نضيف إلى هذه المصادر الرئيسية التي قدمت المادة (الأولية) لهذا البحث، كلاً من (مرآة الزمان) لسبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ) الذي أكثر النقل عن ابن القلانسي، و(وفيات الأعيان) لابن خلكان (ت٦٨١هـ) صاحب سيرة الناصر صلاح الدين، الذي قدم معلومات عن أصل الأيوبيين وعلاقتهم بزنكي، و (الفخري) لابن طباطبا (ت ٧٠٩هـ) الذي أورد بعض التفاصيل عن عدد من الشخصيات التي اتصلت بأمير الموصل.

ولقد نقل عدد غير قليل من المؤلفات المتأخرة عن المصادر آنفة الذكر دون أن تأتي بشيء جديد، وهي لا تختلف عن سالفتها إلا في أسلوب عرض المادة، فبعضها يتبع نظام الحوليات، وبعضها الآخر يتبع نظام التراجم، أو التقسيم الموضوعي. معظم هذه المصادر تأخذ عن كتابي ابن الأثير : (الباهر) و(الكامل)، إلا أن بعضها يضيف معلومات من مصادر أخرى. وأهم هذه المؤلفات هي : (مختصر تاريخ الدول) لابن العبري (٦٨٥هـ) و(المختصر في أخبار البشر) لأبي الفداء (ت ٧٣٢ هـ)، و (العبر في خبر من غبر) و(دول الإسلام) للذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، و (تتمة المختصر في أخبار البشر) لابن الوردي (ت ٧٥٠ هـ)، و (البداية والنهاية) لابن كثير (ت٧٧٤ هـ) و (العبر) لابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ)، و (السلوك لمعرفة دول الملوك) للمقريزي (ت٨٧٤ هـ) و (شذرات الذهب) لابن العماد (ت ١٠٨٩ هـ).

وللمصادر الجغرافية أهميتها في تحديد الأماكن، وفي إلقاء الضوء على التاريخ السياسي للطوائف والقبائل ذات العلاقة، وأهم هذه المصادر مروج الذهب للمسعودي (ت ٣٤٦ هـ)، وأحسن التقاسيم للمقدسي (ت٣٧٥هـ). ومعجم البلدان لياقوت (ت ٦٢٦ هـ)، ونزهة القلوب للمستوفي القزويني (ت ٦٨٢هـ). وتقويم البلدان لأبي الفداء (٧٣٢هـ)، ومسالك الأبصار للعمري (ت ٧٤٩)، وصبح الأعشى للقلقشندي (ت ٨٢١ هـ).

أما المصادر الأدبية والحضارية : كالخريدة للعماد الأصفهاني ورسائل ضياء الدين بن الأثير، ومسالك الأبصار للعمري، وصبح الأعشى للقلقشندي، وخطط المقريزي، وزبدة كشف الممالك لابن شاهين الظاهري، ونهاية الأرب للنويري، ومعيد النعم للسبكي، وغيرها، فإن أهميتها تنصب على تقديم بعض الروايات المهمة عن الجيش والإقطاع والنظم الإدارية، إلا أنها ـ بحصر بحث هذه المواضيع ضمن العهدين الأيوبي والمملوكي، في مصر والشام ـ قللت الاستفادة منها إلى حد ما في إلقاء الأضواء على نظم الفترة التي نتكلم عنها.

لم تتطرق البحوث الحديثة التي تناولت هذه الفترة إلى علاقات زنكي بالقوى والإمارات الإسلامية، أو إلى نسبه وحياته وشخصيته، بنوع من التفصيل، وصبت اهتمامها على تفصيل علاقاته بالصليبيين فحسب. أما عن الجيش والإقطاع والنظم الإدارية، فإن هذه البحوث تناولتها في فترات سابقة أو لاحقة لعهد زنكي، وفي أماكن أخرى بعيدة عن إمارته، مما يجعل من الصعوبة إلى حد ما الاستفادة منها في دراسة هذه المواضيع في العهد المذكور، بالرغم مما لبعضها من أهمية بالغة وبخاصة الفصل الذي كتبته المؤرخة الإنكليزية Lampton في كتاب Landlor and peasand in persia, بعنوان: The Iqta Systm and the Seljuqu, pp. 61-67. والذي عرضت فيه عوامل نشوء الإقطاع، بالشكل الذي عرف فيه في العصر السلجوقي،

والنتائج التي ترتبت على ذلك. إلا أنها أكدت في بحثها هذا على مناطق بلاد فارس وما وراء النهر.

وكذلك كتاب بولياك (الإقطاع في مصر وسورية وفلسطين ولبنان) والذي تناول فيه، بتفصيل دقيق، تطور الإقطاع في العصرين الأيوبي والمملوكي وما تلاهما من عهود، الأمر الذي لم يتح الاستفادة منه في إلقاء الضوء على الإقطاع في عصر عماد الدين زنكي.

وهناك ـ أيضاً ـ المقالات المفصلة التي نشرها كلود كاهن في عدد من المجلات الأوربية مثل (Arabica) و (Annales) و (J. A).

وقد استعنت بدائرة المعارف الإسلامية، بطبعتيها القديمة والحديثة، لتفسير بعض المصطلحات، ولإعطاء صورة مركزة عن التاريخ السياسي لبعض الإمارات التي كانت لزنكي علاقات بها كبني أرتق، وبعض الطوائف الكردية في الشمال.

الموصل : عماد الدين خليل

الفصل الأول
نسب عماد الدين زنكي ونشأته السياسية

نسبه ودور أبيه:

ينتمي عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله آل ترغان إلى قبائل (الساب يو) التركمانية[١] التي أغفلت المصادر تحديد موطنها، وطبيعة علاقتها بالسلاجقة، والدور الذي لعبته إلى جانبهم. وقد حظي والده أبو سعيد آق سنقر، الملقب بقسيم الدولة، والمعروف بالحاجب[٢]، باهتمام المؤرخين بسبب الدور الذي لعبه على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية للدولة السلجوقية . فقد كان مملوكاً للسلطان السلجوقي ملكشاه ابن ألب أرسلان[٣]، ومن المقربين لديه، وقد تربى معه ورافقه في عهدي الطفولة والصبا. وعندما تولى ملكشاه السلطنة عام (٤٨٥هـ) كان آق سنقر من أعيان أمرائه وأخص أصدقائه، وقد اعتمد عليه في كثير من الأمور، فارتفعت منزلته ولقب بقسيم الدولة يوم كانت الألقاب لا تعطى إلا

(١) ابن العديم، بغية الطلب (مخطوطة)، جـ ٤ ورقة ٢٦٧ ظ ـ ٢٧٢ ظ . ويضع المؤلف نفسه (في زبدة الحلب ٢ـ١٠٣ـ١٠٤) اسم (النعمان) بدلاً من (آل ترغان)، وأغلب الظن أن هذا التحريف جاء بسبب خطأ من الناسخ، فاسم النعمان عربي الأصل لاعلاقة له بالتركية .

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحات، ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ـ٢١٧ـ ٢١٨ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ٢ـ١٠٣ .

لمستحقيها[١]. ولا توجد ثمة إشارة إلى المقصود من هذا اللقب، إلا أن تسمية ابن خلكان لآق سنقر بالحاجب، فضلاً عن إشارة بعض المصادر إلى كثرة اعتماد ملك شاه عليه في مهام الأمور، ترجّح أن هذا اللقب كان يعني قيام آق سنقر بمنصب الحجابة، ومقاسمته لملك شاه شؤون الحكم والإدارة، بحيث أثار منافسة الوزير (نظام الملك)، فأخذ يحذره، ثم ما لبث أن أشار على السلطان بتوليه حلب إبعاداً له[٢].

اشترك آق سنقر إلى جانب السلاجقة في معارك عديدة، فقد سيره ملك شاه عام (٤٧٧هـ) مع عميد الدولة ابن فخر الدولة في محاولة للاستيلاء على الموصل وطرد العقيليين منها، وقد تمكنا من إنجاز هذه المهمة[٣]. وبعد مرور سنتين اشترك مع السلطان ملك شاه في انتزاع حلب من نواب العقيليين فولاه إياها تقديراً لجهوده[٤]، ولعله فعل ذلك استجابة لإلحاح وزيره نظام الملك الذي كان يسعى لإبعاد خصمه عن مركز الدولة السلجوقية. وقد تسلم آق سنقر منصبه في حلب وأعمالها كمنبج واللاذقية وكفر طاب[٥]، واستطاع أن يوسع نطاق ولايته بالاستيلاء على حمص عام (٤٨٣ هـ)[٦]، وحصن أفامية عام (٤٨٤ هـ)[٧]، كما فرض طاعته على صاحب شيزر عام (٤٨١ هـ)[٨]. وفي عام (٤٨٥ هـ) اشترك مع ملكشاه في

---

(١) ابن الأثير : الباهر ص ٤، ونقل عنه أبو شامة : الروضتين ١ـ ٥٩ وابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني ايوب ١ـ١١ .

(٢) المصادر السابقة، نفس الصفحات .

(٣) المصادر السابقة : نفس الصفحات .

(٤) ابن الأثير : الكامل ١٠ـ٥٥، الباهر ص ٦ـ ٨ .

(٥) الباهر ص ٨، ونقل عنه أبو شامة : الروضتين ١ـ٦١ وابن واصل : مفرج الكروب ١ـ ١٩ .

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٠، زبدة الحلب ٢ـ ١٠٦ .

(٧) ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١، زبدة الحلب ٢ـ ١٠٦ .

(٨) ذيل تاريخ دمشق ص ١١٩ـ١٢٠، الكامل ١٠ـ٦٢ .

مهاجمة العقيليين والانتصار عليهم قرب الموصل[١]. وقد ظلت علاقة آق سنقر بالسلطان ملك شاه قائمة على الطاعة والتفاهم المشترك[٢] ولم يسع يوماً إلى الخروج على أوامره[٣]، ورفض السلطان ـ بدوره ـ الاستجابة لشكاوى معارضي آق سنقر أو إقرار مساعيهم للتخلص منه[٤]. ولما توفي ملك شاه عام (٤٨٥ هـ). وتولى الحكم بعده ابنه بركيا روق ثار عليه عمه تاج الدولة تتش سلطان الشام، وطالب بالسلطنة لنفسه، وقد وجد آق سنقر نفسه مضطراً إلى الانضمام إليه لعدم إمكان مقاومته، ولأن الأخبار باستقرار بركيا روق في السلطنة جاءت متأخرة. وقد استطاعت قوات تتش والأمراء المتحالفين معه الاستيلاء على معظم مدن الجزيرة كالرحبة ونصيبين وميافارقين، ثم اجتاحت الموصل بعد أن انتصرت على العقيليين في معركة لعب آق سنقر دوراً رئيسياً فيها، واتجهت بعد ذلك إلى أذربيجان لمواجهة السلطان بركيا روق. وما أن التقى الجيشان حتى أدرك آق سنقر أن عليه الوفاء بعهده لملكشاه، واستطاع أن يقنع بعض الأمراء بذلك، فانسحبوا جميعاً من معسكر تتش وانضموا إلى قوات بركيا روق[٥]. الأمر الذي فتّ في عضد تتش، فآثر الانسحاب إلى الشام.

ما لبث بركيا روق أن أمر آق سنقر بالتوجه إلى حلب لإيقاف مطامع عمه، وأمده بقوة من جنده لتحقيق هذا الغرض. فلما علم تتش بذلك سار على رأس جيشه لمواجهة قائده القديم. وفي التاسع من جمادى الأولى عام (٤٧٧ هـ) التقى الطرفان عند تل السلطان بالقرب من حلب، فحاقت الهزيمة بقوات

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١، مفرج الكروب ١ـ٢٢ .
(٢) الباهر ص ٢٨، الروضتين ١ـ٦١ .
(٣) مفرج الكروب ١ـ٢٠ـ٢١، البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٥ـ٦٦، الحسيني : الدولة السلجوقية ص ٧٢، ابن الوردي : تاريخ ٢ـ٥ .
(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٥ـ١٣٣ .
(٥) الكامل ١٠ـ٨٢ ـ ٨٣ .

آق سنقر، وتمكن تتش من أسره وقتله، ومن ثم اتجه إلى حلب واستولى عليها. وقد استطاع أحد مماليك آق سنقر العاملين في جيش تتش أن يغتال سيده السلجوقي خلال المعركة التي جرت في العام التالي بينه وبين بركيا روق قرب الري، فحاقت الهزيمة بقوات تتش، واستتب الأمر لبركيا روق[١].

أنجز آق سنقر ـ خلال ولايته على حلب ـ أعمالاً شتى كان أهمها تمكنه من تحقيق الأمن شمالي الشام، في تلك الفترة التي ازداد فيها قطاع الطرق، وانتشرت فيها أعمال السلب والنهب مما ألحق أضراراً بالغة بالزراعة والتجارة هناك، وقد قام آق سنقر بنفسه «بمطاردة الحرامية وقطاع الطرق، ومخيفي السبيل، فأوقع بهم واستأصل شأفتهم قتلاً وأسراً»[٢]، وكتب إلى سائر عماله يأمرهم بتتبع المفسدين وتوفير الحماية التامة للمسافرين، فطوردوا في كل مكان[٣]، وقد بلغ من تشدد آق سنقر في معاقبتهم أن صلب عدداً منهم على أبواب حلب ليثير الرعب في قلوب الآخرين[٤]، كما أعلن بأنه سيغرم أهالي أية قرية تتعرض القوافل أو التجار المارون بها للنهب، بمقدار ما سلب من الأموال قلت أم كثرت، الأمر الذي دفع أهالي كل قرية إلى بذل جهودهم في حراسة القوافل التي تمرّ بهم، والسهر على أمنها حتى تستأنف مسيرها[٥].

عادت هذه السياسة الحازمة التي اتبعها آق سنقر بنتائج هامة على المنطقة إذ ساد الاطمئنان، وأمنت الطرق، وانتشر العمران[٦]، فانتعشت

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٩-١٣٠، ابن الجوزي : المنتظم ٩-٧٦ ـ ٧٧، ٨٥. الكامل ١٠-٨٢ ـ ٨٣، ٨٦، ٩١، الباهر ص ١٢ ـ ١٥ .

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٠، وينقل عنه ابن الأثير في الكامل ١٠-٦٦ .

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٠ .

(٤) مفرج الكروب ١-١٩ .

(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٠

(٦) نفسه، الكامل ١٠-٨٦ الباهر ص ١٥ .

التجارة «وازداد ارتفاع البلد بالواردين بالبضائع من جميع الجهات والأقطار»[١]، ورخصت الأسعار[٢]، وقد بلغ من سيطرة آق سنقر على الأمن في قرى حلب وضياعها أن أرسل من ينادي فيها أن لا يغلق أحد بابه، وأن يتركوا آلاتهم الزراعية في أماكنها ليلاً ونهاراً[٣]. ومن ثم جاءت شهرته بناء على ما أنجزه في هذا المجال[٤].

اتبع آق سنقر مع سكان ولايته سياسة عادلة، فأحسن السيرة فيهم ونشر العدل بينهم، وكان شديد التقوى، عميق الإيمان، أنفق الكثير من الأموال على إعمار مسجد حلب[٥]، وأقام الحدود الشرعية في بلاده[٦]، وكان ـ كما وصفه ابن واصل ـ «ذا وفاء عظيم، وحسن عهد ومروءة غزيرة. وإنما كان قتله وفاء لسلطانه ورب نعمته : ملك شاه، وحفظاً لولده ـ بركيا روق ـ من بعده»[٧].

نشأته السياسية :

يبدو أن من العوامل الرئيسية التي ساعدت على ظهور عماد الدين زنكي منذ عهد طفولته، ذلك الدور الهام الذي لعبه أبوه آق سنقر في شؤون الدولة السلجوقية السياسية والعسكرية والإدارية في الأعوام (٤٦٥ ـ ٤٨٧ هـ)، والمكانة التي حصل عليها نتيجة خدماته للسلاطين السلاجقة، وعمله على تدعيم كيانهم، حتى إنه ضحى بحياته ـ كما رأينا ـ في سبيل الولاء للسلطان

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ١١٩، زبدة الحلب ٢ـ١٠٤ .
(٢) الباهر ص ١٥ .
(٣) زبدة الحلب ٢ـ١٠٤ .
(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ١١٩ ـ ١٢٠، الباهر ص ١٥ .
(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٠، الكامل ١٠ـ٦٦، زبدة الحلب ٢ـ١٠٥ .
(٦) مفرج الكروب ١ـ١٩ .
(٧) المصدر السابق ١ـ٢٧، الكامل ١٠ـ٨٦ .

السلجوقي بركيا روق. ولم ينس هذا تضحية آق سنقر في سبيل عرشه فجازاه ـ بعد مقتله ـ بتوجيه العناية والاهتمام نحو ابنه الوحيد عماد الدين زنكي الذي كان آنذاك في العاشرة من عمره، وكان يقيم في حلب تحت رعاية مماليك أبيه، وأصحابه الذين كانوا يكنون الحب العميق لآق سنقر[١].

وعندما استولى القائد السلجوقي كربوقا على الموصل عام (٤٨٩ هـ) باسم السلطان بركيا روق، أولى زنكي اهتماماً خاصاً وقال «إنه ابن أخي، وأنا أولى الناس بتربيته»، فأحضره المماليك عنده، ورأى أن يمنحهم الإقطاعات، وأن ينظمهم تحت أمرة زنكي للاعتناء به، ولكي يفيد منهم ـ كربوقا ـ في حروبه، لما كان يمتاز به هؤلاء من شجاعة ومقدرة على القتال[٢]. وسرعان ما صارت لزنكي مكانة كبيرة في حاشية حاكم الموصل، وظل ملازماً له حتى وفاته عام (٤٩٥هـ)[٣].

بقيت العلاقة طيبة بين زنكي وشمس الدولة جكرمش الذي أعقب كربوقا على ولاية الموصل (٤٩٥ ـ ٥٠٠ هـ) والذي كان أحد مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه وعلى معرفة بالخدمات التي أدارها والد زنكي للسلاجقة، ومن ثم توثّقت العلاقة بينه وبين زنكي حيث «قربه وأحبه واتخذه ولداً» وظل الأخير ملازماً له حتى وفاته عام (٥٠٠ هـ)[٤].

---

(١) الباهر ص ١٥ .

(٢) الكامل ١٠/١٤٦، الباهر ص ١٦ . ويضيف ابن الأثير، في المصدرين السابقين، رواية تسودها روح المبالغة، يذكر فيها أن كربوقا أفاد من زنكي خلال حروبه، وأنه عندما توجه للاستيلاء على آمد، واجتمع حشد ضخم من التركمان لمقاومته، أخذ زنكي وألقاه بين مماليك والده وقال لهم : (قاتلوا عن ابن صاحبكم) فارتفعت معنويات أولئك المماليك بوجود صبي آق سنقر بينهم في ساحة القتال، وقاتلوا بحماس، وتمكنوا أخيراً من هزيمة الأعداء . وقد أعرضنا عن الأخذ بهذه الرواية سيما وأن المصادر الأخرى لا تؤيدها .

(٣) الكامل ١٠/١٤٦، الباهر ص ١٦ .

(٤) الباهر ص ١٦ .

وعندما تلاه جاولي سقاو (٥٠٠ ـ ٥٠٢ هـ) على ولاية الموصل كان زنكي قد بلغ مرحلة الشباب «وبدت عليه علائم الشهامة»، وساد الصفاء علاقاته بالوالي الجديد. إلا أن عصيان الأخير للسلطان محمد عام (٥٠٢) وهروبه إلى الشام، دفع زنكي إلى الانفصال عنه وجماعة من كبار الأمراء، في نفس الوقت الذي عين فيه السلطان والياً جديداً على الموصل هو الأمير مودود بن التونتكين (٥٠٢ ـ ٥٠٧ هـ) فانضم زنكي ورفاقه إليه، مما كان له أبلغ الأثر في نفس السلطان والوالي الجديد على السواء، الأمر الذي رشحه لأن يكون من كبار أمراء هذا الوالي، وأن يحصل على المزيد من الإقطاعات(١).

اشترك زنكي مع مودود في جميع المعارك التي خاضها ضد الصليبيين في الجزيرة والشام. وقاتل معه على أسوار الرها، وتل باشر، ومعرة النعمان عام (٥٠٥ هـ)، كما اشترك إلى جانبه في معارك طبرية عام (٥٠٧ هـ). وقد أظهر خلال ذلك كله شجاعة ومقدرة على القتال أكسبته شهرة واسعة لدى المسلمين، وظل ملازماً لمودود حتى مقتله عام (٥٠٧ هـ) على أيدي الباطنية في جامع دمشق(٢).

عاد زنكي إلى الموصل ليلتحق بخدمة الوالي الجديد (جيوش بك)، ثم ما لبث أن انضم إلى الأمير آق سنقر البرسقي الذي وجهه السلطان السلجوقي لقتال الصليبيين، في نفس العام. فقاتل في الرها وسميساط وسروج، وأظهر من الشجاعة والمقدرة خلال ذلك ما زاد من شهرته لدى المسلمين(٣)، ودفع السلطان محمد إلى أن يطلب من واليه على الموصل تقديم زنكي والرجوع إلى مشورته تقديراً لإخلاصه وقدراته(٤).

---

(١) وأهمها مدينة تل أعفر القريبة من الموصل : الفارقي : مخطوطة، ورقة ١٠٠ ـ ب .

(٢) الكامل ١٠ـ١٨٣ ـ ١٨٤، ١٨٦ ـ ١٨٧، الباهر ص ١٧ ـ ١٩ .

(٣) صار زنكي يلقب في هذه الفترة (بزنكي الشامي) تمييزاً له عن أحد الأمراء المقاتلين في الشام وهو (زنكي بن برسق) صاحب همذان : الباهر ص ١٩ .

(٤) الباهر ص ٢٤ .

وعندما توفي السلطان محمد عام (٥١١ هـ)، سعى (جيوش بك) إلى استغلال وجود ابنه مسعود ـ إذ كان أتابكاً له ـ ودفعه إلى التوجه إلى بغداد لكي ينصب نفسه سلطاناً على سلاجقة العراق، مستهدفاً من وراء ذلك التحكم الفعلي في شؤون الدولة السلجوقية باسم السلطان الجديد. وقد أيد زنكي هذه المحاولة، وسار الوالي ومسعود متوجهين إلى بغداد على رأس حشد من قوات الموصل. إلا أن المحاولة أخفقت بعد سلسلة من الحروب والمناوشات شهدتها منطقة بغداد، واستتب الأمر للسلطان محمود الذي أعقب أباه في الحكم[١]. وبعد ثلاثة أعوام حاول جيوش بك أن يثور ثانية ضد السلطان محمود، غير أن زنكي رفض تأييده. وأشار على المتمردين «بطاعة السلطان وترك مخالفته» وحذرهم عاقبة العصيان. لكنهم لم يلتفتوا إلى قوله، وأقدموا على تنفيذ محاولتهم التي انتهت هي الأخرى بالفشل؛ بعد هزيمة جيوش بك ومسعود على يد السلطان محمود الذي بلغه موقف زنكي منه فقدره حق قدره، وأوصى البرسقي والي الموصل الجديد بالعناية به وتقديمه على سائر الأمراء[٢].

وعندما عين البرسقي عام (٥١٦ هـ) شحنة على العراق، رافقه زنكي واشترك إلى جانبه في المعركة التي دارت ضد دبيس أمير الحلة وانتهت بهزيمة البرسقي[٣]؛ الذي رأى أن يزيد من اعتماده على زنكي في صراعه ضد دبيس، فولاه واسط ـ ذات الموقع الهام ـ وكلفه مهمة الدفاع عنها ضد هجمات أمير الحلة. وقد استطاع زنكي أن يسحق في طريقه إلى واسط القوات التي حشدها دبيس للدفاع عن النعمانية، وأن يستولي على هذا الموقع[٤].

---

(١) الكامل ١٠ـ٢٠٣ ـ ٢٠٥ .

(٢) الباهر ٢٢ ـ ٢٤، ونقل عنه أبو شامة : الروضتين ١ـ٧٣ .

(٣) المنتظم ٩ـ٢٣٢ ـ ٢٣٣، الكامل ١٠ـ٢٢٨ ـ ٢٢٩، الباهر ص ٢٤ .

(٤) الكامل ١٠ـ٢٢٨ ـ ٢٢٩، الباهر ص ٢٥ .

أظهر زنكي في منصبه الجديد حزماً وكفاءة، وأبان عن مقدرة إدارية فذة[١]، الأمر الذي دفع البرسقي، حاكم العراق، إلى إضافة البصرة إلى ولايته، لكي يصد هجمات الأعراب الدائمة عليها، وينشر الأمن في ربوعها[٢]. فانتقل زنكي إليها لكي يحقق فيها ما أنجزه في واسط من نشر للأمن وقضاء على الفوضى، وقد تمكن ـ في وقت قصير ـ من أن يوقف هجمات الأعراب وغاراتهم المتتابعة عند حدها، وأن يجليهم إلى أعماق الصحراء، كما قضى على الفتن التي عمت البصرة، وأظهر مقدرة عسكرية وإدارية كالتي أظهرها في واسط من قبل، مما زاد من مكانته في نظر رجالات الدولة السلجوقية، ومن أهبته للأعداء، حتى إن دبيس بن صدقة ـ أقوى أمراء الجنوب ـ تجنب الاصطدام معه، لأنه أدرك أنه ليس في طاقته مجابهته والتغلب عليه، وفضل توحيد جهوده ضد الخليفة العباسي في بغداد بدلاً من مقارعة هذا الأمير القدير[٣].

إلا أن البرسقي وزنكي لم يتركا الخليفة يجابه بمفرده حشود دبيس، فجمعوا قواتهم والتقوا به في مطلع عام (٥١٧ هـ) قريباً من الحلة، واستطاعوا ـ بفضل الخطة البارعة التي اتبعها زنكي ـ أن يلحقوا به هزيمة نكراء، وأن يقتلوا ويأسروا الكثير من جنده، واضطر هو ومن سلم من قواته إلى الفرار، بينما عاد المسترشد وحلفاؤه إلى بغداد ليستقبلهم الأهالي هناك استقبالاً حافلاً، بعد أن خلصوهم من خطر محقق كان يحيق ببغداد ويعرضها للنهب والتخريب[٤]. ولم يكن تدخل زنكي في هذه المعركة بسبب

---

(١) الروضتين ١ـ٧٣، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢ـ١٩٠ .

(٢) المصدران السابقان، نفس الصفحات .

(٣) المصدران السابقان، المنتظم ٩ـ٢٤٢ ـ ٢٤٣، الكامل ١٠ـ٢٣١ ـ ٢٣٢، الباهر ص ٢٥ ـ ٢٦ .

(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩، المنتظم ٩ـ٢٤٢ ـ ٢٤٣، الكامل ١٠ ـ ٢٣١ ـ ٢٣٢، الروضتين ١ ـ ٧٣ ـ ٧٤، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢ ـ ١٩٠ .

التزامات مسبقة تجاه الخليفة، وإنما لكونه موظفاً من موظفي الدولة السلجوقية، يرتبط بشحنتهم في العراق ويلتزم بأوامرهم، وكان السلاجقة آنذاك يقفون إلى جانب الخليفة ضد عبث أمراء الحلة.

كان زنكي ـ لدى مغادرته البصرة ـ قد فوض شؤونها لمقدم حاميتها الأمير (سخت كمان). فاستغل دبيس بعد زنكي عنها وهاجمها على حين غرة، وتمكن من قتل مقدم حاميتها ونهب أهاليها، لكن زنكي ما لبث أن عاد إلى البصرة ليقر الأوضاع فيها من جديد، فانسحب دبيس من المنطقة، واتجه إلى الشام للعمل مع الصليبيين[١].

أقيل البرسقي من شحنكية العراق في نفس العام (٥١٧ هـ) وأعيد إلى الموصل لقيادة حركة الجهاد ضد الصليبيين، وعين يرتقش الزكوي شحنة بعده[٢]. فأرسل البرسقي إلى زنكي يستدعيه من البصرة ليتجه معه إلى الموصل، غير أن الأخير فضل أن يربط مصيره بالسلطان السلجوقي، فلم يلبّ أمر البرسقي، وقرر الذهاب إلى أصفهان للالتحاق بحاشية السلطان محمود، يصحبه عدد من كبار أمرائه، ثم ما لبث الأخير أن انتبه إلى ما يلاقيه زنكي من إهمال، فلام أمراءه على عدم الاهتمام به والاعتناء بأمره، وقرر تزويجه بأرملة أحد أمرائه الكبار، وتم ذلك في احتفال شهده السلطان وعدد كبير من القادة والمسؤولين[٣]، الأمر الذي هيأ لزنكي فرصة الظهور في محيط كبار الأمراء، وتعريف رجالات الدولة السلجوقية بمكانته.

غدت البصرة، بعد مغادرة زنكي لها، مسرحاً للفوضى، وهدفاً للنهب والتخريب وهجمات الأعراب، وبلغ السلطان ذلك فأمر زنكي بالعودة إليها،

(١) الكامل ١٠ ـ ٢٣٢، ٢٣٧، البداية والنهاية ١٢ ـ ١٩١ .
(٢) المنتظم ٩ ـ ٢٤٩ .
(٣) الكامل ١٠ ـ ٢٣٧، الباهر ص ٢٧ ـ ٢٨ .

بعد أن أقطعه إياها (٥١٨ هـ). وطلب منه اتخاذ كافة الإجراءات اللازمة لتوطيد الأمن في المنطقة، كما كلفه مهمة الإشراف على واسط والسعي للدفاع عنها إذا ما فكر الخليفة بإرسال جيش للاستيلاء عليها، إذ كانت هدفاً لمحاولاته التوسعية[1].

غادر زنكي أصفهان إلى البصرة وباشر مهام منصبه، فأحسن معاملة أهلها، واستطاع أن يخلصهم من هجمات الأعراب، وذلك عن طريق تنظيم دوريات عسكرية دائمة للقيام بهجمات مضادة على الأعراب ونصب الكمائن لهم. كما اهتم ـ في الوقت ذاته ـ بأمور واسط، وأخذ يمد السلطان بأخبار العراق بحيث لم يخف عن الأخير شيئاً من أموره، الأمر الذي زاد من تقديره لجهود زنكي ومن ارتفاع منزلته عنده، ورشحه لمنصب شحنكية العراق[2].

وفي عام (٥١٩ هـ) تدهورت العلاقات بين الخليفة المسترشد والسلطان محمود الذي رأى نفسه مضطراً للتوجه إلى بغداد للحد من مطامح الخليفة، ورفض سيطرته المباشرة على العراق. وكان الخليفة قد أرسل بعض جيوشه بقيادة عفيف الخادم للاستيلاء على واسط، إلا أن زنكي تمكن من صده والانتصار عليه في المعركة التي دارت بين الطرفين عند مشارف واسط، وفي العشرين من ذي الحجة وصل السلطان إلى بغداد وأرسل إلى الخليفة يطلب منه إقرار الصلح فرفض الأخير طلبه، الأمر الذي أدى إلى نشوب القتال بين الطرفين. وقد رأى السلطان أن يعتمد على زنكي في صراعه هذا، فأرسل إليه يأمره بالحضور إلى بغداد على رأس قواته، وأن يجلب معه ما يستطيع من زوارق حربية وسفن، فنفذ زنكي الأمر، وجمع عدداً كبيراً منها، إثر جولة قام بها في مناطق العراق الجنوبي لهذا الغرض، وبعد

(١) الباهر ص ٢٨ .
(٢) نفسه، الكامل ١٠ ـ ٣٤٤ .

أن ملأها بالمقاتلة، اتخذ طريقه إلى بغداد. وما أن بلغ الخليفة نبأ تقدم زنكي بقواته الحاشدة براً ونهراً، حتى أدرك أن ليس في طاقته الصمود طويلاً إزاء شروط السلطان، وأن بغداد مقبلة على حصار شديد في البر والنهر، فأرسل إليه يعلن موافقته على الصلح. ومن ثم دخل السلطان بغداد حيث تمت المصالحة وساد الوئام[١]. وهكذا لعب زنكي دوراً حاسماً في وضع حد للصراع بين السلطان والخليفة، والذي كان من المحتمل أن يؤدي إلى نتائج لا تحمد عقباها.

اجتمع السلطان محمود ـ قبيل مغادرته بغداد ـ بكبار قادته وأمرائه للتشاور معهم حول اختيار الشحنة الجديد للعراق، في ظروف صعبة كانت تحتم ترشيح رجل يأمن معه السلطان جانب الخليفة، ويستطيع ـ في الوقت نفسه ـ القيام بمهام واجبه على خير وجه. وبعد تقليب وجهات النظر استقر الاختيار على زنكي، ذلك الذي لعب الدور الحاسم في إقرار الأمن والسلام في العراق طيلة السنوات الأخيرة، وقد رحب جميع الأمراء بهذا الترشيح. وفي العاشر من ربيع الآخر عام (٥٢٠) صدر منشور بتولي زنكي شحنكية العراق ـ إضافة إلى ما بيده من الإقطاع والبلاد ـ وغادر السلطان محمود بغداد وقد اطمأن إلى نفوذه في العراق، بعد أن أناب عنه فيه الرجل الذي يستطيع أن يقوم بمهام منصبه خير قيام، ويجنبه عناء المشاكل والأزمات[٢].

قضى زنكي في منصبه الجديد أربعة أشهر لا نعلم عن أعماله أو علاقته بالسلطنة والخلافة خلالها شيئاً يذكر، لقصر مدتها، ثم ما لبث أن نقل بعدها إلى ولاية الموصل والجزيرة وما يفتتحه من بلاد الشام[٣].

---

(١) المنتظم ٩ ـ ٢٥٢ ـ ٢٥٩، ١٠ ـ ٢ ـ ٥، الكامل ١٠ ـ ٢٤٢ ـ ٢٤٣، الباهر ص ٢٨ ـ ٣١.

(٢) الباهر ص ٣١ الكامل ١٠ ـ ٣٤٤، المنتظم ١٠ ـ ٥، الروضتين ١ ـ ٧٤.

(٣) ويبدو أن المصادر ـ باهتمامها في شرح الظروف التي أدت إلى تولي زنكي الموصل ـ قد أهملت بحث دوره كشحنة على العراق.

ذلك أن عز الدين مسعود بن البرسقي، والي الموصل (٥٢٠ ـ ٥٢١ هـ) توفي عام (٥٢١ هـ) فتولى البلاد من بعده أخوه الصغير، إلا أن وصيه (جاولي) استأثر بالحكم من دونه، وأسرع بمراسلة السلطان محمود طالباً منه إقرار ابن البرسقي على الموصل تقديراً للخدمات التي كان أبوه وأخوه قد أدياها للسلاجقة من قبل، كما أرسل وفداً من القاضي بهاء الدين الشهرزوري والحاجب صلاح الدين الياغسياني ليتفاوض مع السلطان ومندوبيه بهذا الشأن. ولم يكن جاولي يعلم بنوايا رجال وفده وموقفهم منه؛ إذ كان كل من الشهرزوري والياغسياني يخافان تحكم جاولي في شؤون الولاية باسم الحاكم الجديد، ولا يرضيان بطاعته والتصرف حسب هواه. لذا فإنهما ما أن غادرا الموصل إلى بغداد حتى اجتمعا هناك بنصير الدين جقر صهر الياغسياني وأكثر أصحاب زنكي منزلة ومكانة، وعرضا عليه حقيقة المهمة التي كلّفا بها وتخوفهما من تحكم جاولي، واستئثاره بالحكم من دونهما، فاقتنع نصير الدين بوجهة نظرهما، واتفقوا جميعاً على ترشيح زنكي لولاية الموصل والسعي لإقصاء كل من حاكم الموصل الجديد ووصيه جاولي. ومن ثم اتجهوا إلى دار الوزير (أنو شروان بن خالد) وأعلموه حقيقة الأوضاع في منطقة الجزيرة والشام، وكيف أنها غدت مسرحاً لمطامع الصليبيين بعد أن قويت شوكتهم فيها، وكيف أن البرسقي (الذي ولي الموصل في الفترة بين ٥١٥ ـ ٥٢٠ هـ) كان يقف بحزم أمام محاولاتهم الدائمة، إلا أن مقتله أتاح المجال أمامهم ثانية للتوغل في المناطق الإسلامية، سيما وأن الذي أعقبه في حكم الموصل صبي صغير، وبينوا له أنه لا بد لمنطقة الموصل والجزيرة من أمير متمكن شجاع، يستطيع أن يقف بوجه الخطر الصليبي، ثم ختموا كلامهم قائلين: إنا جئنا لنعرض عليك طبيعة الظروف الراهنة كيلا يتخذ أي إجراء قد يعود ضرره على المسلمين جميعاً «فنبُّؤوه بغضب الله ولوم السلطان»[1].

---

(١) الفارقي: مخطوطة، ورقة ١٠٨ أ ـ ١٠٨ ب، الكامل ١٠ ـ ٢٤٥ ـ ٢٤٦، الباهر ص ٣٤ ـ ٣٥.

ذهب الوزير السلجوقي إلى السلطان محمود ليشرح له مهمة وفد الموصل واقتراحاته، فانتهز الباغسياني والشهرزوري الفرصة واجتمعا بزنكي، واستطاعا أن يقررا معه ما كانا يطمحان إليه من مكانة في إدارة شؤون الموصل، إذ وعدهما زنكي بتولية أحدهما قضاء البلاد، وتولية الآخر الحجابة وإمرة الجيش. وحلف لهما على ذلك[١]. والواقع أن زنكي أتيحت له ـ بهذا ـ فرصة نادرة لتحقيق طموحه وإشباع نزعته إلى الاستقلال والإعراب عن قدرته على الإبداع والإنشاء، ولم يكن منصب الشحنكية ـ على خطورته ـ أكثر من كون صاحبه تابعاً إدارياً للسلطان السلجوقي يخضع لأوامره المباشرة.

على إثر المقابلة التي تمت بين الوزير السلجوقي والسلطان قام الأخير باستدعاء وفد الموصل، وطلب من أعضائه ترشيح من يرونه كفؤاً لتولي الموصل. فعرضوا عليه عدداً من الأسماء مؤكدين بشكل خاص على مكانة زنكي وكفاءته من دون الآخرين، فمال السلطان إلى توليته لما علم من شهامته وتمكنه من إنجاز المهام التي أنيطت به من قبل، وأمره بالحضور. وبعد مناقشات قصيرة اقتنع السلطان بجدارة زنكي في القيام بأعباء المنصب الجديد، ومن ثم أصدر منشوراً بتوليته الموصل والجزيرة وما يفتتحه من بلاد الشام[٢]. وسلمه ولديه ألب أرسلان والخفاجي ليكون أتابكاً لهما (أي أباً مربياً) وفقاً للتقاليد السلجوقية السائدة آنذاك، ومنذ ذلك الوقت سمي زنكي أتابكاً، وأصبح كل من ولدي السلطان محمود تحت إشرافه المباشر[٣].

---

(١) الفارقي : ورقة ١٠٨ ا ـ ١٠٨ ب .

(٢) الفارقي : ورقة ١٠٨ ا ـ ١٠٨ ب، الكامل ١٠ ـ ٢٤٥ ـ ٢٤٦، ٢٤٨، الباهر ص ٣٤ ـ ٣٥. ويقدم ابن خلكان (وفيات الأعيان ٢ ـ ٧٩) معلومات مضطربة في هذا المجال، إذ إنه لا يفرق بين هذه الحادثة، وبين محاولة دبيس بن صدقة (أمير الحلة) تولي الموصل بعد عزل زنكي، والتي سترد تفاصيلها في مطلع الفصل الثاني .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢ ـ ٧٩ ـ ٨٠، البنداري : آل سلجوق ص ١٨٧ وانظر الفصل التاسع .

وفي الثالث من رمضان عام ٥٢١ هـ وصل بغداد الأمير مجاهد الدين بهروز، قادماً من بلاد فارس، ليتولى شحنكية العراق. فغادر زنكي ورجاله عاصمة العراق نحو الموصل لتسلم منصبه الجديد[1].

(١) المنتظم ١٠ ـ ٥، الكامل ١٠ ـ ٢٤٧، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢ ـ ١٩٦ .

الفصل الثاني
علاقات عماد الدين زنكي بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية

ما أن توفي السلطان السلجوقي ملكشاه، آخر السلاطين الأقوياء، عام ٤٨٥ هـ حتى أخذ العباسيون يطمحون إلى استعادة سلطتهم الفعلية في الحكم، ودخل الطرفان في صراع استغرق معظم سني العقود الثلاثة الأولى من القرن السادس الهجري، وكان على زنكي ـ الذي بدأ يشق طريقه آنذاك ـ أن يحدد موقفه إزاء هذ الصراع. وقد رأينا في صفحات الفصل السابق كيف سعى إلى التزام جانب السلاجقة نظراً لارتباطه الإداري والعسكري بهم. أما الآن وقد منحوه ولاية الموصل، فقد كان عليه أن يعمّق صلاته بهم ويكرس طاقاته لتنفيذ سياستهم. لكنه لم يشأ أن يصطدم مع الخلافة. وسعى إلى أن تكون علاقاته بها قائمة على التفاهم والود حرصاً منه على عدم استهلاك جهوده في صراع جانبي قد يودي بمطامحه. إلا أن ظروف الصراع المعقدة المتشابكة بين العباسيين والسلاجقة اضطرته إلى الإدلاء بدلوه في مجرى الحوادث سيما بعد أن أصبح قوة لها وزنها في ميدان الأحداث.

فلقد تعرض، إثر توليه الموصل، لمحاولة استهدفت عزله عن منصبه وإحلال دبيس بن صدقة، أمير الحلة، محله، وكان هذا قد التحق ـ بعد فراره من العراق ـ بسنجر سلطان سلاجقة خراسان وما وراء النهر، وأصبح من أمرائه المقربين، وصادف أن قام السلطان محمود بزيارة لعمه سنجر

لتصفية الخلافات القديمة بينهما ووضع قاعدة للصلح، وحين مغادرته عاصمة عمه، سلم إليه هذا دبيسَ بن صدقة، وطلب أن يعزل زنكي عن الموصل ويستعيض عنه بدبيس، وأن يطلب من الخليفة تحسين علاقته بالأخير بعد المشاكل التي أثارها ضد الخلافة، فاستجاب السلطان محمود لمطالب عمه وغادر خراسان إلى همذان يصحبه دبيس بن صدقة[١].

وفي مطلع عام ٥٢٣ وصل السلطان محمود إلى بغداد والتمس من الخليفة المسترشد تناسي خلافاته القديمة مع دبيس والسماح له بدخول بغداد، كما أرسل إلى زنكي ـ في نفس الوقت ـ يطلب منه التخلي عن منصبه وتسليمه لدبيس[٢]. فغادر زنكي الموصل مسرعاً إلى بغداد. وفاجأ السلطان محمود بحضوره المباغت، وتمكن ـ بعد محادثات طويلة ـ من إقناعه بضرورة إبقائه على ولاية الموصل درءاً للخطر الصليبي. كما أكد طاعته وإخلاصه له، فخلع عليه السلطان وأقره على ولايته[٣]، وكتب له منشوراً جديداً بحكم الموصل والجزيرة والشام، تأكيداً لمنشور عام ٥٢١ هـ[٤].

وقفت الظروف العامة التي أحاطت بهذه القضية إلى جانب زنكي ومكنته من إقناع السلطان، وإحباط محاولة دبيس التي استهدفت الإطاحة بآماله جميعاً، وكان على رأس تلك الظروف المساعدة ما بذله الخليفة من جهود لتثبيت زنكي على الموصل بدافع من كراهيته العميقة لدبيس، حتى إنه أرسل إلى السلطان محمود يقول له: «إن دبيساً أعان الفرنجة ضد المسلمين فكيف توليه؟»[٥]. وكان دبيس قد انضم إلى الصليبيين بعد هزيمة عام ٥١٧،

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠ ـ ٨ ـ ٩، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢ ـ ١٩٨ ـ ١٩٩.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠ ـ ١١، الكامل ١٠ ـ ٢٤٩.
(٣) المنتظم ١٠ ـ ١١، الكامل ١٠ ـ ٢٤٩.
(٤) ابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ٤٠، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٤٣.
(٥) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٤٤، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢ ـ ١٩٩.

وأسهم معهم في حصار حلب طمعاً بالاستيلاء عليها وحكمها نيابة عنهم[١]. ولم يكن أهالي بغداد أقل كراهية لدبيس وحقداً عليه من الخليفة نفسه. حتى إنهم تظاهروا ضده لدى دخوله العاصمة. وراحوا يندّدون به ويهتفون بالتأييد والدعاء للخليفة والسلطان[٢]. بسبب محاولات دبيس المتكررة لنهب بغداد وتخريبها[٣]. فضلاً عن مساعدته للصليبيين. ولم يكن في صالح السلطان محمود نفسه عزل زنكي عن الموصل. وهو الذي وقف إلى جانبه في الظروف الحرجة. ولعله لم يقم بمحاولة العزل ـ أساساً ـ إلا تحت ضغط عمه سنجر صاحب السلطة العليا على السلاجقة. هذا فضلاً عن أن تعيين دبيساً في الموصل قد يتيح لسنجر أن يتخذ منه صنيعة ضد مصالح السلطان محمود في العراق.

اطمأن زنكي إلى ولايته طيلة الأعوام الأخيرة من حكم السلطان محمود، وعندما توفي هذا في منتصف عام ٥٢٥. أرسل زنكي إلى الخليفة المسترشد يطلب منه أن يقيم الخطبة ببغداد للملك السلجوقي ألب أرسلان ـ وهو أحد الملكين اللذين أنيطت بزنكي مهمة الإشراف على تربيتهما ـ إلا أن الخليفة اعتذر عن ذلك محتجاً بأن ألب أرسلان لم يزل صبياً بعد، وأن السلطان محمود كان قد عهد بالحكم من بعده لولده داود، وأن حكام الأطراف والولايات قد بدؤوا فعلاً بالخطبة للسلطان الجديد، وأعلمه أنه سوف لا يقدم على اتخاذ أي إجراء بهذا الصدد قبل أن تصله رسالة توضيحية من السلطان الكبير سنجر بن ملكشاه، فهو عم القوم وله القول الفصل[٤].

وهكذا أفلتت من يد زنكي فرصة الاستفادة من وفاة السلطان محمود؛ تلك التي أتاحت له مجالات جديدة، ودفعته إلى الخروج عن سياسة الولاء

---

(١) المنتظم ١٠ ـ ١١، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢ ـ ١٩٩ .

(٢) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٢١ ـ ٢٢٥ .

(٣) المنتظم ١٠ ـ ١١ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ١ ٤٦ .

للسلطان السلجوقي. وذلك بمحاولة تنصيب أحد ابني السلطان الراحل محمود ـ المقيمين في الموصل تحت إشرافه ـ سلطاناً على سلاجقة العراق ومطالبة الخليفة بالاعتراف الرسمي به. وبذا يغدو زنكي المتحكم الفعلي في شؤون العراق باسم السلطان الجديد.

في العام التالي استطاع السلطان محمود بن محمد ـ حاكم أذربيجان ـ استمالة زنكي لمساعدته في المطالبة بعرش سلاجقة العراق، لقاء منحه مدينة إربل الحصينة شرقي الموصل. وتم الاتفاق بينهما على أن يتجها إلى بغداد لمطالبة الخليفة المسترشد بالخطبة لمسعود، والاعتراف به سلطاناً على العراق[١].

إلا أن سلجوقشاه بن محمد ـ أخو مسعود الذي كان يطمح هو الآخر بعرش السلاجقة في العراق ـ سبق أخاه إلى بغداد، وطالب الخليفة بالخطبة له، فامتنع الأخير عن تنفيذ طلبه، ولما سمع سلجوقشاه باقتراب زنكي على رأس قواته الموالية لمسعود، أمر قائده (قراجا الساقي) بالإسراع في التوجه شمالاً لإيقاف تقدمه، فوصل إلى مشارف سامراء بأقل من يومين، ودارت المعركة بين الطرفين عند قصر المعشوق على الجهة المقابلة لسامراء، وانتهت بهزيمة زنكي وأسر عدد كبير من قواته، فلجأ بمن معه من فلول إلى تكريت[٢]، حيث أسرع واليها نجم الدين أيوب بإقامة المعابر لهم، وإكرام ضيافتهم لحين عودتهم إلى الموصل[٣]. وهناك استطاع زنكي أن يعيد تنظيم قواته، بعد أن أنفق عليها أموالاً كثيرة، وجهزها بالمؤن والمعدّات[٤].

(١) المصدر السابق ١ ـ ٩٧ .
(٢) المنتظم ١٠ ـ ٢٥، الباهر ص ٤٣، الكامل ١٠ ـ ٢٥٧ .
(٣) الكامل ١٠ ـ ٢٥٧ و ١١ ١٣٨، الباهر ص ١١٩ ـ ١٢٠، وانظر الفصل الثالث للاطلاع على تفاصيل علاقاته بني أيوب .
(٤) الباهر ص ٤٣ .

أدرك كل من مسعود وسلجوقشاه أن استمرار الصراع بينهما سوف يتيح الفرصة لتدخل عمهما سنجر والقضاء على مصالحهما في العراق. فعقدا بينهما صلحاً، ووحدا قواتهما لقتال سنجر، فرأى هذا أن يستميل زنكي ويتخذه حليفاً ضد خصومه، فأرسل إليه يطلب منه أن يقوم ودبيس بن صدقة بالاستيلاء على بغداد وإعلان الخطبة له هناك ولحليفه الملك طغرل بن محمد، ووعد سنجر ـ في حالة نجاح المحاولة ـ بتولية زنكي شحنكية العراق ـ إضافة لمنصبه ـ وبإقطاع الحلة لدبيس بن صدقة[١].

وافق زنكي على عرض السلطان سنجر، لاعتقاده أن النصر سيكون حليف الأخير ضد منافسيه : مسعود وسلجوقشاه، وبذا يستطيع ـ زنكي أن يحقق مزيداً من مطامحه، فغادر الموصل بصحبة دبيس في طريقهما إلى بغداد، وكان الأخوان مسعود وسلجوقشاه قد توجها لقتال عمهما سنجر. وألزما المسترشد بالسير معهما، إلا أنه توقف على الحدود بين العراق وفارس بانتظار نتيجة المعركة التي انتهت بانتصار سنجر على قوات مسعود وسلجوقشاه وإعلان طغرل بن محمد سلطاناً على العراق، والخطبة له في جميع البلاد[٢].

كان زنكي ودبيس قد اقتربا من بغداد، فلما سمع المسترشد بتقدمهما عاد إلى حاضرته، وأخذ يستعد للدفاع، وما لبث الطرفان أن اشتبكا في أواخر رجب، وحلت الهزيمة آخر الأمر بقوات زنكي ودبيس. عاد بعدها الخليفة إلى بغداد وتراجع زنكي إلى الموصل. أما دبيس فقد قام بمحاولة الاستيلاء على الحلة، مقر إمارته القديمة، إلا أن نائب الخليفة هناك تمكن من صده[٣].

استطاع مسعود، بعد حروب عديدة أن يقضي على منافسيه، وأن يغدو سلطاناً على سلاجقة العراق وبلاد فارس، بموافقة عمه سنجر، إلا أن زنكي

---

(١) المنتظم ١٠ ـ ٢٥ ـ ٢٦، الكامل ١٠ ـ ٢٥٧ ـ ٢٥٨، الباهر ص ٤٤ .
(٢) المنتظم ١٠ ـ ٢٦، الكامل ١٠ ـ ٢٥٨ ـ ٢٥٩، الباهر ص ٤٤ ـ ٤٥ .
(٣) المنتظم ١٠ ـ ٢٦، الكامل ١٠ ـ ٢٥٩، الباهر ص ٤٥ ـ ٤٦ .

ـ الذي بلغ آنذاك درجة كبيرة من القوة والتمكن ـ لم يشأ أن يذعن للسلطان الجديد، وأخذ يسعى لتشكيل الأحلاف مع الخليفة والأمراء المعارضين ضد حكم مسعود. حتى إن هذا كان، كلما وقع في أزمة أو قامت ضده ثورة؛ نسبها إلى زنكي. وظن أنه هو الذي أشار بها وسعى إليها[1]. وكان زنكي ـ من جهته ـ يدرك مدى عداء السلطان مسعود له؛ بسبب مواقفه العدائية السابقة منه؛ لذا انصبت خططه ضده على عدم إتاحة المجال أمامه للتفرغ وتوجيه ضربة قاضية لمطامحه في المنطقة[2].

كان لمعارك عامي ٥٢٦ ـ ٥٢٧ نتائج هامة بالنسبة لزنكي، منها أنه خسر علاقته الودية السابقة بالسلطان السلجوقي. والتي أفاد منها كثيراً في عهد السلطان محمود (٥١٢ ـ ٥٢٥ هـ). لكنه حصل ـ من جهة أخرى ـ على مدينة إربل ذات الموقع الهام شرقي الموصل، كما اتسعت شهرته كأمير كبير له وزنه في الصراع بين السلاجقة أنفسهم، أو بينهم وبين العباسيين، كما أنه خرج من تلك المعارك وقد تعرف على عائلة بني أيوب، حيث كان له الفضل الأول في فسح مجال العمل العسكري والنشاط السياسي لأبنائها. إلا أن أهم نتائج تلك المعارك كانت ـ ولا ريب ـ تدهور العلاقات بينه وبين الخليفة المسترشد.

ففي ربيع الأول من عام ٥٢٧ أرسل الخليفة إلى زنكي كتاباً ينحي فيه باللائمة عليه، بسبب مواقفه العدائية السابقة منه، وقام رسوله بالإغلاظ لزنكي ثقة منه بقوة الخليفة، إلا أن زنكي أمر بالقبض عليه، واحتجازه ومعاقبته على ما صدر منه[3]. ولما سمع الخليفة بذلك ثارت ثائرته ، ووجد الفرصة سانحة لتوجيه ضربة انتقامية ضد خصمه، وتوسيع أملاكه باتجاه الشمال. ذلك أن السلاجقة كانوا ـ آنذاك ـ في دوامة من الصراع العنيف في

(١) الكامل ١١ ـ ٣٨، الباهر ص ٦٥ .

(٢) الكامل ١١ ٣٨، الباهر ص ٦٥ .

(٣) الكامل ١١ ـ ٢، الباهر ص ٤٧، ابن واصل : مفرج الكروب ١ ٥٢ .

بلاد فارس[١]. كما كان بعض الأمراء قد التجؤوا إلى الخليفة بسبب ذلك الصراع، فقوي مركزه بهم، واستطاع أن يحكم العراق حكماً فعلياً، وأن يجبي الأموال لحسابه[٢]، الأمر الذي يرجح القول بأن لومه لزنكي جاء إثر شعوره بقوة مركزه وقدرته على إنزال العقاب بمنافسيه وأعدائه.

وفي أواخر رمضان وصل الخليفة إلى الموصل على رأس ثلاثين ألف مقاتل،[٣] وكان زنكي ـ لدى سماعه نبأ زحف الخليفة بقواته الكبيرة ـ قد غادر الموصل على رأس قسم من جيشه، وعسكر بظاهر سنجار لكي يقوم من هناك بشن الهجمات السريعة على قوات الخليفة، ويعمل على قطع التموين عنها، وأبقى القسم الآخر من جيشه في الموصل مع (نصير الدين جقر) نائبه هناك، ليقوم بمهمة الدفاع عن المدينة[٤]. وقد أسرع هذا بتحصين الموصل وتعميق خنادقها استعداداً للهجوم القريب[٥].

بدأت قوات الخليفة بشن هجماتها ضد حصون الموصل، وازداد مركزها قوة بانضمام (أبي الهيجاء الكردي) ـ أحد أمراء الأكراد ـ إليها بجيوشه الكثيرة، لاعتقاده بضرورة مساندة الخليفة في صراعه ضد زنكي[٦].

---

(١) المصادر السابقة، نفس الصفحات .

(٢) المصادر السابقة، نفس الصفحات.

Runciman , the History of the Crusades , vol.2, pp. 194-195.

(٣) المنتظم ١٠ ـ ٣٠، الباهر ص ٤٧، الكامل ١١ ـ ٢، ابن العبري : مختصر، ص ٢٠٣ . ويشير ابن الجوزي إلى أن عدد قوات الخليفة بلغ اثني عشر ألفاً، بينما يذكر ابن الأثير وابن العبري أنها جاوزت الثلاثين ألفاً، ويمكن اعتبار الرقمين صحيحين، لأن ابن الجوزي يفصل في أنباء المرحلة الأولى من هذه الحادثة، أما ابن الأثير وابن العبري فيؤكدان على أنباء المراحل التالية حيث كانت قوات الخليفة تزداد عدداً كلما تقدمت من الموصل، وذلك بانضمام المتطوعين إليها .

(٤) الباهر ص ٤٧، الكامل ١١ ـ ٢ .

(٥) الفارقي : ميافارقين، المخطوطة، ورقة ١٥٩ أ، ابن خلكان : وفيات ١ ـ ٣١٥ .

(٦) المنتظم ١٠ ـ ٣٠ .

إلا أن جقر قام بمهمة الدفاع عن المدينة خير قيام، فيما كان زنكي يرسل سراياه لتمنع وصول المؤن إلى قوات الخليفة وأنصاره، ولتشن الهجمات على معسكراتها[١]. كما أرسل إلى الخليفة يعرض عليه مبلغاً من المال مقابل إنهاء الحصار لكن الأخير رفض طلبه[٢].

استمر الحصار ثمانين يوماً، ولم يبد من قوات الدفاع عن الموصل ما يشير إلى ضعفها، بينما أخذت الأقوات تقل يوماً بعد يوم في معسكرات الخليفة بفضل هجمات زنكي، حتى غدا جنده أشبه بالمحاصرين[٣]. وقد حاول جماعة من عمال البناء (الجصاصين) في الموصل القيام بمؤامرة تستهدف تسليم البلد إلى الخليفة، إلا أن مؤامرتهم اكتشفت، وأعدموا[٤].

استغل السلطان مسعود فرصة انشغال الخليفة بحصار الموصل فتوجه إلى بغداد لتعزيز مركزه فيها، وتلقى الخليفة أنباء تؤكد محاولة السلطان الاستعانة بدبيس بن صدقة لتحقيق أهدافه[٥]؛ مما اضطره إلى إنهاء الحصار، خاصة بعد ما رأى من إصرار الموصل على المقاومة، وقفل عائداً إلى بغداد فوصلها في العاشر من ذي الحجة[٦]. وبذلك تخلص زنكي من الخطر الذي كاد أن يطيح بإمارته، ويذهب بمكاسب سنين طويلة من العمل الدائب.

ما لبث المسترشد أن أرسل إلى زنكي؛ في مطلع العام التالي (٥٢٨هـ)[٧] يعرض عليه رغبته في التصالح، فأجابه زنكي دون تردد،

(١) الباهر ص ٤٧، الكامل ١١ ـ ٢، ابن واصل ١ ـ ٥٢ .
(٢) المنتظم ١٠ ـ ٣٠ .
(٣) الباهر ص ٤٧، الكامل ١١ ـ ٢، ابن واصل ١ ٥٢ .
(٤) الكامل ١١ ـ ٢ .
(٥) ابن الجوزي : المنتظم ١٠ ـ ٣٠ .
(٦) المنتظم ١٠ ـ ٣٠، الكامل ١١ ـ ٢، الباهر ص ٤٧ .
(٧) المنتظم ١٠ ـ ٣٤، الكامل ١١ ـ ٦، الباهر ص ٤٨ .

والواقع أن سوء علاقة كل منهما بالسلطان مسعود هو الذي وحد بينهما من جديد لمواجهة الأخطار التي قد تنجم في المستقبل القريب، وأرسل زنكي وفداً إلى بغداد ليقدم للخليفة مبلغاً من المال ومجموعة ثمينة من الهدايا، معرباً بذلك عن طاعته[١]. ومن ثم استمرت مبادلة الهدايا والوفود بين الطرفين، وازدادت العلاقة بينهما وثوقاً، فنجد الخليفة يبعث قاضيه رسولاً إلى زنكي فيخلع عليه هذا، ويمنحه هدايا قيمة، ويكرمه إكراماً بالغاً[٢]. كما نجد زنكي يرسل ـ في مطلع عام ٥٢٩ هـ ـ ابنه سيف الدين غازي ليؤكد طاعته للخليفة وولاءه له، فيستقبل استقبالاً حافلاً، ويسير في موكب عظيم إلى دار الخلافة، فيأمر الخليفة بإنزاله في دار أعدت خصيصاً لهذا الغرض[٣]. ويظل التقارب بين الطرفين يزداد يوماً بعد يوم حتى يبلغ حداً يجد زنكي نفسه معه مضطراً إلى الاشتراك في صراع المسترشد ضد السلطان مسعود عام ٥٢٩هـ، بعد أن توترت العلاقات بينهما، وانتهت بإعلان الخليفة وأنصاره من الأمراء الحرب على السلطان السلجوقي[٤].

ذلك أن الخليفة أرسل إلى زنكي ـ الذي كان يحاصر دمشق آنذاك ـ يطلب فك الحصار والتوجه إلى بغداد للإشراف بنفسه على إدارة شؤون العراق، وإعلان الخطبة لألب أرسلان بن محمود المقيم في الموصل، فأجابه زنكي إلى إنهاء الحصار، وعقد صلح مع حكومة دمشق خطب بموجبه لألب أرسلان على منبر مسجدها الجامع، يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الأولى عام ٥٢٩ هـ وأعقب زنكي ذلك بإرسال نجدة لمساعدة الخليفة، إلا أنها وصلت متأخرة، بعد انتصار السلطان مسعود على

---

(١) المنتظم ١٠ ـ ٣٤، الباهر ص ٤٨ .

(٢) المنتظم ١٠ ـ ٣٥ .

(٣) المنتظم ١٠ ـ ٤٢ .

(٤) المنتظم ١٠ ـ ٤٥ ـ ٤٧، الباهر ص ٤٩، الكامل ١١ ـ ١٠ ـ ١١ .

المسترشد في المعركة التي دارت بينهما في العاشر من رمضان عام ٥٢٩ هـ، وقد ظل الخليفة مأسوراً حتى منتصف ذي القعدة، حين هاجمه جماعة من الباطنية وقتلوه، فكتب السلطان إلى شحنة العراق يأمره بمبايعة الراشد ابن المسترشد، فبويع هذا يوم الإثنين أواخر ذي القعدة من نفس العام[١]. وهكذا ضاعت من زنكي فرصة أخرى، كان سيفيد منها لو قدر الانتصار للمسترشد، ونصب ألب أرسلان سلطاناً على العراق، الأمر الذي كان سيؤدي إلى سيطرة كل من الخليفة وزنكي على شؤون العراق باسم السلطان الجديد.

كان من نتائج هذه المعركة أن زاد التوتر بين زنكي والسلطان مسعود، وبلغ حداً دفع السلطان إلى القيام بمحاولة لاغتياله والتخلص من خطره بشكل نهائي، فاستدعاه إلى أصفهان، بحجة أنه يرغب في مقابلته، إلا أن دبيس بن صدقة أعلمه بالهدف الحقيقي للاستدعاء، فامتنع عن الذهاب، وعندما بلغ السلطان ما فعله دبيس أمر بقتله[٢].

ما لبثت العلاقات أن تدهورت بين الخليفة الجديد وبين السلطان مسعود، واجتمع لدى الراشد عدد من الأمراء المناهضين للسلطان، وحبذوا له العمل على إسقاطه والمجيء بسلطان جديد يرتضونه[٣]. وفي مستهل صفر عام ٥٣٠ هـ وصل زنكي بغداد قادماً من الشام، بعد أن استدعاه الراشد واتفق معه على إعلان الخطبة لألب أرسلان المقيم في الموصل[٤]. وانضم إلى الأمراء الذين كانوا قد حرضوا الخليفة على إعلان العصيان ضد السلطان مسعود[٥].

---

(١) المنتظم ١٠ ـ ٤٥ ـ ٥٠، الكامل ١١ ـ ١٠ ـ ١١، الباهر ص ٤٩ ـ ٥٠ .

(٢) المنتظم ١٠ ـ ٥٣، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

(٣) المنتظم ١٠ ـ ٥٥، الكامل ١١ ـ ١٥، الباهر ص ٥١ .

(٤) الفارقي : مخطوطة، ورقة ١١٤ ـ ١١٥ أ، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥ ـ ٢٥٨ .

(٥) المنتظم ١٠ ـ ٥٥ .

وجد الخليفة أن الفرصة قد سنحت بالعمل فألغى الخطبة لمسعود وحولها لداود بن محمود خلافاً لما تم الاتفاق عليه مع زنكي[١]، وقام السلطان الجديد بتعيين شحنة له في العراق[٢]. ولم يمض على ذلك سوى وقت قصير حتى دبت الخلافات بين الراشد وسائر الأمراء بسبب المنافسات والأحقاد القديمة، ومحاولة الخليفة استغلال مركزه القوي للبطش برجال حكومة المسترشد، الأمر الذي أغضب عدداً من الأمراء فانسحبوا من بغداد. وقد بذل زنكي جهده لتدارك الأمر قبل فوات الأوان، وطالب الخليفة بتجهيز المقاتلين بالأموال، وتناسي خلافاته القديمة، لكن الخليفة رفض مطالبيه؛ الأمر الذي دفع عدداً من رجال الحكومة إلى الاتجاه إلى زنكي[٣].

كان سلجوقشاه (أخو السلطان مسعود) قد وصل آنذاك إلى واسط وتمكن من الاستيلاء عليها، مما اضطر الراشد إلى أن يدفع لزنكي مبلغاً من المال لكي يتجهز لاسترداد هذا الموقع المهم جنوبي بغداد[٤]. لكن زنكي لم يستطع أداء هذه المهمة وانتهى زحفه على واسط بعقد صلح بينه وبين سلجوقشاه[٥]. مما أعاد الشكوك ثانية بينه وبين الخليفة[٦]، إلا أن الأخير رأى ضرورة استمالة زنكي وتحسين علاقته به بالاعتماد عليه في تحقيق مطامحه، وجرت بين الطرفين مقابلة ودية انتهت بتوحيد الصفوف ثانية والاستعداد لقتال السلطان مسعود[٧].

---

(١) نفسه، ابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ٦٤ .

(٢) الكامل ١١ ـ ١٥ .

(٣) المنتظم ١٠ ـ ٥٥ ـ ٥٦، الباهر ص ٥١ ـ ٥٢، الكامل ١١ ـ ١٥ .

(٤) المنتظم ١٠ ـ ٥٧ .

(٥) الكامل ١١ ـ ١٦ ـ ١٧، مفرج الكروب ١ ـ ٦٤، أما الباهر (٥٢ ـ ٥٣) فيورد رواية تتسم بطابع المبالغة والتمجيد لدور زنكي، أعرضنا عن ذكرها .

(٦) المنتظم ١٠ ـ ٥٦ ـ ٥٧ .

(٧) المنتظم ١٠ ـ ٥٧، مفرج الكروب ١ ـ ٦٥، الكامل ١١ ١٥ .

اتفق المتحالفون على توجيه ضربتهم للسلطان مسعود في بلاد فارس نفسها، إلا أنهم ما أن قطعوا مسافة قصيرة حتى ورد خبر بتوجه مسعود على رأس قواته صوب بغداد فارتؤوا أن يعودوا إليها لاتخاذ الإجراءات الدفاعية اللازمة لصد الهجوم[١].

ما لبث السلطان مسعود أن فرض الحصار على بغداد وجرت مناوشات ومعارك جانبية بين الطرفين لم تسفر عن نتيجة حاسمة، وسعى السلطان إلى إحلال الصلح وإنهاء القتال دون جدوى، وأخذت الأوضاع داخل بغداد تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، وفي مطلع شوال استطاعت قوات مسعود أن تدخل الجانب الشرقي من بغداد وتوسعه نهباً وإفساداً؛ مما فت في عضد المدافعين، يضاف إلى هذا أن زنكي أدرك مدى الجهود التي يبذلها السلطان للقضاء عليه، وتبين له عدم جدوى المقاومة، سيما بعد أن انتشرت الشكوك من جديد بين الأمراء، فأشار على الراشد أن يرحل عن بغداد بصحبته[٢].

وفي ليلة السبت، منتصف ذي القعدة غادر الخليفة وزنكي بغداد صوب الموصل تصحبهما قواتهما ورجالات حكومتيهما، وفي اليوم التالي دخل السلطان مسعود بغداد، وأعلن عن خلع الراشد وتولية الخلافة عمه المقتفي[٣].

وصل زنكي والراشد الموصل في الحادي عشر من ذي الحجة، ولقي الأخير من حليفه كل تقدير وإكرام، وكان يتنقل معه خلال تحركاته في المنطقة[٤]. وظلت الخطبة للخليفة الجديد (المقتفي) مقتصرة على بعض

---

(١) المنتظم ١٠ ـ ٥٧، مفرج الكروب ١ ـ ٦٥ .

(٢) المنتظم ١٠ ـ ٥٧ ـ ٥٩، الكامل ١١ ـ ١٧، مفرج الكروب ١ ـ ٦٥ .

(٣) المنتظم ١٠ ـ ٥٩ ـ ٦٠، الكامل ١١ ـ ١٧ ـ ١٨، الباهر ص ٥٣ ـ ٥٤، مفرج الكروب ١ ـ ٦٥ ـ ٦٦، الفارقي : المخطوطة، ورقة ١١٤ أ ـ ١١٥ أ .

(٤) المنتظم ١٠ ـ ٦٢، الباهر ص ٥٢ ـ ٥٣، الفارقي : ورقة ١١٦ ب .

أنحاء العراق[١]. بينما استمرت مناطق الموصل والجزيرة والشام تخطب للراشد الذي كان يتمتع بحماية زنكي وتأييده، وراجت شائعات تشير إلى احتمال قيام زنكي والراشد بالزحف على بغداد من جديد[٢].

غير أن هذا لم يدم طويلاً، فقد شعر كل من الراشد وزنكي بضعف موقفهما إزاء السلاجقة والخليفة، وإنهاء حالة الحرب بين الطرفين، إلا أن المسؤولين في بغداد رفضوا مقابلة رسول الراشد، أما رسول زنكي، القاضي كمال الشهرزوري، فقد استقبلوه بالحفاوة والإكرام رغبة منهم في استمالة سيّده وكسبه إلى جانبهم؛ الأمر الذي أتاح لهذا الرسول أن ينجز مهمته على خير وجه، ولم يكتف بذلك بل طلب مقابلة السلطان مسعود نفسه وأخذ منه العهود تجاه زنكي «واستنزله عما في نفسه منه»[٣].

عاد الشهرزوري إلى الموصل يحمل معه محضراً بخلع الراشد، وأرسل المقتفي ـ في نفس الوقت ـ مبعوثه الخاص ليأخذ البيعة من زنكي، وليطلب منه إبعاد الراشد عن الموصل، كما وردت رسالة من السلطان سنجر، كبير السلاجقة، يؤكد فيها ضرورة إبعاد الراشد عن الموصل، وهكذا وجد زنكي نفسه مضطراً إلى التخلي عن حليفه والمبايعة للخليفة الجديد والتمس من الراشد المضي إلى حليفه الآخر الملك داود بن محمود السلجوقي في أذربيجان، فغادر الخليفة المخلوع الموصل صوب أذربيجان حيث انضم إلى داود، ثم ما لبث أن قصد أصفهان حيث اغتاله الباطنية في أواخر رمضان عام ٥٣٢ هـ[٤].

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٢) المنتظم ١٠ ـ ٦٨ ـ ٦٩.

(٣) الكامل ١١ ـ ١٨ ـ ١٩، الباهر ص ٥٤، مفرج الكروب ١ ـ ٦٨ ـ ٧٠، ١٩ ـ ١١.

(٤) المنتظم ١٠ ـ ٦٧ ـ ٥٨ ـ ٧٦، الكامل ١١ ـ ١٩، الباهر ص ٥٤ ـ ٥٥ الفارقي: مخطوطة، ١١٦ د ـ ١١٧ أ، مفرج الكروب ١ ـ ٧٠، ويقدم ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ٥ ـ ٢٥٨) معلومات خاطئة.

تحسنت العلاقات، إثر هذا الموقف، بين زنكي والسلطان مسعود، وفي ربيع الأول من عام ٥٣٢هـ بعث السلطان رسوله بالتشريف الكامل لزنكي، وتلقى بدوره كتباً من نصير جقر، نائب زنكي، بشرح فيها أحوال الموصل[١]. كما قام زنكي ـ في رجب من العام نفسه ـ بإرسال قاضيه (الشهرزوري) ليشرح للسلطان خطورة الأوضاع في شمالي الشام، وتهديد القوات الصليبية المتحالفة مع الروم لمدينة حلب، وليطلب منه نجدة عسكرية لمجابهة هذا الخطر. وكان الشهرزوري قد أعرب لزنكي عن تخوفه من دخول قوات السلاجقة بلاد الشام، واحتمال استيلائها على ممتلكاته فيها، إلا أن رد الأخير جاء قاطعاً: (إن الصليبيين قد طمعوا في البلاد، وإن هم استولوا على حلب لم يبق في الشام (إسلام)، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار)[٢].

استطاع الشهرزوري إقناع السلطان مسعود بإمداده بعدد كبير من قواته بلغ عشرين ألف فارس، لكن زنكي سرعان ما أرسل إلى بغداد يعلم رسوله أن قوات الصليبيين والروم قد رحلت عن حلب، ويطلب منه إعادة النجدة السلجوقية إلى السلطان، بعد إذ لم تعد هناك حاجة إليها[٣].

استمرت العلاقات الودية بين الطرفين، وفي رمضان ٥٣٢هـ قدم إلى زنكي، وهو على أبواب حمص، رسول من السلطان مسعود وخلع عليه[٤]. وأغلب الظن أن ذلك كان لتهنئته على الانتصارات التي حققها ضد الصليبيين[٥].

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٣.
(٢) الباهر ص ٦٢ ـ ٦٣، الكامل ١١ ـ ٢٤، أبو شامة : الروضتين ١ ـ ٨٩ ـ ٩١.
(٣) المصادر السابقة : نفس الصفحات، وانظر الفصل السابع : (زنكي والصليبيون).
(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٧، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٦٩.
(٥) انظر الفصل السابع.

ويبدو أن السلطان مسعود لم يكن مطمئناً لما كان يتمتع به زنكي من استقلال، وما يمتلكه من نفوذ، أخذ يزداد سعة يوماً بعد يوم، لذا راح ينتظر الفرصة المواتية لتوجيه ضربة حاسمة ضده، سيما بعد أن رسخ الاعتقاد لديه أن خصمه هذا كان دائماً وراء الفتن والثورات التي استهدفت الإطاحة بنفوذه في العراق، وأن عدداً كبيراً من الأمراء كانوا يلتزمون بالخطط التي يرسمها والمحاولات التي يقوم بها ضده[1].

وقد أتيحت الفرصة عام ٥٣٨هـ لقيام السلطان مسعود بتوجيه هذه الضربة، وذلك إثر حادثة مقتل الأمير السلجوقي داود بن محمود في تبريز، ذلك العام، على أيدي الباطنية، وانتشار شائعات تقول بأن زنكي هو الذي دبر اغتياله بالاتفاق مع جماعة من حشاشي الشام، عندما بلغه أن السلطان مسعود كان قد عول على إرساله للاستيلاء على الشام، وأن زنكي أدرك أن هذه الخطوة سوف تقضي على مشاريعه هناك فأسرع بتدبير اغتياله[2].

وكان السلطان قد أنهى نزاعه مع أعدائه ومنافسيه وتفرغ لمهمته الجديدة، فجمع قواته وعزم على التوجه إلى الموصل للاستيلاء عليها، وضم ممتلكات زنكي إلى دولته. ولما علم الأخير بذلك أرسل يستعطفه ويستميله، فبعث مسعود إليه رسولاً للتفاوض معه، وانتهت المفاوضات بعقد الصلح وإيقاف السلطان لهجومه و (إقرار زنكي على إمارته)[3]. وقد اشترط في بنود الصلح أن يدفع زنكي للسلطان مبلغاً قدره مئة ألف دينار، وأن يتنازل له عن بعض إقطاعاته في بغداد[4]، كما طلب السلطان حضور زنكي بنفسه إلى بلاطه لإعلان الطاعة، إلا أن الأخير امتنع معتذراً بانشغاله في

(١) الكامل ١١ ـ ٣٨، الباهر ص ٦٥، ٨٠.

(٢) البنداري : آل سلجوق ص ١٧٧.

(٣) المنتظم ١٠ ـ ١٠٥، الكامل ١١ ـ ٣٨، الباهر ص ٦٥.

(٤) المنتظم ١٠ ـ ١٠٨.

جهاد الصليبيين (لتمكن هؤلاء وقربهم من بلاده) فعذره السلطان، وشرط عليه العمل على فتح الرها(١).

ويبدو أن السلطان مسعود أدرك خطورة الوضع في الجزيرة وشمالي الشام، حيث غدا الصليبيون يشكلون خطراً مباشراً على المنطقة، وحيث استطاع زنكي ـ دون مساعدة السلاطين ـ الحد من ذلك الخطر، وإرغام الصليبيين على التراجع، والتخلي عن كثير من مدنهم ومواقعهم. هذا فضلاً عن أن السلطان ـ حين عزم على ضرب زنكي ـ جوبه بمعارضة شديدة من رجالات دولته ومواطنيه على السواء، من أجل إبقاء إمارة الموصل كحاجز قوي متماسك أمام أطماع الصليبيين، وقد أوضحت ـ هذه المعارضة ـ أن زنكي هو الأمير الوحيد في المنطقة، الجدير بالتصدي لتلك الأطماع، وأن القضاء عليه يعني فتح الطريق إلى العراق أمام الأعداء(٢).

وإلى جانب ذلك قام زنكي بمناورة بارعة اكتسب من ورائها عطف السلطان مسعود وصداقته، ذلك أنه استقدم ـ سراً ـ ابنه سيف الدين الذي كان مقيماً لدى السلطان، فلما وصل الموصل منعه من الدخول وأعاده إلى السلطان ومعه رسول ليقول على لسان زنكي: (إني بلغني أن ولدي فارق الخدمة بغير إذن، فلم أجتمع به، ورددته إلى بابك !!)، فحل ذلك لدى السلطان محلاً عظيماً، وكان أحد العوامل المهمة في استجابته لمطالب زنكي(٣). فإذا ما أضيف إلى ذلك حصانة إمارة الموصل، وقوتها المادية والعسكرية(٤)، وصعوبة توجيه ضربة حاسمة ضدها، أدركنا الأسباب التي دفعت السلطان مسعوداً إلى إيقاف هجومه.

(١) الباهر ص ٦٥، Runcimsn : Crusadea , 11 / 225.

(٢) المصدر السابق ص ٦٥ ـ ٦٦.

(٣) نفسه ص ٦٥ ـ ٦٦.

(٤) الكامل ١١ ـ ٣٨.

وما أن تم الصلح بين الطرفين حتى أرسل زنكي عشرين ألف دينار مما التزم بتقديمه للسلطان، ثم اضطر الأخير إلى التنازل له عن بقية المبلغ بسبب خروج بعض أمراء الأطراف على السلاجقة، الأمر الذي دفعه إلى مداراة زنكي وكسب وده[١]. وقد استمرت العلاقات الودية بين الطرفين طيلة السنين الأخيرة من حكم زنكي، وخاصة بعد النصر العظيم الذي أحرزه ضد الصليبيين في الرها.

ولم تكن علاقات زنكي بالخليفة العباسي (المقتفي) ـ طيلة هذه الفترة ـ بأقل ودية وتعاطفاً من علاقاته بالسلطان. فقد استمرت الصلات المتبادلة بينهما منذ صلح عام ٥٣١هـ، وقد ساعدت على ذلك السياسة المسالمة التي اتخذها المقتفي تجاه السلاجقة ـ على العكس من الخليفتين السابقين المسترشد والراشد ـ الأمر الذي مكن زنكي من المحافظة على علاقاته الطيبة مع الخليفة. وقد أرسل هذا إليه عام ٥٣٢هـ يطلب منه إطلاق سراح الزينبي قاضي قضاة بغداد السابق، الذي كان محتجزاً في الموصل منذ عام ٥٣٠هـ، بسبب موقفه المعادي للراشد آنذاك. وقد استجاب زنكي لطلب الخليفة وأطلق سراح الزينبي الذي غادر الموصل إلى بغداد حيث أعيد إلى منصبه[٢].

وفي أواخر شهر رمضان من العام نفسه أرسل الخليفة رسولاً إلى زنكي ليخلع عليه ويهنئه بالنصر الذي حققه ضد الصليبيين شمالي الشام، فاحتفى زنكي به، وبرسول السلطان الذي كان يرافقه، وأكرمهما إكراماً بالغاً[٣]. ومن ثم لم يرد ما يشير إلى حدوث تأزم بين الطرفين طيلة العقد الأخير من

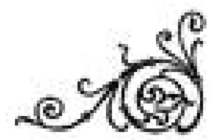
(١) نفسه ١١ ـ ٣٨، الباهر ص ٦٦، أما ابن الجوزي (المنتظم ١٠ ـ ١٠٥) فيجعل المبلغ المدفوع ثلاثين ألفاً بدلاً من عشرين.

(٢) المنتظم ١٠ ـ ١٣٥ ـ ١٣٦، الكامل ١١ ٢٧، الفارقي : مخطوطة، ورقة ١١٦ ب ـ ١١٧ أ.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ١ ـ ٨٣، وانظر فصل (زنكي والصليبيون).

حكم زنكي، حيث تبلورت العلاقات الودية بينهما، وازدادت وثوقاً بعد فتح زنكي الرها عام ٥٣٩هـ حيث منحه الخليفة عدداً كبيراً من الألقاب الشرفية، كالأمير الكبير العادل المؤيد المظفر المنصور[١]...

وهكذا يتضح أن زنكي كان يتمتع باستقلال كبير في سياسته تجاه السلطان السلجوقي والخليفة العباسي، وغدا يشكل قوة لها أثرها في الأحداث التي دارت في العراق، إذ حاول اتباع سياسة عدم الولاء المطلق للسلطان السلجوقي، واستغلال تذمر بعض الخلفاء العباسيين من السيطرة السلجوقية لضرب هذه السيطرة مباشرة. ولكنه ـ باتباعه هذه السياسة ـ لم يحصل على نتائج مهمة لصالحه. بل على العكس، كادت أن تهدد حكمه في كثير من الأحيان. ولولا الدور الذي كان يقوم به ضد الخطر الصليبي، وجعله من إمارته حاجزاً يصد عن أملاك السلاطين هذا الخطر، لكان من المحتمل أن تتعرض إمارته لهزات خطيرة ـ كما كاد أن يحدث عام ٥٣٨هـ ـ ربما أودت بالبناء الذي سهر زنكي على إقامته السنين الطوال.

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ Runciman: Crusades, 11/237.

الفصل الثالث
عماد الدين زنكي وإمارات المدن

شهدت منطقة الموصل والجزيرة وشمالي الشام في هذه الفترة عدداً كبيراً من المدن المتفرقة التي استأثر بحكم كل منها أمير شبه مستقل، والتي كانت تتميز عن الإمارات المحلية بكون صاحبها لم يكن يملك إلا حكم المدينة وحدها وما يحيط بها ـ أحياناً ـ من أرض محدودة. وكان حكام هذه المدن عرضة للتبدل والتغيير بين حين وآخر، بمجرد ظهور أمير قوي تتيح له إمكانياته العسكرية اكتساح أولئك الحكام، ولذلك فإن معظم هذه المدن لم تشهد حكماً وراثياً طويل المدى، كما كان الحال سائداً في كثير من الإمارات المحلية، الأمر الذي جعل حكام تلك المدن أقل شهرة بكثير مما هم عليه الأمراء المحليين.

بدأ زنكي محاولاته لتوحيد المنطقة بضم هذه المدن، لضعفها وتفرقها وضيق مساحتها. وكان ولاة الموصل الذين سبقوه قد عجزوا عن اكتساحها وبالتالي عن تحويل السلطة الرسمية التي منحهم السلاجقة إياها، بحكم الموصل والجزيرة وشمالي الشام، إلى سلطة فعلية. لذلك سعى زنكي للقضاء على هذه المواقع المستقلة كي تغدو سلطته في هذه المناطق أمراً واقعاً.

كانت البوازيج ـ الواقعة على طريق الموصل، عند مصب الزاب الأسفل ـ أولى المواقع التي استولى عليها زنكي. وذلك لدى توجهه إلى الموصل عام ٥٢١هـ لتولي مهام منصبه، مستهدفاً من وراء ذلك اتخاذها خط رجعة له لحماية ظهره في حالة تصدي جاولي ـ وصي حاكم الموصل ـ لزحفه. ثم

استمر في سيره نحو الموصل. وعندما وصل جاولي نبأ تقدمه على رأس قوات حاشدة، يحمل معه منشور السلطان بحكم الموصل، أدرك أن ليس في طاقته التصدي له، وآثر السلامة، فخرج لاستقباله، يصحبه أمراء الموصل وقادتها، وما أن التقى به حتى ترجل وقبل الأرض بين يديه وأعلن طاعته له، فأقطعه زنكي مدينة الرحبة وأعمالها، وسيره إليها[١].

جزيرة ابن عمر ٥٢١ هـ:

دخل زنكي الموصل، وأقام فيها فترة قصيرة ريثما يعيد تنظيم أمورها الإدارية والعسكرية التي اضطربت إثر الأحداث التي أعقبت وفاة واليها عز الدين مسعود بن البرسقي[٢]، ثم ما لبث أن غادرها صوب الشمال للاستيلاء على جزيرة ابن عمر والتي كان يحكمها أحد مماليك البرسقي[٣]. فامتنع هذا المملوك عليه معتمداً على حصانة مدينته. فراسله زنكي وعرض عليه عروضاً مغرية ليقنعه بالاستسلام ؛ لكنه لم يستجب له، فاضطر إلى تشديد الحصار على المدينة ليدخلها عنوة بعد أن أعجزته الأساليب السلمية عن تحقيق هدفه، وسرعان ما وجد سكانها أن لا طاقة لهم على الصمود، فأعلنوا استسلامهم وفق شروط زنكي الذي فتحت له الأبواب فدخل القلعة على رأس قواته[٤]. ولعله بدأ بمهاجمة هذا الموقع قبل غيره من المدن والقلاع بسبب قربه من الموصل، وأهميته العسكرية والاقتصادية.

---

(١) الفارقي : مخطوطة، ورقة ١٠٨ ـ ب، الكامل ١٠ ـ ٢٤٦، الباهر ص ٣٥.

(٢) بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام: معجم البلدان ١٣٨/٢، دار صادر.

(٣) المصادر السابقة، نفس الصفحات.

(٤) أصبحت جزيرة ابن عمر تخضع للموصل منذ أن غدا صاحبها (جكرش) والياً على الموصل عام ٤٩٥ هـ، وبقيت كذلك طيلة عهود الولاة الذين أعقبوه : جاولي سقاو (٥٠٠ ـ ٥٠٢ هـ) ثم مودود (٥٠٢ ـ ٥٠٧ هـ) ثم جيوش بك (٥٠٧ ـ ٥١٤ هـ) ثم آق سنقر البرسقي (٥١٥ ـ ٥٢٠ هـ) فابنه مسعود (٥٢٠ ـ ٥٢١ هـ). وكان هؤلاء الولاة ينيبون عنهم أحد أتباعهم لحكم هذه المدينة : (ابن شداد : الأعلاق الخطيرة، المخطوطة، قسم الجزيرة ورقة ٥٨ ب ـ ٥٩ ب).

حلب ٥٢٢هـ:

كانت حلب أهم مدينة في الجهات الشمالية من بلاد الشام، لحصانتها وإمكانياتها الاقتصادية وموقعها الهام على خطوط المواصلات بين بلاد فارس والعراق من جهة وبين الشام وآسيا الصغرى من جهة أخرى، ومن ثم غدت قاعدة عسكرية رئيسية منذ عهد طويل، لا يمكن ـ بدونها ـ التحكم في الجهات الشمالية والوسطى من بلاد الشام.

ولما كان زنكي يهدف إلى الاستيلاء على دمشق، واتخاذها قاعدة لتوحيد بلاد الشام، وقتال الصليبيين، كما كان يهدف إلى بناء سياج متين حول إمارته يجنبها الأخطار[١]، لذلك كان لابد له من الاستيلاء على حلب لضمان تحقيق هذه الأهداف، وهكذا نجد أن أهم ما كان زنكي يسعى لتحقيقه إثر توليه الموصل هو (عبور الفرات وملك حلب. ثم الاستيلاء على غيرها من البلاد الشامية) كما أعلن ذلك بنفسه[٢].

كانت الظروف آنذاك مواتية لزنكي لتحقيق هدفه هذا، إذ اضطربت أحوال حلب واجتاحتها الفوضى إثر وفاة عز الدين مسعود عام ٥٢١هـ واستئثار نائبه (قتلغ آبه) بإدارة شؤونها[٣]، حيث انتهز الصليبيون الفرصة وعادوا إلى شن هجماتهم العنيفة للاستيلاء على هذا الموقع الهام، واتخاذه قاعدة لمد نفوذهم باتجاه الشرق والجنوب الشرقي. وقد رافق تلك الهجمات تدهور الأحوال الاقتصادية للمنطقة، وانتشار الخوف والقلق بين السكان[٤].

---

(١) الكامل ١٠ ـ ٢٤٦، الباهر ص ٣٦.

(٢) الكامل ١٠ ـ ٢٤٦، الباهر ص ٣٦.

(٣) الباهر ص ٧٩.

(٤) المصدر السابق ص ٣٧.

ومما زاد في اضطراب الأمور: السياسة الظالمة التي اتبعها (قتلغ آبه) ومصادرته أموال الناس، وتسليط أجناده عليهم، مما دفع الحلبيين إلى التكتل حول نائب حلب السابق سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، وإعلان الثورة ـ في مطلع شوال ـ ضد قتلغ آبه الذي تحصن في القلعة. وقد أتاح ذلك للصليبيين فرصة تسديد ضربات أعنف ضد حلب، الأمر الذي عرقل ثورة سليمان بن عبد الجبار، إذ توزعت جهوده بين تركيز الهجوم ضد القلعة، وبين الدفاع عن البلد ضد الصليبيين، واضطر أخيراً إلى إجراء مفاوضات معهم انتهت بعقد هدنة بين الطرفين، سلمت إليهم بموجبها بعض المناطق الزراعية المحيطة بالجهات الغربية من حلب، إلا أن ذلك لم يخلص هذه المدينة التي لفتها الفوضى من كل مكان[١].

وما أن استقر زنكي في الموصل حتى توجه إليه صاحب قلعة جعبر القريبة من حلب، وشرح له تدهور الأوضاع في المنطقة، فأسرع بإرسال اثنين من كبار أمراء البرسقي، المطلعين على دقائق التطورات في حلب، على رأس جيش كبير وسلمهما منشور السلطان السلجوقي له بحكم الموصل والجزيرة والشام، كي يدعم مهمتهما من الناحية الرسمية[٢]. وقد تمكن هذان الأميران ـ بما معهما من قوات ـ من إعادة الاستقرار إلى حلب، وعقد صلح بين الطرفين المتنازعين. وتم الاتفاق ـ كذلك ـ على أن يتجه كل من قتلغ آبه وسليمان بن عبد الجبار إلى الموصل لمقابلة زنكي[٣].

ما أن اطمأن زنكي إلى نجاح مهمة أمرائه، حتى تهيأ للتوجه بنفسه إلى حلب، فأرسل أولاً حاجبه الياغسياني لتنظيم أمورها الإدارية، وتمهيد الطريق

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٨، الكامل ١٠ ـ ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٢) الباهر ص ٣٢ ـ ٣٤ ـ ٣٧ ـ ٣٨، الروضتين ١ ـ ٧٦ ـ ٧٧، ٧٧ ـ ٧٨.

Runciman : Crusades 11 / 182

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٨، الكامل ١٠ ـ ٢٤٧ ـ ٢٤٨، مفرج الكروب ١ ـ ٣٨ ـ ٣٩.

لدخوله، ومن ثم غادر الموصل على رأس جيشه في ربيع عام ٥٢٢هـ، واستولى في طريقه على مدينتي منبج وبزاعة. وعندما وصل مشارف حلب خرجت جموع أهاليها لاستقباله، معربة عن استبشارها بقدومه الذي جاء فاتحة عهد جديد من الأمن والاستقرار اللذين افتقدوهما طيلة السنين الصعبة الماضية. فدخل القلعة في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، وبدأ من هناك بتنظيم أمور البلد، وإقطاع أعماله لأمرائه وأجناده[١].

أدرك زنكي أن الاحتفاظ بحلب واستمرار أمنها وسلامتها لن يتما إلا بالقضاء على زعمائها السابقين، ذوي المصالح القديمة فيها، فبدأ بإلقاء القبض عليهم وإرهابهم لكي يضطرهم إلى مغادرة حلب، وقد جاء قتله لقتلغ آبه بمثابة إنذار لأولئك الزعماء، فتسللوا هاربين واحداً بعد الآخر: فر إبراهيم ابن رضوان بن تتش السلجوقي إلى نصيبين، وبقي فيها حتى وفاته[٢]، وأعقبه سليمان بن عبد الجبار الأرتقي[٣]، والتجأ فضائل بن بديع ـ رئيس حلب السابق ـ إلى قلعة جعبر[٤]. وبهذا انفتح الطريق أمام زنكي لفرض سيطرته وتوحيد صفوف الحلبيين لمجابهة الأخطار الخارجية المحتملة.

سنجار والخابور ـ ٥٢٣هـ:

لم يتعرض زنكي ـ حين توجهه إلى حلب ـ للمدن والحصون الواقعة على الطريق بينها وبين الموصل؛ إذ كانت الظروف تستدعي منه أن يضع يده

---

(١) الكامل ١٠ ـ ٢٤٨، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٤١، ويشير Runciman , Ibid إلى أن زنكي سعى للاستيلاء على حلب باعتبارها جزءاً من ممتلكات البرسقي (والي الموصل السابق)، لكن الواقع هو أن زنكي لم يهتم بإعطاء الصفة الرسمية (أو الشرعية) لاستيلائه على حلب، لأنه يملك هذه الصفة بحيازته لمنشور السلطان الذي كان ينص على ما يفتحه من الشام. كما أن دخوله حلب كان باستدعاء بعض زعمائها وترحيب من أهاليها.

(٢) الكامل ١٠ ـ ٢٤٨، مفرج الكروب ١ ـ ٣٩، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٤٢.

(٣) الكامل ١٠ ـ ٢٤٨، الباهر ص ٣٨، زبدة حلب ٢ ـ ٢٤٢، مفرج الكروب ١ ـ ٣٩ ـ ٤.

(٤) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٤٣.

على حلب أولاً، ثم ينطلق لفرض سيطرته على المواقع الأخرى من أجل تأمين الطريق إلى الشام. وما أن أقر الأوضاع في المدينة المذكورة حتى اتجه في أواخر عام ٥٢٢هـ للاستيلاء على سنجار والمناطق المجاورة[١]، وفرض الحصار عليها، إلا أن أهاليها امتنعوا عليه، وإذ لم يروا من مقاومتهم جدوى إزاء إصرار زنكي على اقتحام المدينة، اضطروا إلى مصالحته وتسليم سنجار إليه[٢]. ثم ما لبث أن أرسل من هناك بعض قواته إلى الخابور[٣] حيث تمكنت من الاستيلاء عليه[٤]. وكانت سنجار تقع وسط الطريق بين الموصل وحلب، وتشكل منطلقاً للسيطرة على المناطق الأخرى[٥]، ولذا فقد حقق زنكي باستيلائه عليها نصراً هاماً.

حران ٥٢٢ هـ:

توجه زنكي ـ من ثم ـ إلى حران التي كانت تابعة لمسعود بن البرسقي والي الموصل (٥٢٠ ـ ٥٢١ هـ)[٦]. فلما توفي هذا تعرض أهاليها لتهديدات

---

(١) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة، الكامل ١٠ ـ ٢٤٨.

(٣) خضعت سنجار لولاة الموصل منذ عام ٥١٥ هـ حينما أقطعها السلطان محمد مع الموصل وأعمالها لآق سنقر البرسقي عام ٥٢٠ هـ، وعندما توفي هذا في العام التالي، خضعت لأخيه الصغير الذي أعقبه في حكم المنطقة : (ابن شداد : الأعلاق مخطوطة، ورقة ٤٧ أ ـ ٤٧ ب). ولم تشر المصادر إلى نائب سنجار، أو القائد المسؤول عن تنظيم دفاعها، خلال هجوم زنكي عليها.

(٤) الباهر ص ٣٧، الكامل ١٠ ـ ٢٤٧ (جاعلاً الحادثة عام ٥٢١، والأصح ٥٢٢ هـ). نسبة إلى نهر الخابور في ديار ربيعة، وهي ولاية واسعة تضم بلداناً كثيرة تنسب إليه (ياقوت : معجم البلدان ٢ ـ ٣٨٣).

(٥) الباهر ص ٣٧، الكامل ١٠ ـ ٢٤٧.

(٦) كان البرسقي قد استولى عليها من بني أرتق عام ٥٠٧ هـ، ثم استعادها هؤلاء عام ٥١٢ هـ، وبقيت في أيديهم حتى عام ٥١٨ هـ حيث استردها البرسقي ثانية (ابن شداد: الأعلاق ورقة ١٦ ب ـ ١٨ أ).

الصليبيين الذين كانوا قد استولوا على بعض المدن والحصون القريبة منها كالرها وسروج. وعندما تولى زنكي الموصل راسله أهالي حران معلنين طاعتهم له. ومستحثين إياه على القدوم إليهم لتسليمه موقعهم. فاستجاب لهم وتوجه إلى حران حيث استقبله أهاليها (فوعدهم ومنَّاهم)[١]. ثم أقطعها لسوتكين الكرجي. أحد كبار أمرائه. لكن هذا أعلن ـ بعد سنوات ـ عصيانه ضد زنكي. وانضم إلى جيش الخليفة المسترشد عام ٥٢٧هـ. ولم تشر المصادر إلى سبب عصيان سوتكين وتاريخه. ولعله أراد الاستقلال بإقطاعه على غرار كثير من الأمراء المعاصرين. وربما لقيام الخليفة باستمالته ضد زنكي.

لم تسنح الفرصة لزنكي للقضاء على عصيان سوتكين وإعادة سيطرته على حران حتى عام ٥٣٣هـ، إذ انتهت المشكلة بموت سوتكين نفسه. وحينذاك وجه زنكي قواته التي استطاعت الاستيلاء عليها بعد مقاومة بسيطة قادها نائب سوتكين، وبقيت حران تحت سيطرة زنكي حتى مقتله عام ٥٤١هـ[٢].

أربل ٥٢٦ هـ:

أدرك زنكي أهمية أربل العسكرية بالنسبة للموصل، إذ هي بمثابة الباب الشرقي الذي يصلها ببلاد فارس والمشرق، وقلعة الدفاع الرئيسية في الطريق الذاهب غرباً صوب الشام. وعندما أتيحت له فرصة مهاجمتها لم يتردد رغم كونها من ممتلكات مسعود بن محمد السلجوقي سلطان أذربيجان. فهاجمها عام ٥٢٦هـ وشدد النكير عليها، إلا أن حاميتها استطاعت أن تصمد لحين تقدم السلطان مسعود لنجدتها؛ فاضطر زنكي إلى الانسحاب، ثم رأى

---

(١) الباهر ص ٣٧.

(٢) ابن شداد: مخطوطة، ورقة ١٧ أ ـ ١٨ أ، مفرج الكروب ١ ـ ٨٤.

مسعود أن يضحي بهذا الموقع كي يكسب زنكي إلى جانبه في صراعه ضد منافسيه من أجل الحصول على عرش سلاجقة العراق، فوافق الأخير على اتفاق كهذا يتيح له ضم موقع هام إلى إمارته، قد يساعده في المستقبل على التوغل شرقاً، وبعد أن أخذ كل من الحليفين العهود من صاحبه تسلم زنكي أربل، وعين فيها نائباً عنه[١].

بنو أيوب حكام تكريت ٥٢٦ ــ ٥٤١ هـ:

في الثاني عشر من ربيع الآخر عام ٥٢٦هـ انهزم زنكي في أعقاب المعركة التي دارت بينه ـ كحليف للسلطان مسعود ـ وبين قوات الملكين طغرل وداود المنافسين للسلطان المذكور[٢]، وانسحب بفلول جيشه نحو تكريت التي كان يحكمها نجم الدين أيوب[٣]، فأقام هذا المعابر على دجلة، وجهز عدداً من السفن لنقله وقواته إلى الضفة الأخرى التي تقع عليها مدينة تكريت. وهناك أحسن نجم الدين إلى زنكي وجنده، وداوى جراحهم، وقدم إليهم سائر ما يحتاجون إليه. وبعد أسبوعين غادر زنكي وأتباعه تكريت مودعين بمثل ما استقبلوا به من حفاوة وإكرام[٤]. وأخذ يرسل الهدايا إلى نجم الدين تباعاً اعترافاً منه بفضله، وحسن ضيافته[٥].

---

(١) مفرج الكروب ١ ـ ٩٧.

(٢) انظر التفاصيل في الفصل الثاني.

(٣) كان شادي بن مروان، والد كل من نجم الدين أيوب وأسد شيركوه، من أكراد بلدة دوين الواقعة على حدود إقليم أذربيجان قريباً من تفليس (أبو الفداء: تقويم البلدان ص ٣٩٩). وقد غادر بلدته تلك بصحبة ولديه إلى بغداد بحثاً عن عمل. وهناك انتظموا في خدمة مجاهد الدين بهروز شحنة العراق، فوجههم إلى تكريت التي كانت إحدى إقطاعاته. وبعد وفاة شادي عين بهروز ابنه نجم الدين مستحفظاً لتكريت: (الكامل ١١ ـ ١٣٨، الباهر ص ١١٩ ـ ١٢٠، الروضتين ٢ ـ ٣٢٩ ـ ٣٣٠، ٥٣٦ ـ ٥٣٧، ابن شداد : المحاسن ص ٦٠).

(٤) المصادر السابقة، نفس الصفحات.

(٥) الروضتين ٢ ـ ٥٣٧.

وعندما بلغ بهروز ـ شحنة بغداد ـ موقف نائبه في تكريت من زنكي بعث إليه رسولاً ليعاتبه على إحسانه لعدو سلاجقة العراق وإطلاق سراحه بعد أن كان قد وقع في يديه[١]. وازداد حرج بهروز لدى قيام أسد الدين شيركوه بقتل أحد سكان تكريت بسبب تعرضه لإحدى النساء، واضطر إلى إصدار أمره إلى نجم الدين بمغادرة تكريت وجميع أفراد عائلته. ولم يكن باستطاعة بهروز معاقبة أسد الدين شيركوه لما بين الطرفين من صداقة قديمة ترجع إلى زمن أبيه[٢].

في هذه الفترة الحرجة من أواخر عام ٥٣٢هـ ولد صلاح الدين لنجم الدين أيوب، واضطرت العائلة لمغادرة تكريت، وربما كان ذلك في الليلة التي ولد فيها الطفل المذكور[٣] ولم يكن هناك ملجأ أكثر أمناً لهذه العائلة الطريدة من كنف الأمير الذي أحسنوا إليه قبل عدة أعوام. ولم ينس زنكي الإحسان فاستقبل عائلة بني أيوب أحسن استقبال، وأقطع رجالاتها الإقطاعات الواسعة[٤]، وأتاح للأخوين نجم الدين وأسد الدين الانخراط في قواته[٥]، والإشراف على تربية أبنائه[٦]. والاشتراك في الحروب التي خاضها في الشام ضد الصليبيين[٧].

ظلت العائلة الأيوبية تنعم بحماية زنكي، وأخذت علاقاتها به تزداد وثوقاً يوماً بعد يوم. وعندما استولى على بعلبك عام ٥٣٤ عين نجم الدين

(١) ابن خلكان : وفيات ٦ ـ ١٤٢.
(٢) الكامل ١١ ـ ١٣٨، الباهر ص ١١٩.
(٣) وفيات الأعيان ٦ ـ ١٤٣ ـ ١٤٤، ابن شداد : المحاسن ص ٦٠.
(٤) الروضتين ٢ ـ ٥٣٨.
(٥) الباهر ص ١١٩، الكامل ١١ ـ ١٣٨، وفيات الأعيان ٦ ـ ١٤٢ ـ ١٤٣.
(٦) المقريزي : السلوك ١ ـ ١ ـ ٤٢.
(٧) الروضتين ٢ ـ ٥٣٨.

أيوب والياً عليها، وأقطعه ثلثها[١]، فاستقر هناك هو وأفراد العائلة الأيوبية[٢]، وظل يمارس مهام عمله كوال لزنكي حتى مقتل الأخير عام ٥٤١هـ. وكان صلاح الدين خلال تلك الفترة قد ترعرع في كنف والده (وبدت عليه سيماء النجابة والذكاء، والتمعت عيناه ببريق القوة)[٣].

وهكذا قدر لزنكي أن يلعب دوراً هاماً في إظهار العائلة الأيوبية في المجالات السياسية والعسكرية والإدارية، وأن يمهد لها الطريق إلى المكانة الكبيرة التي تمتعت بها في عهد ابنه نور الدين محمود.

الرقة ٥٢٩ هـ:

مر زنكي بالرقة[٤] عام ٥٢٩هـ حينما كان متجهاً إلى دمشق في محاولة للاستيلاء عليها، ورأى أن ينتهز الفرصة ويعمل على ضم هذه المدينة إلى إمارته، فدبر خدعة طريفة مكنته من تحقيق هدفه دون الاضطرار إلى القتال، وذلك بأن أعلن لأصحابه عن رغبته بالاستحمام في حمام البلد، فقام حاجبه صلاح الدين الياغسياني بإحضار مسيب بن مالك صاحب الرقة وقال له: (زنكي يشتهي دخول الحمام وهذه خمسمئة دينار تسلمها واعمل بها دعوة)!! فلم يشك مسيب بنوايا زنكي ورجاله، فأقام الدعوة وسمح لهم بدخول المدينة، وما أن أصبح آخر جندي داخل السور حتى أمر زنكي قواته بالاستيلاء على المدينة، ثم ما لبث أن أبعد المسيب، وأقطعها أحد أمرائه. وقد ظلت في يده حتى مقتله عام ٥٤١[٥].

---

(١) الكامل ١١ ـ ١٣٨، الباهر ص ١١٩.

(٢) الروضتين ١ ـ ٨٦ ـ ٨٧.

(٣) ابن شداد : المحاسن ص ٦٠.

(٤) استطاع النميريون أصحاب الرقة أن يصمدوا بموقعهم إزاء هجمات ولاة الموصل، وبقيت بأيديهم حتى السنة التي نتكلم عنها (انظر : ابن شداد المخطوطة، ورقة ٢٤ أ ـ ٢٤ ب).

(٥) المصدر السابق، نفس الصفحة، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٥٧.

دقوقا ٥٣١هـ وشهر زور ٥٣٤هـ:

وفي عام ٥٣١ عاد زنكي ليمد فتوحاته شرقاً، فتوغل في الطريق الواقع بين إربل وبغداد حتى وصل دقوقا وحاصرها، ثم تمكن من اقتحامها بعد قتال شديد[١]. وبعد ثلاثة أعوام قرر القيام بمحاولة أخرى للتوغل شرقاً والاستيلاء على قلعة شهرزور الواقعة وسط سهل واسع باسمها، يمتد بين إربل وهمذان ويقطنه الأكراد[٢]. وكانت هذه القلعة وما يحيط بها من بلاد تحت سيطرة الأمير قفجاق بن أرسلان تاش التركماني، الذي كان (نافذ الحكم على قاصي التركمان ودانيهم، يرون طاعته فرضاً. وكان الملوك والأمراء يتحاشون قصد ولايته.. لحصانتها. فعظم شأنه وازداد جمعه، وقصده التركمان من كل مكان)[٣]. فلما حل عام ٥٣٤ بلغ زنكي عنه ما دفعه إلى مهاجمة بلاده، وربما كان سبب ذلك تعاظم شأن قفجاق هذا، وتجمع المقاتلين الأشداء في ولايته، وخطره على ممتلكات زنكي الذي أشار أصحابه عليه بعدم التعرض لهذه الإمارة، خوفاً من نتائج لقاء لا تحمد عقباه، وربما انتهى الأمر بتنازل قفجاق عن بعض أملاكه للسلطان مسعود، فيغدو الأخير مجاوراً لإمارة الموصل ويشكل خطراً مباشراً عليها. إلا أن زنكي لم يرجع عن عزمه، وسير إلى قفجاق جيشاً كثيفاً، فقام هذا باستدعاء كل قادر على حمل السلاح، من التركمان، فتداعوا إليه من كل مكان. إلا أن جيش زنكي تلقاهم وقاتلهم بشجاعة فائقة، وشدد النكير عليهم، حتى تمكن أخيراً من إلحاق الهزيمة بهم، واستباحة أسلابهم، ومضى التركمان منهزمين لا يلوون على شيء[٤].

---

(١) الكامل ١١ ـ ٢٢، مفرج الكروب ١ ـ ٧١.

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٣ ـ ٣٤٠ ـ ٣٤١.

(٣) الكامل ١١ ـ ٣١.

(٤) الكامل ١١ ـ ٣١، الباهر ص ٥٧ ـ ٥٨.

انطلقت قوات زنكي، واقتحمت شهرزور دون مقاومة تذكر، ثم بدأت بمطاردة الفلول التركمانية. ومنازلة حصونها وقلاعها. حتى تمكنت من الاستيلاء على معظمها. وقد أمر زنكي قادته بإصلاح أحوال سكان المنطقة من الأكراد وتخفيف ما كانوا يلقونه من التركمان[١]. كما طلب منهم أن يبذلوا الأمان لقفجاق فأجابهم إليه، وانخرط هو وبنوه في جيش زنكي، واستمروا يعملون في الموصل حتى مطلع القرن السابع الهجري[٢].

الحديثة وعانة ٥٣٦ ـ ٥٣٨ هـ:

التفت زنكي صوب الجنوب الغربي، وتمكن من مد حدود إمارته إلى أعماق الصحراء العراقية وذلك باستيلائه على مدينة الحديثة الواقعة على الفرات[٣] عام ٥٣٦ هـ، وأعقب ذلك بخطوة جريئة حيث قام بترحيل حكامها القدماء من (آل مهارش) العلويين، وتعيين نوابه فيها[٤]، من أجل أن يضمن سيطرته النهائية عليها. وبعد مرور عامين أرسل جيشاً إلى مدينة عانة[٥] القريبة منها، وتمكن من الاستيلاء عليها[٦].

ما لبث أهالي الحديثة أن قاموا ـ عام ٥٣٩هـ ـ بتمرد ضد حكم زنكي وأعلنوا العصيان، فاضطر إلى أن يرسل قوة عسكرية كبيرة استطاعت أن تعيد السيطرة على المدينة بعد قتل عدد كبير من المتمردين[٧]. وأغلب الظن

(١) المصدران السابقان، نفس الصفحات.
(٢) الكامل ١١ ـ ٣١، ابن الوردي : تاريخ ٢ ـ ٤٣.
(٣) تقوم هذه المدينة على جزيرة وسط الفرات وهي غير (حديثة الموصل) الواقعة على ضفة دجلة الشرقية بالقرب من مصب الزاب الأعلى (ياقوت : معجم البلدان ٢ ـ ٢٢٢ ـ ٢٢٥).
(٤) المنتظم ١٠ ـ ١٠٢، الكامل ١١ ـ ٣٦، مفرج الكروب ١ ـ ٩٠.
(٥) معجم البلدان ٣ ـ ٥٩٤ ـ ٥٩٥.
(٦) الكامل ١١ ـ ٤٠، الباهر ص ٦٤، الروضتين ١ ـ ٩٢، ٩٤.
(٧) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠.

أن سبب هذا العصيان يعود إلى قيام زنكي بتهجير حكام الحديثة من المهارش، الأمر الذي أدى إلى استفزاز الأهالي، ودفعهم إلى التمرد على حكم زنكي، سيما وأنهم علويون لا ينسجمون والحكم السنّي الجديد[١].

قلعة جعبر ٥٤٠ ـ ٥٤١ هـ:

وفي أواخر عام ٥٤٠هـ توجه زنكي إلى قلعة جعبر المطلة على الفرات[٢] في محاولة للاستيلاء عليها؛ عملاً بخطته التي تقضي بأن (لا يبقى وسط بلاده ما هو ملك لغيره)[٣]. وكان يحكم هذه القلعة يومئذ علي ابن مالك العقيلي[٤].

فهاجمها زنكي على حين غفلة من أهلها، وتوغلت قواته في ربضها وأسرت عدداً من سكانه، إلا أن القلعة صمدت للهجوم. وعندما أوشكت مياهها على النفاد اضطر أصحابها إلى مراسلة زنكي، وتبودلت الرسل بين الطرفين دون التوصل إلى نتيجة تذكر، مما اضطر الأخير إلى استخدام العنف والتهديد ثانية، لكن صاحب القلعة لم يذعن له[٥]، واستمر القتال حتى اليوم الخامس من ربيع الآخر عام ٥٤١ حيث اغتيل زنكي، فساد الاضطراب جيشه واضطر إلى فك الحصار[٦].



---

(١) معجم البلدان ١ ـ ٢٢٣.

(٢) كانت هذه القلعة في السابق تسمى دوسر (معجم البلدان ٢ ـ ٨٤ ـ ٨٥).

(٣) الباهر ص ٧٣.

(٤) كانت جعبر قد انتقلت إلى العقيليين منذ عام ٤٧٩ هـ (معجم البلدان) ٢ ـ ٨٤ ـ ٨٥ الكامل ١٠ ـ ٥٥).

(٥) الكامل ١١ ـ ٤٤، الباهر ص ٧٣ ـ ٧٤.

(٦) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥، الكامل ١١ ـ ٤٥، الباهر ص ٧٤ ـ ٧٥.

الفصل الرابع
عماد الدين زنكي والإمارات المحلية في ديار بكر

كان هدف زنكي ـ بعد أن تم له الاستيلاء على حلب، واتخاذها قاعدة في بلاد الشام ـ السيطرة على المناطق الممتدة بينها وبين الموصل، والتي كان يحكمها أمراء مستقلون، عملاً بخطته القاضية (بألا يبقى في بلاده ما هو ملك لغيره، حزماً منه واحتياطاً)[١]. ذلك أنه كان يستهدف ـ كما ذكرنا ـ إنشاء إمارة موحدة قوية، تمكنه من تحقيق انتصارات حاسمة ضد الصليبيين. وكان عليه ـ لتحقيق هذا الهدف ـ اكتساح عدد من الإمارات المحلية في منطقة ديار بكر، والتي كانت تشكل خطراً على مواصلاته مع الشام، سيما في حالات صدامه مع الصليبيين.

بدأ زنكي هجومه على ديار بكر عام ٥٢٣هـ، بعد مضي أشهر فحسب على دخوله مدينة حلب، وكانت نصيبين التابعة للأراتقة[٢] هدفه الأول في

(١) الباهر ص ٧٣.

(٢) ينتمي هؤلاء إلى (أرتق بن أكسك) أحد مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه (٤٦٥ ـ ٤٧٥ هـ)، وقد بلغ مكانة حسنة لدى السلاجقة فأقطعوه القدس عام ٤٧٩ هـ. وعند وفاته عام ٤٨٣ هـ انتقلت إلى ولديه سقمان وإيلغازي اللذين كانت لهما مع القدس بعض القلاع الجذرية كالرها وسروج. وفي عام ٤٩١ استولى الفاطميون على القدس واضطروا الأراتقة إلى الجلاء عنها، فرحل إيلغازي إلى بغداد للعمل تحت لواء السلاجقة، واتجه سقمان إلى =

هذا الهجوم. وما أن فرض الحصار عليها حتى استنجد صاحبها حسام الدين تمرتاش الأرتقي (٥١٦ ـ ٥٤٧هـ) حاكم إمارة ماردين، بابن عمه ركن الدولة داود، حاكم إمارة (حصن كيفا) لصد زنكي عن نصيبين وحمله على فك الحصار عنها، كما بعث إلى أهاليها وحاميتها رسالة مستعجلة، على جناح طائر، يحثهم فيها على الصمود ريثما تصلهم النجدة الأرتقية خلال فترة لا تتجاوز الخمسة أيام، إلا أن الرسالة وقعت بيد زنكي، واطلع على ما فيها، ورأى أن ينتهز الفرصة لتدبير حيلة قد تساعده على تحقيق هدفه، فأمر بكتابة رسالة أخرى إلى أهالي نصيبين بدلاً من الرسالة الأولى، جاء فيها: من حسام الدين تمرتاش، إني قد قصدت ابن عمي داود، وقد وعدني بالنجدة والمسير بالجيوش، وسوف لا يتأخر قدومه إلينا بأكثر من عشرين يوماً؛ لذا أطلب منكم الثبات طيلة هذه المدة!![1].

بعث الرسالة على جناح الطائر نفسه، ولم يشك النصيبيون لحظة بأنها وردت إليهم من أميرهم الأرتقي (فخافوا على نفوسهم، وأيقنوا أنهم يعجزون عن الدفاع عن البلد خلال هذه المدة الطويلة)؛ لذا أرسلوا إلى زنكي وصانعوه وسلموا مدينتهم إليه (فبطل على حسام الدين وداود ما كانا

= الرها وأقام فيها واستطاع في ظرف سنين معدودة الاستيلاء على عدد من أهم بلاد ديار بكر كحصن كيفا وماردين ونصيبين، وتشكيل إمارة محلية ظل يحكمها حتى وفاته عام ٤٩٨ هـ. وعندما سمع أخوه إيلغازي بذلك أسرع بالتوجه إلى ديار بكر، وتمكن من وضع يده على ممتلكات سلفه، فيما عدا حصن كيفا الذي صار لداود بن سقمان، ومن ثم تبلور كيان الأراتقة هناك في إمارتين غدت ماردين قاعدة لإحداهما، وحصن كيفا قاعدة للأخرى. وفي عام ٥١٦ هـ توفي إيلغازي، فخلفه ابنه حسام الدين تمرتاش الذي توسعت أملاك بني أرتق في عهده.. واستمرت هذه العائلة تحكم المنطقة حتى مطلع القرن التاسع الهجري. انظر: ابن خلدون: تاريخ، ط بيروت، مجلد ٥، ص ١ ـ ٤ ٤٦٩، E.I.S.V. Artukids by C.Cahen الإمارات الأرتقية في ديار بكر للمؤلف (مؤسسة الرسالة، بيروت ـ ١٩٨٠).

(١) الكامل ١٠ ـ ٢٤٦ ـ ٤٧٢، الباهر ص ٣٦ ـ ٣٧، مفرج الكروب ١ ـ ٣٥ ـ ٣٦.

قد عزما عليه)[١]. وبفتح نصيبين انفسح الطريق أمام زنكي لتحقيق أهدافه ضد إمارات ديار بكر، إذ اتخذ من هذا الموقع قاعدة عسكرية في المنطقة للهجوم على المواقع المجاورة.

أدرك أمراء دياربكر إثر سقوط نصيبين، مدى خطورة زنكي على ممتلكاتهم، فعقدوا تحالفاً بينهم في العام التالي للوقوف بوجهه، اشترك فيه الأميران الأرتقيان حسام الدين وابن عمه ركن الدولة، وسعد الدولة إيكلدي ابن إبراهيم ، صاحب آمد[٢]، وانضم إليهم عدد كبير من تركمان المنطقة، الذين كانوا يكنون الطاعة والإخلاص لركن الدولة داود، إذ إنه ما أن استدعاهم مستنجداً بهم، حتى تقاطروا عليه بحشودهم الكبيرة. فشكل المتحالفون جيشاً قوامه عشرين ألف مقاتل. ولما سمع زنكي نبأ هذا التجمع قرر مباغتته، وانطلق على رأس أربعة آلاف فارس صوب دارا القريبة من نصيبين، وهناك اشتبك الطرفان في قتال شديد، صبر فيه كلا المعسكرين، وأبدى جند زنكي خلاله ضروباً من البسالة والإقدام. وما لبثت المعركة أن أسفرت عن هزيمة أمراء دياربكر وانفتاح الطريق أمام غريمهم لوضع يده على عدد من المواقع القريبة كحصن سرجة ودارا[٣].

وكرد انتقامي على انتصارات زنكي، اتجه ركن الدولة داود، على رأس عدد كبير من جنده، إلى منطقة جزيرة ابن عمر التابعة للموصل، وأجرى

(١) المصادر السابقة، نفس الصفحات.

(٢) آمد هي إحدى المدن الكبيرة في ديار بكر، وقد كان قربها من ميافارقين سبباً في خضوع المدينتين لسلطة واحدة في معظم الأحيان، وعند مقتل تاج الدولة تتش، سلطان الشام السلجوقي، عام ٤٨٨ هـ استقل بآمد أحد أمرائها الأتراك ويدعى (صادر)، ثم انتقلت بعد وفاته إلى أخيه ينال. وظل أبناء هذه العائلة يتناوبون حكم المدينة إلى ما بعد عصر زنكي، معتمدين على حصانة موقعهم الذي كان محاطاً بسورين، فضلاً عن مناعته الطبيعية. انظر : (ابن شداد : الأعلاق الخطيرة (قسم الجزيرة)، مخطوطة، ورقة ٦٦ أ، ١٢٢ أ ب).

(٣) الكامل ١٠ ـ ٢٥٣، الباهر ص ٣٨ ـ ٣٩.

هناك نهباً وتخريباً واسع النطاق، الأمر الذي دفع زنكي إلى التوجه إليه لإيقافه عند حده. لكنه لم يستطع التوغل بعيداً، لضيق المسالك ووعورة الطريق، وانتشار أشياع داود في المنطقة، فاكتفى باستمالة السكان في الجهات التي بلغها، ثم قفل راجعاً[١].

أدرك زنكي، إثر هذه الأحداث، مدى الخطر الذي يشكله التحالف بين أمراء ديار بكر ضد مطامحه في المنطقة، فرأى أن يلجأ إلى الأساليب السياسية علها تتيح له إحداث انشقاق وتنافر في صفوف أولئك الأمراء، كي يسهل عليه ـ بعد ذلك ـ اقتطاع أراضيهم وممتلكاتهم. واعتقد أن خير ما يبدأ به من خططه السياسية هو إيجاد تحالف متين مع أحد هؤلاء الأمراء، والاستعانة به ضد الآخرين. وكان من الصعب عليه تحقيق هذا التحالف مع غريمه اللدود ركن الدولة داود، لما كان يتميّز به هذا من حقد، ورغبة بإنزال الضربات بعدوه، وتحين الفرص للانقضاض على ممتلكاته[٢]. كما أن زنكي لم يشأ أن يتخذ من صاحب آمد حليفاً له، لضعف إمكانياته وعدم قدرته على تقديم مساعدات مجدية في حالة نشوب قتال بين أمير الموصل والأراتقة. ولم يبق أمامه إذاً سوى حسام الدين تمرتاش الذي كان أكثر مرونة من ابن عمه داود. لذا أخذ يتقرب إليه وأوقف مهاجمته لممتلكاته وسرعان ما أحس الأمير الأرتقي باتجاه زنكي الودي منه، ورأى أن التضحية بابن عمه داود لابد منها في سبيل كسب حليفه الجديد، وائتمان جانبه، والسعي ـ عن طريق هذا التحالف ـ للحصول على مزيد من المكاسب في المنطقة.

وشهد عام ٥٢٨هـ لقاءً وديّاً بين الحليفين[٣] انطلقا بعده مباشرة لمهاجمة الحصن المنيع آمد، وفرضا الحصار عليه، فأرسل صاحبه سعد الدولة إيكلدي

---

(١) المصدران السابقان، نفس الصفحات.

(٢) انظر مفرج الكروب ١ ـ ٥٢.

(٣) تاريخ آمد وميافارقين (المخطوطة)، ورقة ١٢١ أ.

(٥٠٣ ـ ٥٣٦ هـ) يستنجد بداود الأرتقي، وسرعان ما جمع هذا جيوشه ومتطوعيه من التركمان واتجه لفك الحصار عن آمد. وهناك عند أسوار هذا الحصن حدث اللقاء بين الطرفين في أواخر جمادى الآخرة من ذلك العام، وانتهى القتال بهزيمة داود وأسر ولده ومقتل عدد من جنده، بينما استمر حصار زنكي وحليفه لهدفهما المنيع، وكي يلقيا الفزع واليأس في نفوس أصحابه قاما بتخريب واسع النطاق في البساتين والمزارع المجاورة. إلا أن آمد صمدت وأقنعت المهاجمين بعدم جدوى البقاء طويلاً، ورضي زنكي من صاحبها ـ لقاء فك الحصار ـ تقديم مقدار من المال[١].

اتجه الحليفان إلى قلعة الصور القريبة، وفرضا عليها حصاراً شديداً، وتمكنا بعد قليل من إرغامها على الاستسلام، رغم المقاومة التي أبدتها حاميتها[٢] بقيادة الأمير فخر الدين قرا أرسلان بن داود الذي كان ينوب عن أبيه هناك[٣]. وقام زنكي بمنح هذه القلعة لحليفه تمرتاش[٤]، تقديراً لمساعداته له، وتأكيداً لتحالفهما الذي كان لابد له من وسائل تقويه وتقيمه على أساس من المصالح المتبادلة، كي يبقى هذا الأمير الأرتقي دوماً إلى جانب حليفه لمجابهة الأعداء والمنافسين في المنطقة، وتحقيق انتصارات أخرى، وإعادة الكرة على آمد وممتلكات داود.

ما لبثت شقة الخلاف أن اتسعت بين تمرتاش وابن عمه داود، وشهد عام ٥٣٠ توتراً في الموقف أنذر بالحرب، حتى إن تمرتاش اضطر إلى هدم بعض الأجزاء التي لا تحتمل المقاومة من عاصمته ماردين، وأمر سكانها

(١) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٥٣، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة : قسم الجزيرة (مخطوطة) ورقة ١٣٤ ب.

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٣، الكامل ١١ ـ ٢٥، تاريخ آمد وميافارقين (مخطوطة) ورقة ١٢٠ أ ب.

(٣) ابن منقذ : الاعتبار ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٤) المصدر السابق، نفس الصفحة، تاريخ آمد وميافارقين، ورقة ١٢٠ ب ـ ١٢١ أ.

بالانسحاب إلى القلعة للاحتماء بها في حالة قيام داود بهجومه المتوقع. هذا في الوقت الذي ازداد فيه تحالف تمرتاش مع زنكي قوة عن ذي قبل. وقاما بشن هجماتهما المشتركة على جبل جور والسيوان وتمكنا من الاستيلاء عليهما، والتزم زنكي خطته السابقة بأن منح هذين الموقعين لحليفه. وقد أدت الانتصارات السريعة التي حققها هذان الحليفان إلى إلقاء الرعب في قلب قرا أرسلان بن داود الذي اعتقد بأن لا طاقة له بهما، فآثر الانسحاب إلى قاعدة أبيه داود في حصن كيفا، معرضاً مناطق ولايته للخطر[1].

ظل التحالف بين زنكي وتمرتاش على تماسكه حتى عام ٥٣٣هـ حيث أخذ يلوح في الأفق ما يشير إلى أن عراه بدأت بالضعف، ويظهر أن الشكوك لعبت دورها في تدهور العلاقة بين الطرفين. ولم تحدد المصادر الأسباب، ويبدو أن من جملتها إدراك تمرتاش للأخطار المقبلة التي قد تتعرض لها إمارته في حالة إضعاف أعداء حليفه في ديار بكر، وربما كان عدم الاتفاق بينهما على توزيع الحصون التي افتتحاها سوية، أحد تلك الأسباب. غير أن هذا الجفاء لم يؤد إلى صدام بين الطرفين، إذ رأى زنكي أن مصالحه في المنطقة تفرض عليه الإبقاء على تحالفه القديم، ليعينه على فرض سيطرته التدريجية على ديار بكر، ولكيلا يتجه تمرتاش إلى ابن عمه صاحب آمد، فيعود هو إلى عزلته الأولى.

وقد ساعد مجرى الأحداث في المنطقة زنكي على تحقيق هدفه هذا، إذ حدث ـ في العام نفسه ـ ما أدى إلى تعميق الخلاف بين تمرتاش وابن عمه داود، إذ قام الأخير بغزو أرزن في أقاصي شمالي ديار بكر، وإباحتها وسبي أهاليها، فالتجأ أميرها حسام الدولة قرتي بن الأحدب إلى ميافارقين طالباً الحماية من تمرتاش. وبدا أن الظروف حتمت على الحليفين القديمين التقارب

(١) تاريخ آمد وميافارقين، ورقة ١٢١ ب ـ ١٢٢ أ. وينفرد ابن العديم بالقول بأن زنكي وحليفه استوليا في هذه الجولة على حصن البارعية الذي منح بدوره لتمرتاش (زبدة الحلب ٢/ ٢٥٤).

من جديد، فأرسل زنكي حاجبه صلاح الدين الياغسياني إلى ماردين للتفاوض مع أميرها، وأنجز الحاجب مهمته بنجاح بعد أن قام بتسليم حصن دارا إلى ذلك الأمير. وسرعان ما تأكد هذا التقارب بخطبة زنكي لضيفة خاتون ابنة تمرتاش، مستهدفاً من وراء ذلك توثيق عرا تحالفه مع الأمير الأرتقي[١].

أدت عودة التحالف بين أميري الموصل وماردين وما رافقها من أحداث في المنطقة، إلى توتر الموقف ثانية بين تمرتاش وابن عمه داود، فأغار الأخير عام ٥٣٥هـ على ميافارقين ونهب أطرافها، وفرض الحصار عليها، وتمكن، خلال أيام معدودات، من الاستيلاء على موقع (تل شيح) القريب منها، وإقطاع أراضيه لأمرائه وأتباعه. وقام من هناك بشن هجمات يومية منظمة على مدينة ميافارقين، واختطاف أولئك الذين كانوا يغادرونها صباح كل يوم لأداء أعمالهم الضرورية، وتمكن بذلك من فرض سيطرته التدريجية على المناطق المحيطة بالمدينة، إلا أن الجهود الدفاعية العظيمة التي بذلها كل من شرف الدين حبشي وزير تمرتاش، ويوسف بن ينال حاجبه، خلصت ميافارقين من خطر محقق كاد أن يوقعها فريسة أمام ضغوط وهجمات داود[٢]. وكان زنكي ـ خلال ذلك ـ قد أسرع بمهاجمة ممتلكات أمير حصن كيفا كي يشغله عن التضييق على إمارة حليفه تمرتاش، وكي ينتهز الفرصة للحصول على بعض المغانم. إلا أنه ما أن توغل في تلك البلاد حتى التقى بجيوش قرا أرسلان بن داود، ودارت بين الطرفين معركة عنيفة انتهت بانتصار زنكي وهزيمة غريمه ـ ثانية ـ تاركاً قلعة بهمرد القريبة من ميدان المعركة تحت رحمة عدوه، فاتجه زنكي إليها وتمكن من الاستيلاء عليها دون مقاومة تذكر، ثم قفل عائداً إلى الموصل لدخول الشتاء واشتداد البرد[٣].

---

(١) تاريخ آمد وميافارقين، ورقة ١٢١ ب ـ ١٢٢ أ.

(٢) تاريخ آمد وميافارقين، ورقة ١٢٢ أ ـ ب.

(٣) الكامل ١١ ـ ٣٢ ويجعل ابن الأثير قائد جيش حصن كيفا في هذه المعركة داود نفسه، والأرجح هو ابنه قرا أرسلان وفق ما ذكره ابن العديم (زبدة الحلب ٢ ـ ٢٧٦)، إذ أن داوداً =

أدرك كل من تمرتاش وداود أن هذا الخلاف الذي اشتد بينهما، واتسع إلى درجة الحرب والتخريب لن يفيد أياً منهما بقدر ما يعود بالمكاسب على زنكي الذي قد يستغله بشكل دائم لتحقيق مزيد من الانتصارات في المنطقة، وبالتالي إضعاف قوى الأراتقة جميعاً، كي يصبحوا بعد ذلك هدفاً سهل المنال، لذا قام كل من الأميرين الأرتقيين بتبادل الرسل في مطلع عام ٥٣٦هـ. وأسفرت المفاوضات عن عقد صلح بينهما، وما لبث داود أن اتجه إلى ميافارقين حيث اجتمع بابن عمه بعد سنين طويلة من العداء[١].

لم يغب عن زنكي أن الصلح الذي تم بين الأراتقة سيكون على حسابه، للحد من مطامحه في المنطقة، فسعى إلى اتخاذ إجراءات سياسية تكفل عدم انعزاله من جهة، واكتساب حليف جديد ضد منافسيه في المنطقة من جهة أخرى. وقد تمكن - في أقل من عام - من تحقيق هدفيه هذين، وذلك بأن أرسل إلى صاحب آمد[٢] يتهدده إن استمر على سياسة الولاء لأمير حصن كيفا، ويأمره بإعلان طاعته له والخطبة باسمه، ويعلمه أنه إن لم يستجب لمطالبه هذه فسوف يعرض مدينته للهجوم. فتخوف الأخير من بطش زنكي واستجاب لما أمر به[٣]. كما قام في العام نفسه بعقد صلح مع خصمه اللدود داود بن سقمان[٤]. ويبدو أن نجاح زنكي في تحقيق أهدافه السياسية هذه أرغم تمرتاش على العودة إلى موالاته، فأرسل إلى الموصل وفداً

= كان مشغولاً خلال ذلك بشن الهجمات على ميافارقين. ويخطئ ابن الأثير (في الباهر، ص ٤٧) بجعل هذه الحادثة عام ٥٢٦ هـ، وهذا شأن (الباهر) في عدم ضبط التواريخ.

(١) تاريخ آمد وميافارقين، ورقة ١٢٢ أ - ب.

(٢) في منتصف جمادى الأولى سنة ٥٣٦ هـ توفي الأمير سعد الدولة إيكلدي، صاحب آمد، فقام متولي البلد (مؤيد الدين بن بيسان) بتنصيب ولده شمس الملوك محمود: (تاريخ آمد وميافارقين، ورقة ١٢٢ ب).

(٣) الكامل ١١ - ٣٦ - ٣٧، الباهر ص ٦٤.

(٤) زبدة الحلب ٢ - ٢٧٦.

برئاسة وزيره شرف الدين حبشي[١] لإجراء مفاوضات مع أميرها حول ما يجب أن تستقر عليه العلاقات بين الطرفين. وقد استقبل زنكي وفد ماردين بإكرام بالغ، واستطاع ـ خلال محادثاته السرية مع حبشي ـ أن يحصل على وعد من الأخير بتسليمه مدينة ميافارقين حال عودته إليها[٢]. وقد استهدف زنكي ـ من محاولته هذه ـ إضعاف جانب تمرتاش واتخاذ ميافارقين قاعدة للهجوم على بقية ممتلكات هذا الأمير.

وبفضل تلك الخطوات السياسية التي قطعها زنكي، استطاع أن يحصل على مركز قوي في ديار بكر، وأن يستغل هذا المركز لمد نفوذه هناك، والاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه من الحصون الكثيرة المنتشرة في المنطقة والتابعة لعدد من الأمراء، كي يتسنى له بعد ذلك القيام بخطوته الحاسمة، وهي الانقضاض لإسقاط حكم بني أرتق الذي يقف عائقاً دون تحقيق هدفه الرئيسي في توحيد بلاد الموصل والجزيرة وشمالي الشام.

وشهدت أواخر عام ٥٣٧ ومطالع العام التالي قيام زنكي بحملة واسعة ضد عدد كبير من الحصون الواقعة في أقاصي ديار بكر، والتابعة لأمير يدعى يعقوب بن السبع الأحمر؛ الذي لم تشر المصادر ـ بوضوح ـ إلى تاريخه السياسي، وهويته، وطبيعة علاقاته بأمراء ديار بكر[٣]. وقد تمكن زنكي ـ في حملته هذه ـ من الاستيلاء على مدينة طنزة[٤]، وأسعرد[٥]،

---

(١) قدم شرف الدين حبشي بن محمد إلى ماردين عام ٥٢٨ هـ، للالتحاق بخدمة أميرها تمرتاش، فولاه الأخير الوزارة، وسرعان ما بلغ حبشي منزلة لم يبلغها أحد من قبله، إلا أنه كان ظالماً متعسفاً، وبخاصة تجاه الموظفين وأرباب الأعمال : (تاريخ آمد وميافارقين، ورقة ١٠٩ ب ـ ١١٠ أ).

(٢) تاريخ آمد وميافارقين، ورقة ١٢٢ ب ـ ١٢٣ أ.

(٣) انظر : تاريخ آمد وميافارقين، ورقة ١٢٩ أ، وابن شداد: الأعلاق (قسم الجزيرة)، ورقة ١٠٣ ب ـ ١٠٤ أ.

(٤) تقع قريباً من جزيرة ابن عمر : (ياقوت : معجم البلدان ٦ ـ ٦٢ ـ ٦٣).

(٥) ويقال لها (سعرت) كذلك : (معجم البلدان ٣ ـ ٣٨١).

والمعدن[١]، وحيزان[٢]، وحصن الزوق[٣]، وفطليس[٣]، وباتاسا[٣]، وحصن ذي القرنين[٤]، وأنيرون[٥]. وقام بترتيب أوضاع هذه المواقع والحصون، ووضع في كل منها حامية عسكرية لتدافع عنها ضد هجمات الأعداء[٦].

أسرع زنكي ـ بعد إنجازه هذه الانتصارات ـ بالتوجه إلى ميافارقين لتنفيذ الخطة السرية التي رسمها مع شرف الدين حبشي وزير تمرتاش، وعسكر بقواته الكبيرة، في إحدى ضواحيها القريبة المسماة (تل بسمى) أملاً في أن يقوم حبشي، المقيم في ميافارقين، بفتح الأبواب لدخول قواته والسيطرة على المدينة والقلعة دون إراقة قطرة من دماء. إلا أن الخطة اكتشفت، واتفق رجلان من كبار أعيان البلد ومسؤوليه، على اغتيال حبشي وإنهاء الخطر المحدق بميافارقين[٧]، فتسللا إلى خيمته ليلاً، وضرباه بالسيوف، ثم

---

(١) تقع قريباً من منابع نهر دجلة، سميت بهذا الاسم بسبب كثرة معدني الحديد والنحاس في أراضيها : (محمد مصطفى زيادة : السلوك للمقريزي ١ ـ ٦٩٠، حاشية ٤).

(٢) بلد كثير الأشجار والبساتين، يقع قريباً من أسعرد (معجم البلدان ٢ ـ ٣٨٠).

(٣) وردت أسماء هذه الحصون الثلاثة في الكامل، بالرسم التالي المخالف لما ورد في الباهر : الدوق، مطليس، بانسية. كذلك وردت محرفة في (مفرج الكروب ١ ـ ٩٢)، وربما حرفتها أخطاء الناسخين. ولم يرد ذكر لهذه المواقع في معجم البلدان، أو غيره من المصادر الجغرافية.

(٤) لم تعرفه المصادر الجغرافية.

(٥) لم تعرفه المصادر الجغرافية. ويشير الفارقي (تاريخ آمد وميافارقين، ورقة ١٢٨ ب ـ ١٢٩ م) إلى أن زنكي استولى، في جولته هذه، على (أبرذون) كذلك، ولعل هذا الاسم تحريف لأنيرون، لما بينهما من تشابه في الرسم.

(٦) تاريخ آمد وميافارقين، ورقة ١٢٣ ب ـ ١٢٤ م، الكامل ١١ ـ ٣٩، الباهر ص ٦٦، ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٧، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٧٧.

(٧) كان ينوب عن تمرتاش في ميافارقين ـ خلال هذه الفترة ـ يوسف بن يتال، ولم تشر المصادر إلى الدور الذي لعبه في محاولة حبشي، سوى أنه استمر في منصبه إلى الثالث من رجب سنة ٥٣٩ هـ حيث توفي (الأعلاق الخطيرة، ورقة ١٠٤ ـ ١٠٥م)، وأغلب الظن أن يوسف هو الذي أشرف على عملية اغتيال حبشي، ولذا استمر في منصبه ـ كوال على ميافارقين ـ طيلة الفترة التي أعقبت محاولة زنكي الاستيلاء عليها.

حملا رأسه إلى تمرتاش في ماردين، وسرعان ما انتشر نبأ الحادثة، فاضطرب جيش زنكي وعمته الفوضى، واضطر قائده إلى الانسحاب، إذ أن مقتل حبشي المفاجئ جعل من الصعوبة بمكان الاستيلاء على ميافارقين، فقفل عائداً إلى نصيبين[١].

في مطلع العام التالي (٥٣٩هـ) توفي داود بن سقمان، وتولى إمارة حصن كيفا بعده ولده فخر الدين قرا أرسلان[٢]. ولم يكن يتمتع كأبيه بمقدرة سياسية أو عسكرية، فاستغل زنكي ضعفه وبدا بمهاجمته لممتلكاته، حيث استطاع في فترة قصيرة الاستيلاء على حاني[٣]، وأرقتين، وحيرموك، وبالمرقتين[٤]. وفرض سيطرته ـ بذلك ـ على مناطق واسعة من إمارة حصن كيفا الأرتقية[٥]. وقد أدت العمليات العسكرية التي قام بها زنكي في السنين الأخيرة، سواء في محاولة ميافارقين أم في مهاجمة أملاك قرا أرسلان، إلى تعميق الخلاف بينه وبين تمرتاش، سيما بعد أن قام بمهاجمة قلعتي جور والسيوان والاستيلاء عليهما ثانية، بعد أن كان قد وهبهما لحليفه هذا عام ٥٣٠هـ[٦].

لم يأبه زنكي لضياع حلفه القديم مع أمير ماردين، بعد إذ أصبح مركزه في ديار بكر على درجة كبيرة من القوة والثبات، وقرر أن يمضي في فرض سيطرته على مدن المنطقة وقلاعها واحدة بعد أخرى، فاتجه إلى آمد في

(١) تاريخ آمد وميافارقين، ورقة ١٢٢ ب ـ ١٢٣ ب، الأعلاق الخطيرة، ورقة ١٠٤ أ ـ ١٠٥ أ.

(٢) المصدران السابقان، نفس الأوراق. وكان قرا أرسلان وأخوه أرسلان تغمش قد تقاسما أملاك أبيهما، فملك قرا أرسلان حصن كيفا والبلاد المجاورة، واستقر أرسلان تغمش في قلعة ملا زكرد (تاريخ آمد وميافارقين، ورقة ١٢٣ ب، ١٣٠ ب).

(٣) الكامل ١١ ـ ٣٩، الباهر ص ٦٦، ويخالف ابن واصل (مفرج الكروب ١ ـ ٩٢) ما أكده ابن الأثير، بقوله: إن زنكي حاصر حاني، فلم ينل منها غرضاً، فرحل عنها.

(٤) لم تعرف المصادر الجغرافية أياً من هذه المواقع.

(٥) تاريخ آمد وميافارقين، ورقة ١٢٣ ب ـ ١٢٤ م، ١٢٨ ب ـ ١٢٩ م، الأعلاق الخطيرة، ورقة ١٠٤ ب ـ ١٠٥ م.

(٦) المصادر السابقة، نفس الأوراق.

محاولة للاستيلاء عليها كي يقف بعدئذ وجهاً لوجه أمام تمرتاش الذي سيغدو وحيداً آنذاك. إلا أن انهماكه بمهاجمة الرها بعد فترة قصيرة من توجهه إلى آمد، أنقذ هذا الموقع من خطر محقق، وأبعد عن إمارة ماردين الأرتقية احتمالات هجوم شامل عليها من قبل قوات الموصل. وقد ظل زنكي منشغلاً في قتاله ضد صليبيي المنطقة، صارفاً كل اهتمامه تجاههم حتى عام ٥٤١هـ حينما أتيحت له الفرصة للتوجه إلى قلعة جعبر التابعة للعقيليين في محاولة للاستيلاء عليها، وكان يصحبه في حملته تلك جمال الدين بن تمرتاش. إلا أنه سرعان ما قبض عليه واعتقله[1]، تمهيداً، - في أغلب الظن - لمهاجمة تمرتاش نفسه، بعد تصفية حسابه مع أصحاب جعبر، إلا أن مقتله خلال الحصار أنقذ الأراتقة - بشكل نهائي - من خطره القريب.

ولا بد - قبل الانتهاء من سرد وتحليل علاقات زنكي بأمراء ديار بكر - من الإشارة إلى طبيعة موقفه إزاء إمارة أرمينية المتاخمة لذلك الإقليم[2]، إذ أرسل في عام ٥٢٨ - كما يحدثنا ابن منقذ - يطلب خطبة ابنة سكمان القطبي الذي كانت زوجته قد تولت الوصاية على شؤون الإمارة منذ وفاته عام ٥٠٥هـ. وصادف في الوقت نفسه أن تقدم حسام الدولة بن دلماج أمير بدليس المجاورة، يخطب هذه الفتاة لابنه، الأمر الذي أغضب زنكي أشد الغضب. واعتبر الموضوع بمثابة تحد لرغبته، فتقدم على رأس قواته إلى خلاط، سالكاً

---

(١) تاريخ آمد وميافارقين، ورقة ١٢٧ م.

(٢) وكانت تسمى - أيضاً - إمارة السكمان القطبي نسبة إلى مؤسسها سكمان الذي كان مولى لأحد أمراء السلاجقة، وقد اشتهر بمقدرته العسكرية وشهامته، لذا دعاه أهالي خلاط والمناطق المجاورة لتخليصهم من ظلم الأكراد المروانيين حكام ديار بكر. فاتجه إلى ميافارقين - أولاً - واستولى عليها، ثم ما لبث أن تمكن من إخضاع معظم بلاد أرمينية، واتخذ من خلاط قاعدة لإمارته. وعندما توفي عام ٥٠٥ هـ انتقل الحكم من بعده إلى أبنائه الذين توارثوا الإمارة حتى عام ٦٠٤ هـ، حيث استولى الأيوبيون على أملاكهم. (انظر : ابن خلدون : تاريخ، ط بيروت، مجلد ٥، ص ٣٧٣ - ٣٨١).

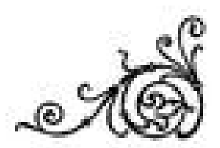
بجنده الطرق الجبلية الوعرة، غير المسلوكة، من أجل أن يبلغ هدفه بأسرع وقت ممكن. (فكان الجيش بغير خيام، وكل جندي في موضعه من الطريق). وعندما وصلوا خلاط ضربوا خيامهم قريباً منها، واتجه زنكي مع كبار أفراد حاشيته إلى القلعة لكتابة المهر. وما أن أتم ذلك حتى قام بإرسال حاجبه الياغسياني إلى بدليس، على رأس قسم من قواته، لتأديب صاحبها، إلا أن هذا استطاع إقناع قائد زنكي بالعودة إلى سيده مقابل مبلغ من المال[1].

وهكذا اعتمد زنكي رابطة الزواج لتعزيز علاقته بإمارة أرمينية، وكسب ـ بذلك ـ صديقاً جديداً، ربما حصل على مساعدته خلال عملياته العسكرية في المناطق القريبة من أرمينية، أو ضمن حياده على الأقل، سيما وأن هذه الإمارة كانت تجاور أعداءه في ديار بكر ومناطق الجبال الكردية، مما كان يحتم إبعادها عن الدخول في الصراع إلى جانب هؤلاء الأعداء. ولم يحاول زنكي ـ من جهة أخرى ـ أن يتوسع على حساب هذه الإمارة، ربما لبعدها عن حدود ممتلكاته، وعدم تشكيلها خطراً مباشراً عليه، حيث يفصل بين الطرفين عدد من الإمارات والمواقع المستقلة في أقاليم الجبال وديار بكر، امتصت معظم جهوده خلال صراعه الطويل مع أمرائها. هذا إلى أن المنشور، الذي منحه السلطان السلجوقي لزنكي، نص على توليته الموصل والجزيرة والشام، دون أية إشارة إلى أرمينية. وبالرغم من أن منشوراً كهذا ليس له تأثير كبير من الناحية العملية، إلا أن بالإمكان اعتباره أحد العوامل التي أبعدت أمير الموصل عن مهاجمة أمراء أرمينية، ومحاولة اقتطاع بعض ممتلكاتهم، تفادياً لغضب السلطان.

وفضلاً عن هذا وذاك، كان هدف زنكي الرئيسي العمل على توحيد المواقع الإسلامية التي تخدمه في صراعه ضد الصليبيين، ولم تكن أرمينية ذات غناء كبير في هذا المجال. وأخيراً لا بد أن نلاحظ بعد نظر زنكي في

(١) الاعتبار ص ٨٨ ـ ٨٩.

سياسته التي استهدفت عدم إضعاف الإمارة المذكورة التي كانت بمثابة حزام واق ضد هجمات الخزر والقفجاق القاسية على الجهات الشمالية من آسيا الصغرى وأرمينية، أولئك الذين كانوا يشكلون خطراً على المناطق المجاورة. يؤكد هذا بوضوح ما حدث هناك عام ٥١٤هـ، لدى خروج حشد كبير من مقاتلي هذه الأقوام، واتجاهه جنوباً حيث تصدى لهم عدد من أمراء المسلمين، يقودون ثلاثين ألف جندي، فلم تغن كثرتهم عنهم شيئاً، وتمزقوا وقتلوا بين أيدي الأعداء، ووقع أربعة آلاف منهم أسرى[١]، فكانت تلك المجزرة كارثة كبرى لقنت مسلمي المنطقة درساً قاسياً، وعلمت زنكي ـ فيما بعد ـ كيف تكون الحيطة إزاء أعداء يحيطون بالمسلمين من كل مكان.

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥، الكامل ١٠ ـ ٢١٥، الذهبي : دول الإسلام ٢ ـ ٢٩.

الفصل الخامس
عماد الدين زنكي والأكراد

كانت المناطق الجبلية المحيطة بالموصل من جهاتها الشمالية والشمالية الشرقية، ذات أهمية بالغة بالنسبة لإمارة زنكي وضمان أمنها وازدهارها، وذلك لقربها من الموصل، وإمكاناتها الاقتصادية، فضلاً عن الأخطار التي يمكن أن تنشأ عن عدم سيطرة زنكي على القبائل الكردية المنتشرة في تلك المناطق، الأمر الذي حتم عليه مد نفوذه إليها كي يضمن لإمارته خطوطاً دفاعية طبيعية تحمي ظهره في حالة انهماكه بحروبه ومشاكله بعيداً في الشام أو الجزيرة أو العراق.

كان الأكراد ـ في الفترة التي نتكلم عنها ـ ينقسمون إلى قبائل وطوائف عديدة أهمها: الجوزقان والزوم واللر والجلالية والجوبية والداسنية[١] والكورانية والهذبانية والبشنوية والشاهنجانية والرلجية واليزولية والمهرانية والزرزارية والكيكانية والجاك والدنبلية والرواوية والهكارية والحميدية والوركجية والمروانية والشنبكية[٢]. ولم يهاجم زنكي من هذه الطوائف

(١) ياقوت: معجم البلدان ١ ـ ٤٧٧، ٢ ـ ١٥١، ٢٧٧، ٥٣٨، ٩٥٩ ـ ٩٦٠، ٤ ـ ٣٥٥.

(٢) المقريزي: السلوك ١ ـ ١ ـ ٤. ويعدّد القلقشندي (صبح الأعشى ٤ ـ ٣٧٣ ـ ٣٧٩) عشرين طائفة من الأكراد، يتفق في معظمها مع المصدرين السابقين، موضحاً مناطق كل من هذه الطوائف وعدد محاربيها، مشيراً إلى من كان لها أمير يدير شؤونها. كما يعدد طوائف أخرى من الأكراد الذين تفرقوا بعد اجتماع. ويذكر خمساً وعشرين موضعاً آخر يقطنها الأكراد الذين كانوا يتخذون من القلاع مراكز لهم. وعن الطوائف الكردية في الفترة التي سبق عصر زنكي انظر: المسعودي، مروج الذهب ٣ـ ٣٥٣، ٣٥٤ ومسكويه: تجارب الأمم ٦ ـ ١٧٩.

جميعاً سوى تلك المجاورة لإمارته كالحميدية (منطقة عقرة)، والهكارية (منطقة العمادية والخابور)، والمهرانية والبشنوية (منطقة جزيرة ابن عمر).

وكان هؤلاء الأكراد قد انقسموا ـ بصورة عامة ـ إلى قسمين شمل أولهما أفراداً وقبائل لم تكن خاضعة لسلطة منظمة أو خارجية، وكانت تقوم بأعمال السلب والنهب، وتحتمي بقلاعها الجبلية إذا ما دهمها الخطر[١]. أما القسم الآخر فقد استطاع أن يشكل عدداً من الإمارات تختلف في نظمها وأحجامها، فهناك إمارات واسعة تناوب الأمراء حكمها بالوراثة، وهناك إمارات مدن صغيرة منفردة كان حكمها ينتقل ـ بين حين وآخر ـ للأمير الأقوى[٢].

وقد أثر قيام الدولة السلجوقية على تاريخ الأكراد السياسي إلى حد كبير. ففي عام ٤٦٣هـ انتهز السلطان السلجوقي (ألب أرسلان) انتصاره على جيش أرمانوس الرابع إمبراطور الروم، في موقعه ملازكرد في أرمينية. وكان لهذه الموقعة الحاسمة أهمية بالغة بالنسبة للأكراد، لأنها مهدت الطريق أمام السلاجقة لفرض سيطرتهم التامة على منطقة أرمينية، وأتاحت لهم في السنين التي تلت ذلك، اجتياح المناطق الكردية في الجبال، والقضاء على جميع الإمارات المنتشرة هناك، والتي سرعان ما غدت تحت سيطرة ورعاية الحكم السلجوقي[٣].

---

(١) الكامل ١٠ ـ ٢٣٠.

(٢) انظر: شرف خان البدليسي: شرفنامة، ومحمد أمين زكي: (خلاصة تاريخ الكرد وكردستان) و(تاريخ الدول والإمارات الكردية في العهد الإسلامي). وقد قسم المؤلف المذكور تنظيمات الأكراد السياسية طيلة العهد الإسلامي إلى قسمين: يشمل أولهما الحكومات أو الدول الكردية التي بلغت أربع عشرة دولة، ويشمل ثانيهما الإمارات الكردية في مناطق الجبال والجزيرة وديار بكر وبعض أنحاء بلاد الشام ولبنان، وتبلغ خمساً وثلاثون إمارة. ولا تجد في كلا القسمين ثمة إشارة إلى أن أياً من الطوائف التي هاجمها زنكي كان قد شكل دولة أو إمارة ذات شأن، طيلة الفترة التي حكم فيها (٥٢١ ـ ٥٤١ هـ).

(٣) Encyclopeadia of Islam S.KURD (by: V.Minorsky).

وفي عام ٤٧٨هـ أرسل السلطان السلجوقي ملكشاه، قائده فخر الدين ابن جهير للاستيلاء على ديار بكر، وقد تمكن هذا من اجتياح آمد وميافارقين وجزيرة ابن عمر، وعدد من المواقع الأخرى هناك، وبذلك قضى على دولة بني مروان الكردية في هذه المنطقة[١]. وفي السنين التي أعقبت ذلك قام سكمان القطبي، مؤسس إمارة أرمينية، بالاستيلاء على مدينة خلاط، والقضاء على آخر أمير كردي من سلالة الدولة المروانية[٢].

وهكذا يبدو أن الفترة التي سبقت حكم زنكي أو عاصرته، كانت تخلو بالمرة من أية دولة كردية ذات شأن في مناطق الجبال المحيطة بالموصل، الأمر الذي يعني أن الطوائف الكردية التي هاجمها لم تكن قد استطاعت أن تشكل حكومات أو دولاً مستقلة، على غرار ما حققته بعض الطوائف الأخرى في الفترات السابقة أو اللاحقة لحكم زنكي، مما يفسر إغفال مؤرخي المناطق الكردية توضيح نوعية التشكيلات السياسية لهذه الطوائف، والاكتفاء بمجرد الإشارة، أو القول بأنها كانت تحكم مدينة أو أكثر، مشكلة إمارات مدن صغيرة لم تستقر وتتسع بشكل يجعلها تقف في صف الدول والإمارات الكردية الواسعة، ذات النظام الوراثي والتاريخ الطويل.

الأكراد الحميدية:

بدأ زنكي هجومه على الأكراد بطائفة الحميدية، بسبب قرب حصونها من الموصل. وكانت (العقر) مركز هذه الطائفة، وهي قلعة حصينة تربض في جبال الموصل الشرقية، نسبت إلى الجماعة التي تقطنها فسميت (عقر الحميدية)[٣]. وكان يتبعها حصن آخر يدعى (الشوش)، وهو قلعة عظيمة، شديدة الارتفاع تقع بالقرب من المركز السابق[٤]. وكان يحيط بكل من

---

(١) الكامل ١٠ ـ ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) انظر: الفارقي: تاريخ آمد وميافارقين (القسم المنشور)، للاطلاع على تاريخ الدولة المروانية.

(٣) ياقوت: معجم البلدان ٣ ـ ٦٩٦، أبو الفداء: تقويم البلدان ص ٢٧٤.

(٤) معجم البلدان ٣ ـ ٣٣٤، تقويم البلدان ص ٢٧٤.

هذين الحصنين أراض وأعمال زراعية غزيرة الإنتاج، تجنى منها سنوياً محاصيل شتى كالرز والقصب والأخشاب، وتنتشر في أنحائها قرى وضياع تشرف على زراعتها، كالغيضة القريبة من العقر، وجوجر التي ينسب إليها الرز الجيد، وخلبتا القريبة من الشوش، والمعروفة باعتدال مناخها، وخصوبة تربتها، وكثرة بساتينها[١].

لا تقدم المصادر شيئاً يذكر عن التاريخ السياسي للحميدية، وكل ما لدينا هو ما ذكره أبو شجاع[٢] وابن الأثير[٣] من أن (باذ بن دوستك الحاربختي) ـ مؤسس الإمارة المروانية في ديار بكر ٣٧٣ ـ ٣٧٤هـ ـ كان ينتمي إلى تلك الطائفة. وهو خبر لا يلقي ضوءاً على الموضوع، كما أنه يتطرق إلى فترة بعيدة عن العصر الذي نتكلم عنه[٤]. أما في عهد زنكي فكان يحكم هذه الطائفة الأمير عيسى الحميدي، وكانت إمارته تتمتع بنوع من الاستقلال المحلي، وكان الحميديون يقومون، في كثير من الأحيان، بمهاجمة مزارع الموصل الشرقية ونهب فلاحيها[٥]. وقد بلغت هذه الطائفة من الأهمية بحيث غدت مقياساً تقاس به إمكانيات الجماعات الكردية الأخرى فيقال عن التحتية ـ مثلاً ـ أنهم كانوا يضاهون الحميدية[٦].

كان زنكي، لدى توليه الموصل، قد أقر الأمير عيسى الحميدي على ولايته، (ولم يتعرضه بشيء مما في يده)[٧]. إلا أن الأمير المذكور سرعان

(١) معجم البلدان ٢ ـ ١٤٢ ـ ١٤٣، ٤٥٩، ٣ ـ ٨٢٨، تقويم البلدان ص ٢٧٤.

(٢) ذيل تجارب الأمم ص ٨٤.

(٣) الكامل ٩ ـ ١٣.

(٤) يقدم القلقشندي: (صبح الأعشى ٤ ـ ٣٧٤ ـ ٣٧٥) معلومات متأخرة عن هذه الطائفة، خلال الحكم المغولي للعراق، وهي لاتخدمنا في هذا البحث.

(٥) الكامل ١١ ـ ٥، الباهر ص ٤٨، مفرج الكروب ١ ـ ٥٥.

(٦) صبح الأعشى ٤ ـ ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

(٧) الباهر ص ٨٠.

ما خرج على طاعة زنكي لدى حصار الخليفة المسترشد الموصل عام ٥٢٧هـ، حيث انضم إليه بجيوشه، وأمده بالقوات، وحشد له عدداً كبيراً من الأكراد. وما أن فشل الحصار وانسحب المسترشد عائداً إلى بغداد، حتى بدأ زنكي هجومه على قلاع الحميدية. فحاصرها وقاتلها قتالاً شديداً، حتى إنه حمل بنفسه على حامية العقر (وصعد في جبلها المرتفع إلى سورها، فوصلت طعنته إليه)[1]، ثم ما لبث أن استولى عليها (٥٢٧هـ)، منهياً بذلك أسباب القلق والخوف الذي كانت تسببه هجمات الحميديين على فلاحي الموصل[2]، الأمر الذي أدى ـ ولا ريب ـ إلى عودة ازدهار الحياة الزراعية والتجارية في المنطقة.

وقد استطاع زنكي ـ باستيلائه على العقر والحصون الحميدية المجاورة[3] ـ أن يقضي على إحدى الإمارات التي كانت تهدد أمن الموصل العسكري، بما لها من موقع حيوي، وأن يحصل على موطئ قدم مهد الطريق أمامه للتوغل في بلاد الأكراد الجبلية. ولقد أدرك أبو الهيجاء الهكاري، صاحب قلعة أشب، مدى خطورة هذا النصر الذي حققه زنكي، فأرسل إليه مبلغاً من المال، وتوسل إليه ألا يتعرض لبلاده بسوء، ثم ما لبث أن قدم بنفسه إلى الموصل لإعلان الطاعة[4].

الهكارية:

كان الهكاريون يقطنون المنطقة المعروفة بهكاريا إلى الشمال من نهر الخابور الذي يصب في أعالي دجلة[5]. وكانت قلعة أشب مركزهم الرئيسي.

(١) المصدر السابق ص ٨٠، مفرج الكروب ١ ـ ٥٥.
(٢) الكامل ١١ ـ ٥، الباهر ص ٤٨.
(٣) المصدران السابقان، نفس الصفحات.
(٤) الكامل ١١ ـ ٥، مفرج الكروب ١ ـ ٥٥ ـ ٥٦.
(٥) أنور المائي: الأكراد في بهدينان ص ٩١.

فهي أكبر حصون هؤلاء الأكراد، وأكثرها مناعة، وبها أموالهم وأهلوهم[١]، وتقع في منطقة العمادية الحالية[٢]، حيث كانت تنتشر عدة قرى زراعية وأعمال ترتبط جميعاً بأشب، وأشهرها (هرور) التي تميزت بمناعتها، ووفرة مياهها، وكثرة إنتاجها، وانتشار معدن الحديد في أطرافها[٣].

و(كوم) التي لا تقل إنتاجاً عن شقيقتها[٤]. و(جبل لهيجة) و(جبل صور) الواقع إلى الجنوب الشرقي من هرور. أما المواقع الهكارية الأقل أهمية فأشهرها الملاسي. مابرما. بابوخا. باكزاد. وسباسي[٥].

وحظ الهكارية ـ من حيث تاريخهم السياسي ـ كحظ الحميدية. فليس ثمة سوى إشارات متفرقة عنهم. منها أن جماعة من هؤلاء الأكراد وحلفائهم أغاروا على الموصل عام ٣٧٤هـ وحاصروها، ونهبوا أطرافها، فلما سمع باذ بن دوستك (مؤسس الدولة المروانية في ديار بكر) بهذا الهجوم، غادر حصن كيفا على رأس جيشه، وباغت الهكارية وحلفاءهم

(١) ياقوت: معجم البلدان ١ ـ ٦٣، الكامل ١١ ـ ٣٧.
(٢) الأكراد في بهدينان ص ٩.
(٣) معجم البلدان ٤ ـ ٩٧٠.
(٤) المصدر السابق ٢ ـ ٦٩٠.
(٥) لم تحدد المصادر الجغرافية مواقع هذه القرى والضياع، وقد وردت في الكامل ١١ ـ ٦، ومفرج الكروب ١ ـ ٥٥ ـ ٥٦، ويضيف ابن الأثير (الكامل ١١ ـ ٦) قلعة الجلاب إلى حصون الهكارية، وأنها هي التي بنى زنكي على أنقاضها مدينة العمادية المنسوبة إليه، وينقل هذا الرأي عن ابن الأثير، ابن واصل (مفرج الكروب ١ ـ ٥٧)، وكلاهما مخطئ ولا ريب، إذ أن الجلاب الواقعة على نهر جلاب المار بمدينة حران (معجم البلدان ٢ ـ ٩٦) بعيدة بعداً شاسعاً عن منطقة حصون الهكارية، ومن غير المعقول أن تكون تابعة لهم، سيما وأن المناطق الفاصلة بينها وبينهم، تقطنها طوائف أخرى من الأكراد، كالبشنوية والمهرانية (انظر ما يلي من الفصل). وهناك موقع آخر يضيفه ابن الأثير إلى حصون الهكارية هو نوش (أو موش) (الكامل ١١ ـ ٦) والتي تقع في سهل يمتد بين خلاط وميافارقين يسمى صحراء نوش (أبو الفداء: تقويم البلدان ص ٣٩٣)، ومن المحتمل أن يكون الهكارية قد توسعوا في الجهات الشمالية الغربية من منطقتهم. وانظر الخارطة رقم ١.

ليلاً، على أبواب الموصل، وأعمل فيهم قتلاً وأسراً، وصادر ما غنموه من أموال، الأمر الذي أنقذ أهالي الموصل من خطر محقق، وزاد من حبهم لهذا الزعيم الكردي[١].

وفي عام ٤٣٢هـ تعرضت بلاد الهكارية لهجوم قبائل الغز التركية التي انطلقت غرباً من مواقعها في منطقة أرمينية، وجرى بين الطرفين قتال شديد انتهى بهزيمة الأكراد، واستيلاء الغز على غنائمهم ونسائهم وأموالهم. ثم استأنفوا مطاردتهم للهكارية الذين اعتصموا بالجبال والمضايق، وتمكنوا، بعد قليل، من إعادة الكرة والقيام بهجوم مضاد على قوات الغز، انتهى بهزيمة هؤلاء وقتل وأسر عدد كبير من أمرائهم ومقاتليهم، والاستيلاء على أسلحتهم وغنائمهم، واضطر من بقي منهم إلى التراجع عبر الجبال[٢].

تقفز المصادر ـ بعد ذلك ـ إلى العقد الثاني من القرن السادس، حيث تشير إلى الدور الذي لعبه (جيوش بك) والي الموصل السلجوقي (٥٠٧ ـ ٥١٤هـ) ضد فوضى الأكراد ـ والهكارية بضمنهم ـ في مناطق الموصل والجزيرة، إذ كانوا قد انتشروا وكثر فسادهم وازدادت قلاعهم (وغدا الناس معهم في ضيق)، وافتقد الأمن عبر طرق المواصلات. فتولى جيوش بك أمر مطاردتهم بنفسه، وحاصر قلاعهم وتمكن من الاستيلاء على عدد كبير منها في مناطق الهكارية والزوزان والبشنوية، وألقى ـ بذلك ـ الرهبة في قلوب الأكراد، فهربوا بين يديه في المضايق والشعاب، ومن ثم عاد الأمن والاستقرار إلى تلك المناطق. واتجه الناس ـ من جديد ـ إلى ممارسة نشاطهم الزراعي والتجاري. بعد أن أصبح الأكراد لا يجرؤون على حمل السلاح خوفاً من بطش هذا الوالي[٣].

(١) الفارقي: تاريخ آمد وميافارقين (القسم المنشور) ص ٥٥ ـ ٥٦.
(٢) الكامل ١١ ـ ١٤٤ ـ ١٤٥.
(٣) المصدر السابق ١٠ ـ ٢٣٠.

أما في عهد زنكي فيبرز لأول مرة اسم (أبي الهيجاء عبد الله بن أبي الخليل بن مرزبان الهكاري)[١] الذي سبق وأن ذكرنا كيف أفزعه المصير الذي آل إليه ملك الحميدية عام ٥٢٨هـ، فغادر مقره في أشب إلى الموصل لإعلان الطاعة لزنكي، وأناب عنه في حكم الإمارة (باو الأرجي) أحد أمراء الهكارية. بعد أن منح ابنه أحمد قلعة نوش. فلما مات أبو الهيجاء عام ٥٣٧هـ في الموصل[٢]، تقدم أحمد إلى أشب لينتزعها من الأمير باو. إلا أن هذا قاومه مدعياً أنه يدافع عن حق علي ـ الابن الآخر لأبي الهيجاء ـ في وراثة إمارة أبيه، وكان هدفه من وراء ذلك استغلال مقدرات الإمارة الهكارية باسم الطفل الأصغر. إلا أن زنكي لم يدعه يحقق هدفه هذا، وأسرع بمهاجمة أشب، على رأس قواته، وتمكن من استدراج جندها خارج الحصن، وما أن ابتعدوا عن الأسوار حتى انقض عليهم، على حين غرة، وأعمل فيهم القتل والأسر، فانهزموا بين يديه، وحينذاك اتجه إلى القلعة مباشرة وتمكن من الاستيلاء عليها دون مقاومة تذكر، ثم قفل عائداً إلى الموصل، بعد أن تخلص من باو وأنصاره. وأرسل من هناك نائبه نصير الدين جقر ليتم ما بدأه سيده. فقدم جقر إلى منطقة الهكارية، وقام بتخريب قلعة أشب بناء على أوامر زنكي، كيلا تكون مركزاً دفاعياً، قد يستغله الأكراد في المستقبل ضد مصالحه في المنطقة. ثم شرع جقر بالاستيلاء على بقية مواقع وحصون الهكارية. فاجتاح جبل لهيجة ونوش[٣]، وأتم بذلك إسقاط أهم حصون الهكارية، ولم يبق أمامه سوى صاحبي جبل صور وهرور، اللذين لم يكن لهما (شوكة يخاف منها)[٤].

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١ ـ ١٦٢.

(٢) يذكر ابن الأثير (الكامل ١١ ـ ٥) أن أبا الهيجاء بقي في الموصل منذ ذهابه إليها لإعلان الطاعة، وحتى وفاته. ولم يبين لنا هل أن بقاء هذا الأمير الكردي طيلة هذه المدة، بعيداً عن إمارته تم باختياره، أم أن زنكي احتجزه تمهيداً للهجوم على إمارته؟

(٣) الكامل ١١ـ٥ـ٦، ٣٧، الباهر ص ٦٤.

(٤) الكامل ١١ ـ ٥ ـ ٦، ٣٧، الباهر ص ٦٤.

استطاع زنكي ونائبه أن ينهيا ـ بهذه الانتصارات ـ أعمال الفوضى والفساد في المنطقة[١]، فحل الأمن في ربوعها، وعاد نفعه قبل كل أحد على الأكراد أنفسهم، الذين تخلصوا من المنازعات الداخلية، على ما يظهر، واتجهوا إلى الإنتاج. ثم ما لبث زنكي أن أصدر أوامره ببناء قلعة العمادية ـ نسبة إلى اسمه[٢]ـ على أطلال حصن قديم كان الأكراد قد خربوه لعجزهم عن الدفاع عنه[٣]. ولم تحدد المصادر الغرض الذي استهدفه زنكي من إقامة هذه القلعة، وأغلب الظن أنه اعتزم اتخاذها قاعدة عسكرية للدفاع والتموين في حالات التمرد التي قد يقوم بها الأكراد ضد ممتلكاته هناك، ونقطة انطلاق لتوسيع نفوذه في المنطقة.

المهرانية:

بدأ زنكي هجومه في نفس العام (٥٣٧ هـ) على طائفة المهرانية[٤] التي تقطن عدداً من القلاع المنتشرة في المنطقة الجبلية المتاخمة لجزيرة ابن

(١) الكامل ١١ ـ ٦.

(٢) الباهر ص ٦٤، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨ ـ ١٩٠.

(٣) الكامل ١١ ـ ٣٧، الباهر ص ٦٤، الروضتين ١ ـ ٩١ ـ ٩٢. ويذهب المستوفي القزويني إلى القول بأن اسم العمادية جاء نسبة إلى عماد الدولة البويهي الذي اجتاز المنطقة عام ٣٣٨ هـ، وهي رواية ضعيفة لا يمكن الأخذ بها لانفراد المستوفي بذكرها، ولعدم تطرق المصادر المعاصرة للأحداث إليها. انظر: نزهة القلوب ص ١٠٥، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص ١٢٢، E.I.2: A mudya (by: V.Minorsky) ويؤكد مينورسكي في مقاله المذكور على أن نسبة العمادية إلى عماد الدولة احتمال ضعيف.

(٤) من المرجح أن يكون أمات Amat أو (أمادي ـ أماتي) هو الحصن الذي بنيت العمادية على أطلاله استناداً إلى الدلائل الآتية المتوفرة، حيث يوجد للعمادية في الوقت الحاضر بابان قديمان أحدهما شرقي، ويسمى (ده ركهي زيباري)، والآخر غربي، ويسمى (ده ركهي سه قافا)، وتوجد على الباب الأخير صورة حارسين مسلحين بينهما حيوان لا يوجد له شبيه حي، وغيرها من نقوش غير إسلامية. كما توجد بالقرب من هذا الباب، صورة رجل منحوتة في الصخرة التي بنيت القلعة عليها، مما يشير إلى أن أطلال البناية تعود إلى ما قبل =

عمر، وأهمها كواشي الرابضة على جبال الجودي شرقي نهر دجلة، والزعفراني والشعباني والربية وفرح وسروة[١]. وتخلو المصادر من تقديم إيضاحات كافية عن تاريخ المهرانية السياسي، وظروف تأسيس إمارتهم الصغيرة. وتقتصر على تقديم بعض الإشارات عن الفترة التي عاصرت زنكي، حيث يستنتج أن هذه الجماعة لم تكن تجمعها إمارة واحدة، وإنما توزع حصونها عدد من الأمراء، تمتع كل منهم باستقلاله عن الآخرين. فالربية وفرح والقي[٢] كانت تحت حكم الأمير عبد الله بن عيسى بن إبراهيم المهراني الذي لم تشر المصادر إلى سنة توليه الإمارة وسنة وفاته حيث انتقل الحكم إلى ولده علي[٣]. وكانت الشعباني لأمير آخر اسمه الحسن بن عمر.

= الإسلام: (أنور المائي: الأكراد ص ٥). وقد ورد ذكر أمات في الكتابات الآشورية، وبقيت معروفة حتى العصر البابلي الحديث: (بشير فرنسيس وكوركيس عواد: بلدان الخلافة الشرقية للسترنج، حاشية ٢٢ ص ١٢٢ ـ مجلة سومر، المجلد الثامن، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠). وقد أخطأ بعض المحدثين في محاولة إيجاد علاقة لغوية بين كلمتي أمات والعمادية والقول بأن الأخيرة ليست سوى تعريب لكلمة أمات: (محمد علي عوني: خلاصة تاريخ الكرد وكردستان لمحمد أمين زكي، حاشيتا ١ ص ١٥٤)، حتى إن أحدهم ذهب إلى التأكيد بأن زنكي لم يقم ببناء العمادية أساساً، وأن اسم القلعة الحالي ليست سوى تعريب لكلمة أمات القديمة (أنور المائي: الأكراد ص ٥ ـ ٧). ولم يشر أي من المصادر الإسلامية إلى أمات.

(١) يذكر ابن واصل (مفرج الكروب ١ ـ ٥٦) أن الشعباني وكواشي وعدداً من الحصون المجاورة كانت للهذبانية. ورواية ابن الأثير (الكامل ١١ ـ ٦) أكثر رجحاناً، لأن موطن الهذبانية يبعد كثيراً عن منطقة جزيرة ابن عمر، حيث يشير ياقوت (معجم البلدان ١ ـ ١٧٤) إلى أن الأكراد الهذبانية كانوا ينزلون في نواحي الموصل، ويزيد ابن حوقل (صورة الأرض ص ٢٨٨) مكان سكناهم تحديداً فيقول: إن مشتاهم كان يمتد في المنطقة الفاصلة بين الزابين الكبير والصغير، والتي تبعد مسافة كبيرة عن جزيرة ابن عمر.

(٢) ياقوت: معجم البلدان ٣ ـ ٣١٥، الكامل ١١ ـ ٦، أنور المائي: الأكراد ص ١٤، ١٩.

(٣) قلعة حصينة ينسبها ابن الأثير (الكامل ١١ ـ ٦) إلى حصون المهرانية، وينسبها ياقوت (معجم البلدان ١ ـ ٣٥٢) إلى حصون الزوزان (البشنوية) ولعل تقارب المنطقتين أدى إلى هذا الاضطراب في تحديد تبعية الحصن.

أما كواشي فقد حكمها الأمير خول وهرون[١]. ولم تذكر المصادر زمن تولي كل من الأميرين الأخيرين الحكم.

ما أن استولى زنكي على قلعة أشب الهكارية عام ٥٣٧ وعاد إلى الموصل، حتى أرسل نائبه نصير الدين جقر ليقوم بإتمام فتح الحصون الكردية الأخرى في المنطقة ـ كما سبق ومر بنا ـ فقام هذا بالاستيلاء على بقية الحصون الهكارية المهمة، ثم اتجه إلى منطقة المهرانية المجاورة، واستطاع أن يفرض سيطرته على قلاع الشعباني وفرح وكواشي وسروة والزعفراني[٢]. وقد لعبت الظروف دورها في تحقيق هذه الانتصارات السريعة لصالح زنكي. ذلك أن اكتساح القلاع الهكارية في ذلك المدى القصير، أدخل الرعب في قلوب أصحاب القلاع الأخرى في المناطق المجاورة. وصادف أن توفي الأمير عبد الله بن عيسى المهراني صاحب الربية والمواقع المحيطة بها، فتولاها من بعده ولده علي الذي أسرع بإرسال أمه خديجة بنت الحسن إلى الموصل لتطلب الأمان من زنكي، فأجابها إلى ذلك، ثم ما لبث علي أن قدم بنفسه لإعلان الطاعة لزنكي، فأقره هذا على قلاعه، بسبب انهماكه بفتح قلاع الهكارية المتبقية. ولعله أراد بذلك عزل أمراء المهرانية بعضهم عن البعض الآخر، إذ إنه سرعان ما أوعز إلى نائبه نصير الدين جقر بالاستيلاء على حصن الشعباني العائد لأمير مهراني آخر هو الحسن بن عمر، فأتم جقر المهمة واقترح على زنكي السماح له بإلقاء القبض على علي ومهاجمة ممتلكاته فأذن له بذلك[٣].

(١) الكامل ١١ ـ ٦. ويذكر محمد أمين زكي (تاريخ الكرد وكردستان ص ١٥٤ ـ ١٥٥) إلى أن علياً كان يحكم حصن (علكار الكي) فضلاً عن الربية، وربما كان الرسم الأخير هو اللفظ الكردي لاسم (القي).

(٢) الكامل ١١ ـ ٦.

(٣) الكامل ١١ ـ ٥ ـ ٦، الباهر ص ٦٤.

أسرع جقر بالتوجه إلى قلعة الربية، فهاجمها وتمكن من الاستيلاء عليها وأسر من كان فيها من أنصار علي وإخوانه. وتلقى زنكي نبأ هذا الانتصار السريع بسرور بالغ، وأوعز إلى نائبه أن يسعى للاستيلاء على بقية المواقع المهرانية التابعة لعلي، فتحركت قواته لتنفيذ الأمر، إلا أن الأكراد دافعوا عن حصونهم بحماس شديد، الأمر الذي دفع زنكي إلى ملاينتهم وتقديم الوعود لهم، فأجابوه إلى التسليم بشرط أن يطلق سراح من في سجونه من أمرائهم وقادتهم. وقد تم الاتفاق على ذلك بعد مفاوضات طويلة بين الطرفين، فتسلم زنكي القلاع المهرانية وأطلق من في يده من الأسرى، وهكذا استتب الأمن في تلك المناطق[١]، بعد أن كانت الفوضى قد سادتها زمناً طويلاً[٢]، الأمر الذي عاد بالنفع العميم على السكان الذين أتيح لهم أن يتخلصوا من المنازعات والحروب.

البشنوية:

بعد أن وضع زنكي يده على عدد من أهم مواقع الطوائف الكردية آنفة الذكر، التفت صوب جماعة البشنوية المنتشرة في بلاد الزوزان[٣]، الواقعة في الأراضي الممتدة من جبال أرمينية شمالاً وحتى الموصل جنوباً، ومن أذربيجان شرقاً حتى إقليم ديار بكر غرباً، وكان يقطن هذه البلاد، إلى جانب البشنوية، عدد كبير من الأرمن وطائفة كردية أخرى تدعى البختية. وقد أقامت كلتا الطائفتين الكرديتين عدداً من القلاع الحصينة في المنطقة، أشهرها برقة وبشير وجرذقيل وأتيل وعلوس[٤]، وباز الحمراء[٥] وأنبح[٦]

---

(١) المصدر السابق ١١ ـ ٥ ـ ٦.

(٢) المصدر السابق ١١ ـ ٦.

(٣) الباهر ص ٦٤، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨ ـ ١٩٠.

(٤) ياقوت: معجم البلدان ـ ٦٣٥.

(٥) المصدر السابق ٢ ـ ٩٥٧.

(٦) المصدر السابق ١ ـ ٤٦٦.

وأروخ وباخوخا وبرخو وكنكور[١] وخوشب[٢] والهيثم وشاروا[٣]. إلا أن أياً من هذه المواقع لم يكن يداني في أهميته حصن فنك الذي اتخذه البشنوية مركزاً رئيسياً لهم، لما كان يتمتع به من حصانة لم تتح لأمراء جزيرة ابن عمر القريبة منه السيطرة عليه. (ويطل الحصن على نهر دجلة، وله سرب إلى عين ماء لايمكن أن يحال بينه وبينها)[٤]. وقد امتاز سكانه بالمروءة والعصبية، وحماية من يلتجئ إليهم وتقديم ما يحتاج إليه[٥].

ولم تورد المصادر عن التاريخ السياسي لهذه الطائفة سوى روايات متفرقة، غير مترابطة، لا تكفي لتوضيح تنظيمهم وتطور إمارتهم. منها ما ذكره ابن الأثير ـ في أحداث عام ٣٨٠ هـ ـ من أن باذن بن دوستك الكردي ـ مؤسس الإمارة المروانية في ديار بكر ـ سعى في ذلك العام إلى حشد أنصاره من الأكراد ضد الحمدانيين في الموصل (فأكثر من أطاعه الأكراد البشنوية أصحاب قلعة فنك، وكانوا كثيرين، وفي ذلك قال الشاعر الحسين البشنوي لبني مروان، يعتد عليهم بنجدتهم خالهم (باذ) بقصيدة مطلعها:

البشنوية أنصار لدولتكم وليس في ذا خفا في العجم والعرب[٦]

كانت بلاد البشنوية تابعة لباذ بن دوستك. وقد أناب عنه في حكمها ابن أخته حسين بن مروان. فلما اندحر خاله أمام الحمدانيين عام ٣٨٠ هـ تزعم الأكراد بنفسه، وتمكن من الاستيلاء على مناطق واسعة من ديار بكر، بعد الهزيمة التي ألحقها بالحمدانيين في نفس العام، ومن ثم أعاد بناء الدولة المروانية هناك[٧].

(١) المصدر السابق ١ ـ ٣٧١.
(٢) المصدر السابق ٤ ـ ٣١٢.
(٣) المصدر السابق ٢ ـ ٩٥٧.
(٤) الباهر ص ٦٣.
(٥) المصدر السابق ص ٧٣ وينقل عنه أبو شامة: الروضتين ١ ـ ١٠٥.
(٦) معجم البلدان ٣ ـ ٩٣٠، أبو الفداء: تقويم البلدان ص ٢٧٤.
(٧) الكامل ٩ ـ ٢٦.

ورواية أخرى يذكرها ابن الأثير في أحداث عام ٤٣٣ هـ، أوضح فيها كيف أن الغز فارقوا أذربيجان في ذلك العام، فراراً من السلاجقة. واتجهوا غرباً، وكيف أن بعض الأكراد دلوهم على الطريق. وساروا بهم مجتازين مناطق جبلية وعرة عبر أراضي الزوزان، وانتهوا إلى جزيرة ابن عمر، وكيف أن قسماً من الغز انطلق من هناك إلى ديار بكر للنهب والسلب، بينما بقي القسم الآخر قريباً من الجزيرة، بقيادة منصور بن غزغلي الذي تلقى رسالة من سليمان بن نصر الدولة المرواني يعرض عليه فيها الصلح، ويطلب منه البقاء في مكانه لحين خروج الشتاء، كي يتجها سوية، مع سائر الغز المتفرقين في البلاد، صوب الشام للاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه من بلادها. وقد استجاب قائد الغز لهذا العرض وعقد تحالفاً مع الأمير المرواني، إلا أن الأخير أضمر الغدر به، وسرعان ما تمكن من القبض عليه، الأمر الذي دفع أصحابه إلى التفرق في كل مكان. ولما علم قرواش العقيلي، أمير الموصل، بتفرق الغز، سير جيشاً كبيراً لقتالهم، انضم إليه الأكراد البشنوية، أصحاب فنك، وقوات سليمان المرواني، وبدؤوا بملاحقة الغز الذين وجدوا أنفسهم إزاء عدو يفوقهم بكثير، فاضطروا إلى طلب الأمان، لكنهم لم يجابوا إليه، ومن ثم التقى الطرفان في معركة طاحنة أسفرت عن هزيمة الحلفاء وانسحاب قرواش العقيلي إلى الموصل؛ خوفاً من احتمال مهاجمتها خلال غيابه عنها[١].

وفي عام ٥٠٩ هـ اشترك البشنوية، مع عدد من الطوائف الكردية القاطنة شمالي الموصل، كالهكارية والمهرانية، في إثارة الفتن والاضطرابات. تلك التي تصدى لها الأمير جيوش بك والي الموصل السلجوقي (٥٠٧ ـ ٥١٤ هـ) وتمكن من القضاء عليها، وإعادة الأمن والاستقرار إلى المنطقة، بعد أن تولى أمر مطاردة المفسدين بنفسه، واستولى على عدد من قلاعهم[٢].

(١) المصدر السابق ٩ ـ ٢٦ ـ ٢٨، الفارقي: تاريخ آمد (القسم المنشور) ص ٥٩ ـ ٦٠.
(٢) المصدر السابق ٩ ـ ١٤٥.

لم يبق أمام زنكي من حصون الأكراد المهمة شمالي الموصل سوى حصن فنك وعدد من الحصون البشنوية المجاورة؛ التي كانت تخضع لهذه الطائفة الكردية منذ أكثر من ثلاثة قرون، وكان أميرها يومئذ حسام الدين البشنوي[١]، وقد اضطر زنكي إلى تأخير مهاجمته حصن فنك بسبب ما كان يتمتع به من حصانة، ولم يسع لذلك إلا بعد أن تمت له السيطرة على معظم الحصون الكردية في المنطقة، حيث وجه اهتمامه إليه عملاً بخطته التي اختطها، وهي (أن لا يكون وسط بلاده ما هو ملك لغيره)[٢].

قام زنكي ـ قبل مهاجمة فنك ـ بمحاولة عزلها عما يحيط بها من مواقع وحصون، وتمكن من الاستيلاء على عدد من القلاع المجاورة كالهيثم وشاروا وغيرهما[٣]، وفي عام ٥٤١ هـ أتيحت له الفرصة لتوجيه ضربته ضد آخر الحصون المستقلة في المنطقة، فأوعز إلى قائده زين الدين علي كجك بالتوجه على رأس قوة عسكرية للاستيلاء على حصن فنك. فنظم هذا القائد جيشاً كبيراً من الفرسان والرجالة، انطلق بهم نحو فنك، وفرض حصاره عليها، إلا أن أصحابها صمدوا للحصار معتمدين على حصانة موقعهم، ومساربه الخفية التي كانت تضمن لهم الماء والأقوات. ولم يطل حصار زين الدين لفنك، إذ سرعان ما بلغه نبأ اغتيال سيده زنكي خلال حصاره قلعة جعبر في نفس العام، فاضطر إلى فك الحصار والانسحاب إلى الموصل[٤].

تلك هي الجماعات الكردية التي هاجم زنكي مواقعها، واستطاع أن يضع يده على معظم ممتلكاتها وقواعدها المهمة، ويخضعها لسيطرته، في

---

(١) الكامل ١٠ ـ ٢٣٠.

(٢) الباهر ص ٧٣، الكامل ١١ ـ ٤٤، مفرج الكروب ١ ـ ٩٨.

(٣) الكامل ١١ ـ ٤٤.

(٤) الباهر ص ٧٣.

أقل من عقد ونصف، بفضل مقدرته العسكرية، وخططه السياسية البارعة التي أتاحت له التغلب على مصاعب القتال في المناطق الجبلية الوعرة، وسط فئات لا تدين له بالولاء. وقد تمكن بذلك من تأمين إحدى الجهات الهامة لإمارته، بعد أن كانت تشكل نقاط خطر عليه، وأن يجعلها تستند إلى خطوط دفاعية يصعب اختراقها، تحقيقاً لخطته في بناء السياج الذي صمم على بنائه حول إمارته عندما قال يوماً: (إن البلاد كبستان عليه سياج، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول)[١].

(١) الكامل ١١ ـ ٤٤، الباهر ص ٧٣، الروضتين ١ ـ ١٠٥. الباهر ص ٧٩، وينقل عنه أبو شامة: الروضتين ١ ـ ١١١ وابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ١٠٣.

الفصل السادس
عماد الدين زنكي وحكام دمشق

بدأ زنكي عام ٥٢٤ هـ تنفيذ خططه للاستيلاء على دمشق والمواقع المجاورة في قلب بلاد الشام، والتي كانت تخضع جميعاً لإمارة آل طغتكين الذين ورثوا حكم هذه المنطقة الحيوية عن سلاجقة الشام[١]. وقد أدرك زنكي أن تسديد ضربة حاسمة لدمشق لن يتأتى دون الاستيلاء على المدن والمواقع المحيطة بها، وبخاصة مدينتي حماة وحمص الواقعتين على الطريق الرئيسي إلى دمشق، إذ أن السيطرة عليهما تمنحه قواعد استراتيجية هامة، ومراكز للتموين، لا يمكن الاستغناء عنها عند القيام بهجوم ضد دمشق، أو فرض حصار عليها.

سعى زنكي إلى استخدام الطرق والمناورات السلمية للاستيلاء على هاتين المدينتين دون اللجوء إلى أساليب العنف والقتال، فاتجه إلى حماة التي كان يحكمها سونج بن بوري بن طغتكين حاكم دمشق، نيابة عن أبيه، وأرسل إلى بوري ـ من هناك ـ يستنجده على قتال الصليبيين (وأظهر العزم على الجهاد)، فأجابه الأخير إلى طلبه، وأرسل إلى ابنه سونج يأمره بالخروج على رأس جيشه لنجدة زنكي، كما أرسل من دمشق قوة من الفرسان ـ بلغت الخمسمئة ـ بقيادة عدد من الأمراء[٢].

---

(١) كانت إمارتهم تضم ـ فضلاً عن دمشق وحماة ـ عدداً من المواقع المنتشرة في قلب الشام كبعلبك وصرخد وبصرى وباناياس وغيرها.

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨، الكامل ١٠ ـ ٢٥١، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٤٥ ـ ٢٤٦، مفرج الكروب ١ ـ ٤١ ـ ٤٢.

ما أن وصل سونج وقواته إلى معسكر زنكي حتى دبر هذا حيلة أخرى انتهت بإلقاء القبض عليه وعلى عدد من أمرائه وقادته، وإرسالهم مخفورين إلى حلب حيث اعتقلوا في قلعتها، ثم تقدم مسرعاً إلى حماة منتهزاً فرصة عدم وجود حامية تدافع عنها، فاستولى عليها دون مقاومة تذكر، في الرابع عشر من شوال، وسلمها ـ خدعة منه ـ لحليفه خيرخان بن قراجا صاحب حمص الذي كان يرافقه في عملياته في المنطقة تقرباً منه، وتخلصاً من خطره على ممتلكاته. إلا أن زنكي سرعان ما ألقى القبض عليه، أسوة بأمير حماة، ثم أسرع في مهاجمة حمص علها تلقى نفس المصير الذي لقيته حماة، وتسلم قيادها إليه دون لجوء إلى القتال. إلا أن أهالي حمص قاتلوا ببسالة كبيرة، اضطرت زنكي ـ أخيراً ـ إلى فك الحصار والعودة إلى حلب[1]. حيث أرسل من هناك كلاً من خيرخان وسونج وأمرائه لكي يعتقلوا في الموصل. ثم ما لبث بوري أن أخذ يراسل زنكي ملتمساً إطلاق سراح ابنه، وأخيراً تمت موافقة أمير الموصل على إعادة المعتقلين إلى دمشق مقابل تسليمه دبيسَ بن صدقة ـ أمير الحلة ـ الذي كان محتجزاً آنذاك في دمشق[2]. أما خيرخان فقد بقي في السجن حتى مقتله عام ٥٢٩ هـ[3].

ما لبث زنكي أن قام ـ في العام التالي ـ بهجومه الثاني على حمص، لكنه جوبه بنفس المقاومة الشديدة، فآثر الانسحاب انتظاراً لفرصة مواتية

---

(١) المصادر السابقة، نفس الصفحات، وأبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر ٥ ـ ٨، ابن الوردي، تاريخ ٢ ـ ٣٥. ويجعل كل من ابن الأثير وأبي الفداء وابن الوردي هذه الأحداث عام ٥٢٣ هـ، بينما يجعلها كل من ابن القلانسي وابن العديم وابن واصل عام ٥٢٤. ورأي الأخيرين أرجح، لأن معلوماتهم عن أحداث الشام في هذه الفترة أكثر دقة من غيرهم.

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٠ ـ ٢٣١، المنتظم ١٠ ـ ٢٠، الكامل ١٠ ـ ٢٥٤ ـ ٢٥٥، وينفرد الباهر ـ ص ٤٦ ـ بأن زنكي هدد بوري بمحاصرة دمشق، إن لم يسلمه دبيساً، فأجابه بوري إلى طلبه. وهو خبر ضعيف، ومبالغ فيه كعادة ابن الأثير في (الباهر).

(٣) مفرج الكروب ١ ـ ٧١.

أخرى[١]، وفي السنة التالية توفي بوري حاكم دمشق، فأعقبه في الحكم ابنه إسماعيل الذي كان أكثر طموحاً واندفاعاً من أبيه، فعزم على مهاجمة حماة، وتمكن من استردادها في شوال عام ٥٢٧ هـ، بعد أن أبدت حاميتها مقاومة عنيفة[٢].

كان زنكي ـ خلال هذه الفترة ـ منهمكاً بمشاكله مع الخلافة العباسية والسلاجقة، وكان قد أوقف خططه التوسعية في الشام لكي يتفرغ لتلك المشاكل، الأمر الذي اضطره إلى عدم القيام بعمل سريع ضد إسماعيل إثر استرداده حماة. إلا أن الأخير سرعان ما اتبع سياسة ظالمة إزاء أهالي دمشق وأمرائها، فتألب عليه الجميع. وإذ أدرك إصرار زنكي على مهاجمة دمشق، وصعوبة الصمود بوجهه والنقمة تحيطه من كل مكان، قرر القيام بمناورة استهدف من ورائها كسب زنكي إلى جانبه ضد خصومه الدمشقيين، فكاتبه ـ عام ٥٢٩ هـ ـ يطلب منه القدوم إلى دمشق لتسليمها إياه طوعاً، وشرط عليه ـ لقاء ذلك ـ أن يمكنه من الانتقام من خصومه، وأبلغه أنه إن لم يسرع بتلبية طلبه، قام باستدعاء الصليبيين وسلمهم دمشق (وكان إثم المسلمين في عنق زنكي) !! ثم ما لبث إسماعيل أن شرع بنقل أمواله وممتلكاته إلى صرخد، استعداداً لتسليم دمشق لأمير الموصل. غير أن كبار أمراء دمشق وقادتها أوضحوا لوالدته ـ ذات النفوذ الكبير في الإمارة ـ العواقب الوخيمة التي ستجرها عليهم سياسة ابنها الرعناء، فأسرعت بتدبير قتله، وأجلست مكانه في الحكم أخاه شهاب الدين محمود حيث بايعه الناس[٣].

كان زنكي قد سار مجداً لتسلم دمشق من إسماعيل، حسب الاتفاق الذي تم بينهما، وعندما بلغته أنباء التغييرات التي جرت فيها، لم يقطع أمله وواصل

---

(١) المصدر السابق ١ ـ ٤٦.

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩، الكامل ١١ ـ ٣، ابن منقذ: الاعتبار ص ٩٧ ـ ٩٨، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨ ـ ١٤٥.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨، الكامل ١١ ـ ٨ ـ ٩.

المسير حتى عسكر في منطقة العبيدية القريبة من دمشق، وأرسل من هناك وفداً للتفاوض مع مسؤوليها حول شروط تسليم المدينة، اعتقاداً منه بعدم قدرة الحكام الجدد على المقاومة. فاستقبل الوفد بحفاوة بالغة، واطلع على مدى التفاف الأهالي حول الحاكم الجديد، وعاد لكي يخبر زنكي بما استجد من أوضاع. إلا أن الأخير أصر على مهاجمة دمشق، فضرب الحصار عليها، وقام بشن هجماته على أطرافها، مما اضطر سكان هذه المناطق إلى الانسحاب إلى قلب المدينة، والانضمام إلى المدافعين عنها(١).

بذل الدمشقيون جهوداً كبيرة للدفاع عن بلدهم، وقاموا بشن هجماتهم المضادة على معسكرات زنكي، وقد جاء هذا إثر اشتداد الغلاء في المنطقة، وانعدام الأقوات، وتسلل بعض جند زنكي إلى دمشق، ووصول رسول الخليفة المسترشد يأمره بفك الحصار والتوجه على رأس قواته إلى بغداد للعمل سوية ضد السلطان مسعود، وكان حكام دمشق قد بعثوا إلى الخليفة مبلغاً قدره خمسون ألف دينار وقالوا له: (ادفع عنا زنكي، ونحن نحمل هذا في كل عام، فأجابهم إلى طلبهم)(٢). وقد دفعت هذه الأمور جميعاً زنكي إلى طلب عقد الصلح بين الطرفين، وغادر دمشق في التاسع والعشرين من جمادى الأولى ٥٢٩ هـ متوجهاً إلى بلاده(٣). وقد تمكن ـ لدى مروره بحماة ـ من مهاجمة المدينة، وإلقاء القبض على واليها الدمشقي

---

(١) المصادر السابقة، نفس الصفحات.

(٢) المنتظم ١٠ ـ ٤٣.

(٣) ابن القلانسي ٢٤٧ ـ ٢٤٨، ابن منقذ: الاعتبار ص ٩٩ ـ ١٠٠، ابن الجوزي: المنتظم ١٠ ـ ٤٣، الكامل ١١ ـ ٨ ـ ٩، ابن العديم: زبدة الحلب ٢ ـ ٢٥٥ ـ ٢٥٨ ابن واصل ١ ـ ٥٧ ـ ٥٨. ويذكر History of the Crusades 11/197: S.Runciman أن زنكي قام بزيارة رسمية لدمشق، ولكن محموداً لم يثق به ليعيد الزيارة إليه، فأرسل أخاه نيابة عنه. وربما أخطأ رنسمان فهم النصوص المتشابكة في هذا المجال التي أوردها كل من ابن الأثير وابن القلانسي وابن العديم، والتي لم تشر مطلقاً إلى أن زنكي دخل دمشق، بل اكتفى باستقدام أخ لشهاب الدين محمود إلى معسكره لعقد الصلح.

(شمس الخواص)، منتهزاً فرصة تذمر أهالي حماة من معاملة موظفي ونواب هذا الوالي. واستطاع زنكي بذلك أن يعيد حماة إلى ممتلكاته دون عناء يذكر، ومن ثم عين عليها نائباً وغادرها متوجهاً إلى حلب[1]. ثم ما لبث أن عاد لمهاجمة حمص في شوال من نفس العام، فأحرق زروعها وقاتلها، إلا أن هجومه هذا لم يحقق أية نتيجة، فغادر المنطقة في ذي القعدة متوجهاً إلى الموصل[2].

غدت حمص، طيلة السنوات الثلاث التالية (٥٣٠ ـ ٥٣٢ هـ)، الهدف الأول لزنكي، وشهد عام ٥٣٠ محاولة أخرى للاستيلاء عليها أشد عنفاً من سابقاتها، حيث حاصرها نائب زنكي، وضيق الخناق على أعمالها، وقطع التموين عنها، فاضطر صاحبها قريش بن خيرخان إلى مراسلة شهاب الدين محمود يلتمس منه إرسال من يراه كفؤاً لتولي شؤون الحكم في حمص، على أن يعوضه عنها بإحدى مدن إمارته. فوافق حاكم دمشق على هذا العرض الذي يتيح له ضم مدينة كبيرة كحمص إلى إمارته، وعين عليها أحد أمرائه، وكتب إلى نوابه في البلاد أن يسرعوا بإرسال الميرة والأقوات إليها، وسرعان ما غدت حمص أشد قدرة على مجابهة الحصار الاقتصادي الذي فرضه زنكي عليها، وأقدر على المقاومة والصمود من ذي قبل[3].

استمرت قوات زنكي بقيادة سوار بن إيتكين، نائبه في حلب، على شن غاراتها على أطراف حمص، واستولت على مساحات واسعة من مزارعها وراحت تستثمرها لحسابها، إلا أن صمود الحمصيين، سيما بعد الإجراءات الأخيرة التي اتخذها حاكم دمشق، اضطرت سوار إلى طلب التفاوض، وانتهى الأمر بعقد صلح بين الطرفين اتفقا فيه على عدم تعرض أي منهما

(١) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٥٩، ابن القلانسي ص ٢٤٨.

(٢) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٥٩.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٢، الكامل ١١ ـ ١٥ ـ ١٦.

للطرف الآخر[١]. غير أن زنكي لم يقر هذه الهدنة التي عقدها نائبه، وجدد الهجوم على حمص بنفسه في العام التالي (٥٣١ هـ) ولكنها أصرت على المقاومة، ولعب الحظ دوره هذه المرة في تحديها لإرادة زنكي. إذ شهدت المنطقة تحالفاً خطيراً بين زعماء الصليبيين، استهدف مباغتة زنكي والقضاء على نفوذه في الشام[٢]. فاضطر إلى إيقاف هجومه على حمص، وعقد هدنة مع حكام دمشق[٣] كي يتفرغ لحشود الأعداء.

اشتبك زنكي مع الصليبيين بالقرب من بعرين وانتصر عليهم[٤]. وتهيأت الفرصة ثانية لمهاجمة ممتلكات آل طغتكين وتوحيد بلاد الشام لمجابهة الخطر الصليبي، فتوجه في مطلع العام التالي (٥٣٢ هـ) إلى حماة، حيث جمع قواته ونظمها، وبدأ بمهاجمة بعلبك هذه المرة،لكنه ما لبث أن غادرها لقاء مبلغ من المال دفعه صاحبها إليه، واتجه إلى حصن المجدل فاستولى عليه دون مقاومة تذكر، وإذ ذاك شعر إبراهيم بن طرغت صاحب بانياس بضعف مركزه تجاه زنكي، فراسله، وأعلن دخوله في طاعته. وعندما دخل الشتاء واشتد البرد، أوقف زنكي نشاطه في المنطقة[٥].

ومع بوادر الربيع انطلق على رأس قواته صوب حمص وفرض الحصار عليها. كان مركزه في المنطقة قد بلغ درجة كبيرة من القوة أتاح لنفسه معها أن ينقض الهدنة التي عقدها مع حكام دمشق في العام الماضي. كما أنه، باستيلائه على حصن المجدل، وفرض طاعته على صاحبي بعلبك وبانياس،

---

(١) المصدران السابقان، نفس الصفحات.

(٢) العظيمي، تاريخ، مخطوطة، ورقة ٢١١ و، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٦١ ـ ٢٦٢ وانظر فصل (زنكي والصليبيون).

(٣) المصدران السابقان، نفس الصفحات، ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٩، ٢٦٢.

(٤) انظر فصل (زنكي والصليبيون).

(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٣، الكامل ١١ ـ ٢٣، العظيمي: مخطوطة، ورقة ٢١١ ظ، زبدة الحلب ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

تمكن من السيطرة على معظم المواقع الغربية لإمارة آل طغتكين، ولم يبق أمامه، لاتخاذ طريقه صوب دمشق، سوى مدينة حمص.

شدد زنكي النكير على حمص، وجمع عليها جموعاً كبيرة من مقاتلي التركمان، واستقدم من حلب فرقة عسكرية متمرسة على أساليب الحصار، وقام بشن هجماته على أنحاء المدينة، مستخدماً هذه المرة مزيداً من أساليب العنف والإرهاب. ومرة أخرى يقف الحظ السيئ بوجه زنكي، فيضطره تهديد إمبراطور الروم لممتلكاته في الشمال إلى فك الحصار والتوجه لمجابهة أخطار التحالف البيزنطي ـ الصليبي، وقد تمكن في فترة قصيرة من القضاء على هذا التحالف الذي انتهى بانسحاب إمبراطور الروم إلى بلاده[١].

عاد زنكي إلى حصار حمص من جديد، محاولاً هذه المرة استخدام الأساليب السلمية لتحقيق هدفه، مستغلاً مركزه القوي في المنطقة إثر الانتصارات الحاسمة التي حققها ضد الصليبيين والبيزنطيين، فتقدم طالباً يد زمرد خاتون والدة شهاب الدين محمود حاكم دمشق، لعله يضمن الحصول على حمص عن طريق هذا الزواج السياسي. فأجيب إلى طلبه بعد مفاوضات قصيرة، وتمت إجراءات العقد في السابع عشر من رمضان، بعد أن تمكن من إقناع آل طغتكين بتسليمه حمصَ كجزء من الاتفاق، على أن يعوض نائبها بعدد من الحصون القريبة من دمشق كبعرين واللكمة والحصن الشرقي، كما اشترط عليهم تزويج ابنته من شهاب الدين محمود، مستهدفاً ـ من وراء ذلك ـ إقامة علاقته بهذه العائلة الحاكمة على قواعد راسخة قد تفيده في المستقبل القريب[٢].

---

(١) المصادر السابقة، نفس الصفحات، وانظر فصل (زنكي والصليبيون).

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧، الكامل ١١ ـ ٢٣، سبط ابن الجوزي مرآة الزمان ٨ ـ ١٦٥، W.B.Stevenson : The Crusades in the East , p.142.

لم يبق أمام زنكي بعد هذه الانتصارات العسكرية والسياسية، سوى دمشق، المدينة الرئيسية التي لابد من حيازتها إذا ما أريد للشام أن يتوحد بوجه الخطر الصليبي. وأغلب الظن أن زواجه بزمرد خاتون استهدف التمهيد لتحقيق هذا الهدف، لما كانت تتمتع به من نفوذ واسع في إمارة آل طغتكين. لكنها ما أن غادرت دمشق حتى فقدت مكانتها وسطوتها هناك، حيث غدت الكلمة الأولى لشهاب الدين محمود ورجال حكومته. ولما لم يؤمل زنكي من وراء زوجته الجديدة خيراً، أعرض عنها[١]. لكن شهاب الدين محمود ما لبث أن قتل في شوال من العام التالي (٥٣٣ هـ)، على أيدي رجالات حاشيته، فرجح في ظن زمرد خاتون ـ التي كانت مقيمة في حلب آنذاك ـ أن ما حدث إنما هو بتدبير من الطامعين بالسلطة في دمشق ضد ابنها محمود، فحزنت عليه، وأرسلت إلى زنكي في الموصل، تستدعيه طالبة الثأر لولدها، مستعجلة إياه على الوصول إلى دمشق للاستيلاء عليها[٢].

وأغلب الظن أن معين الدين آنر، كبير أمراء دمشق، هو الذي تولى كبر الجريمة، إذ أنه سرعان ما أتى بالأخ الأصغر محمد، صاحب بعلبك، وأجلسه في دست الإمارة، أملاً من وراء ذلك السيطرة عليه، والتفرد ـ باسمه ـ بالسلطة الفعلية في إدارة شؤون الإمارة. ومما يرجح هذا الظن أن آنر سرعان ما قام بإبعاد الأخ الآخر بهرام شاه عن دمشق، رغم كونه أكبر عمراً وأكثر إدراكاً من محمد، وذلك تحسباً مما قد يقوم به بهرام شاه من كشف لأسرار المؤامرة التي أودت بالحاكم السابق، والتي تولى أمر مهمة إنجاحها، فرأى أن ينفيه ليتخلص من الشبهات، والمنافسين في آن واحد. وقد اتجه بهرام إلى حلب ثم غادرها إلى الموصل حيث انضم إلى جبهة زنكي[٣].

---

(١) الكامل ١١ ـ ٢٣، ابن العبري: مختصر ص ٢٠٦، مفرج الكروب ١ ـ ٧٧.

(٢) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٧٢.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩، الكامل ١١ ـ ٢٨ ـ ٢٩.

كان زنكي قد استحث قواته لمهاجمة دمشق قبل أن تستتب الأمور فيها فيجابه بالتالي نفس العناء الذي جابهه في هجومه السابق، ولدى مروره بحماة جرد قوة من المشاة بلغت تسعة آلاف رجل[١]، وما أن سمع الدمشقيون نبأ زحفه حتى أخذوا يستعدون للدفاع، ويستكثرون من الذخائر (ولم يتركوا شيئاً، مما يحتاجون إليه، إلا وبذلوا جهوداً بالغة للحصول عليه)[٢]. ولم يشأ زنكي ـ إزاء هذه الاستعدادات ـ أن يهاجم دمشق مباشرة، وآثر أن تكون بعلبك هدفه الأول في هجومه هذا، وكانت هذه القلعة وما يحيط بها من بساتين ومزارع إقطاعاً لمعين الدين آنر، فشدد عليها الحصار، وتمكن بعد قتال حام من الاستيلاء عليها[٣]. واستطاع بذلك أن يتم ربط الطوق الذي ضربه حول دمشق بوضع قبضته على عدد من أهم المواقع المحيطة بها: بعلبك، حمص، حماة، بانياس، والمجدل، وأن يمنعها من الاتصال ببقية أجزاء إمارتها لطلب معونة عسكرية أو اقتصادية، الأمر الذي سيضعف مقاومتها إلى حد كبير. وفضلاً عن ذلك قام زنكي بجهود ديبلوماسية لتقوية مركزه، إذ راسل (رضوان)، الوزير الفاطمي الذي كان قد لجأ إلى دمشق، وأغراه بالانضمام إلى جبهته، وتم الاتفاق بين الطرفين. إلا أن آنر أدرك ما وراء هذا التحالف من أخطار، سيما وأن زنكي يقف على أبواب دمشق، فأرسل فارس بني شيزر المشهور أسامة بن منقذ سفيراً إلى رضوان، واستطاع أن يقنعه بالعدول عن ذلك بعد أن بذل له الأموال[٤].

---

(١) مفرج الكروب ١ ـ ٨٤.

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

(٣) المصدر السابق، نفس الصفحات، الكامل ١١ ـ ٢٨ ـ ٢٩، أما الباهر (ص ٥٨ ـ ٥٩) فيقدم معلومات يسودها الاضطراب والأخطاء.

(٤) للاطلاع على تفاصيل المحاولة وما دار من مناقشات، انظر: ابن منقذ: الاعتبار ص ٣٠ ـ ٣١.

بقي زنكي في بعلبك إلى ربيع الأول (من عام ٥٣٤ هـ)، وأعاد خلال ذلك تنظيم أمورها، وإصلاح ما أفسدته الحرب[١]، ثم عين نجم الدين أيوب والياً عليها، واتخذ طريقه إلى دمشق، فعسكر في البقاع، وأرسل إلى جمال الدين محمد يبذل له أي بلد يقترحه مقابل التنازل عن دمشق. إلا أن الأخير ورجال حكومته وعلى رأسهم آنر رفضوا الطلب، فاضطر زنكي إلى التقدم صوب دمشق وفرض الحصار عليها. وفي الثالث عشر من ربيع الأول حدث اللقاء الأول لطلائع الجيشين وانتهى بهزيمة الدمشقيين، بعد أن خلفوا وراءهم عدداً كبيراً من الأسرى والقتلى. وعندما تقدمت القوات المهاجمة خطوات إلى الأمام، جوبهت ثانية بحشد كبير من جند دمشق وشرطتها وأحداثها[٢]، لكنها لم تلق صعوبة تذكر في اكتساحه وقتل وأسر وجرح عدد كبير من أفراده. وحينذاك انهارت معنويات المدافعين عن دمشق وأوشكت مدينتهم على الاستسلام، لولا أن أوقف زنكي عملياته الحربية عشرة أيام[٣]. مؤملاً من وراء ذلك استمالة أهالي دمشق، ودخول المدينة سلماً، دونما اضطرار إلى إراقة مزيد من الدماء. وكي يحيط رغبته السلمية هذه بالضمانات أمر قاضيه كمال الدين الشهرزوري بمكاتبة جماعة من مقدمي جند دمشق وشرطتها، واستمالتهم، وإغرائهم بالهدايا والأموال، من أجل أن يتخلوا عن المقاومة ويفسحوا الطريق أمام زنكي لدخول دمشق. وسرعان

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٠، الكامل ١١ ـ ٣٠.

(٢) الأحداث: هم جماعات مسلحة من أهالي المدن، عظم شأنهم في بلاد الشام في عهد الحروب الصليبية، وبخاصة دمشق وحلب، وأصبحوا ذوي الكلمة الأولى في الدفاع عن دمشق في عهد آل طغتكين، كما أصبح لهم مسؤول يدعى (رئيس الأحداث) أو (رئيس البلد) يقر اختياره حاكم المدينة:

C.Cahen: Mouvements populaires et Antonomisme urbaine dans l'Aise Musulmane du Moyen Age, pp.11-13.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧١، الكامل ١١ ـ ٣٠، مفرج الكروب ١ ـ ٨٧.

ما استجاب للقاضي عدد كبير من سكان دمشق وقادتها، وعرضوا القيام بمحاولة لتسليم بلدهم من الداخل، إلا أن زنكي رفض ذلك تحسباً لما قد ينجم عن هذا الأسلوب من مخاطر قد تحل بقواته[١].

تابع زنكي مراسلة أمير دمشق، باذلاً له التنازل عما يشاء من المدن والحصون، لقاء تسليمه دمشق، معتقداً أن سيطرته على الموقف، وتضييقه الشديد على المدينة، سوف يدفعان أميرها إلى قبول عرضه هذه المرة. وقد مال جمال الدين محمد فعلاً إلى التسليم، لما في ذلك (من الصلاح وحقن الدماء)، إلا أن رجال حكومته، وعلى رأسهم آنر، الحاكم الفعلي في دمشق، منعوه من الاستجابة لمطالب زنكي، فوجد هذا نفسه مضطراً لإعادة القتال[٢].

وفي الثامن من شعبان توفي جمال الدين محمد، ربما مقتولاً بأيدي جماعة آنر خوفاً من الاستجابة لعروض عدوهم. وقد وجد زنكي في هذه الحادثة فرصة مواتية لتوجيه ضربته الحاسمة ضد دمشق، إلا أن آنر أسرع بتنصيب مجير الدين آبق بن محمد أميراً على دمشق، وأعاد تنظيم الدفاع ضد هجمات زنكي، وأخذ يشن بدوره هجمات مضادة اضطرت الأخير إلى التراجع قليلاً (وقد ضعفت نفسه وضاق صدره) بعد ما رأى من إصرار مسؤولي دمشق على المقاومة مهما كلف الأمر. ولكنه استمر في حصاره، مؤملاً انهيار الحالة الاقتصادية في دمشق ومن ثم انهيار مقاومتها. ولما رأى آنر عزم غريمه على الاستمرار في الحصار آمن بضرورة التحالف مع الصليبيين لإرغامه على الانسحاب. فأرسل بعثة إلى القدس التقت بملك الصليبيين وكبار أمرائهم، وطلبت منهم تقديم مساعدتهم لدمشق ضد زنكي، مقابل مبلغ من المال، فضلاً عن قيام آنر بالاستيلاء على بانياس وتسليمها

---

(١) الباهر ص ٥٨ ـ ٥٩، نقل عنه أبو شامة: الروضتين ١ ـ ٨٥ ـ ٨٦.

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢، الكامل ١١ ـ ٣٠.

إليهم، وخوّفتهم البعثة من أن سيطرة زنكي على دمشق تعني أن مقدّرات الشام قد أصبحت بيديه، وأن قواعد الصليبيين في المنطقة سوف تتعرض لخطر ماحق[١].

اجتمع (فولك)، ملك بيت المقدس، بمجلسه الاستشاري، وتمت الموافقة بالإجماع على عقد تحالف مع دمشق ضد زنكي، وتحرك الصليبيون بقيادة ملكهم نفسه صوب الشمال. باثين أمامهم العيون والجواسيس للتعرف على خطط عدوهم[٢]. وما أن علم زنكي بما يبيت له حتى أدرك أن استمراره في حصار دمشق سوف يضعه بين شقي الرحى. وأسرع لمجابهة الصليبيين قبل اقترابهم من دمشق، كي يتصدى لكل قوة على انفراد. فغادر المنطقة في مطلع رمضان (٥٣٤ هـ) صوب إقليم حوران في الجنوب. وعسكر هناك بانتظار قدوم الصليبيين الذين فضلوا إيقاف زحفهم عند طبرية خوفاً من الاصطدام بزنكي. فرأى هذا ـ وقد اطمأن من جهتهم ـ أن يعود مسرعاً إلى دمشق لحصارها من جديد، لكنه سرعان ما اضطر إلى الانسحاب ثانية صوب حمص، بسبب تقدم القوات الصليبية لنجدة حليفهم في دمشق[٣].

استغل آنر وحلفاؤه الفرصة واتجهوا إلى بانياس في محاولة للاستيلاء عليها تنفيذاً لما تم الاتفاق عليه في مفاوضات بيت المقدس. وما أن سمع زنكي بذلك حتى غادر على جناح السرعة إلى بعلبك استعداداً للدفاع عنها في حالة مهاجمتها، والقيام بمحاولة لإنقاذ بانياس التي كان صاحبها قد دخل تحت طاعته. وبينما كان منهمكاً بإرسال قواده لاستدعاء التركمان المقاتلين من أماكنهم المتفرقة في المنطقة، انقض آنر وحلفاؤه على بانياس

---

(١) Runciman: The Crusades, 11/227-228.

Setton : A History of the Crusades, vol.I, S.V.Zengi and the Fall of Edessa, by H.A.R Gibb, pp.459-460.

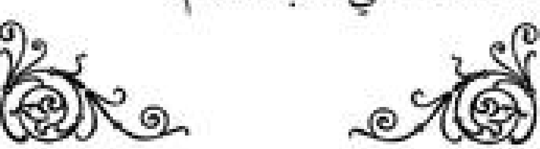
(٢) المراجع السابقة، نفس الصفحات.

(٣) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٧٢، الكامل ١١ ـ ٣٠، مفرج الكروب ١ ـ ٨٨.

وتمكنوا من الاستيلاء عليها، حيث سلمت إلى الصليبيين حسب الاتفاق السابق. وكرد على ذلك وزع زنكي قواته المتبقية للقيام بهجمات تخريبية في المناطق المحيطة بدمشق، وما لبث أن جمع قواته ثانية ورحل بهم عائداً إلى حلب[١]. خوفاً من قدوم حملة بيزنطية لمساندة الصليبيين والدماشقة[٢].

وهكذا استطاع أنر، بتحالفه مع الصليبيين، أن يتخلص من أخطر وآخر محاولة جدية من زنكي للاستيلاء على دمشق، وإتمام خطته بتوحيد الجبهة الإسلامية في الشام، إلا أن الأخير ظل ـ رغم ذلك ـ يفكر، طوال سنوات حكمه المتبقية، بتحقيق هدفه هذا.

ففي مطلع جمادى الأولى من عام ٥٤٠هـ راجت شائعات تقول بأن زنكي يعد العدة، ويتأهب للجهاد، وأنه ربما استهدف دمشق. وأكدت هذه الشائعات استكثاره من صنع المجانيق والمهمات الحربية وسائر ما يحتاج إليه لمجابهة أية صعوبة[٣]. وبعد ثلاثة أشهر اتجه زنكي إلى حلب، في طريقه إلى دمشق فعلاً، لكنه لم يلبث أن غير وجهته، بعد أن اكتشف ـ أثناء مروره بالرها ـ مؤامرة من سكانها الأرمن لإعادتها للصليبيين[٤]. وأرسل مجانيقه ومهماته الحربية إلى ناحيتي حمص وبعلبك[٥]، الأمر الذي يؤكد استهدافه دمشق من وراء تلك التحركات، بسبب قرب هاتين المدينتين منها. ولكن اغتياله بعد عام واحد، عند أسوار جعبر، وضع حداً لخططه في قلب الشام.



---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣، الكامل ١١ ـ ٣١، الباهر ٥٨ ـ ٥٩، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٧٤ ـ ٢٧٥، Runciman: op.cit, 11/227-228, Gibb : op.cit, 1/459-460.

(٢) R.H.Nicholson: Tancred, p.443.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٣، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨١.

(٤) Runciman: op.cit, 11/239, Gibb: op.cit, 1/462.

(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٢، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨١.

الفصل السابع
عماد الدين زنكي والصليبيون

تمكن الصليبيون من الاستيلاء على أجزاء واسعة من بلاد الشام والجزيرة، في فترة قصيرة لا تزيد عن العقد (٤٨٩ ـ ٤٩٨ هـ)، وأنشؤوا فيها أماراتهم الأربع: الرها، أنطاكية، بيت المقدس، وطرابلس، التي سرعان ما أصبحت تشكل خطراً بالغاً على بقية المواقع الإسلامية في المنطقة، وأخذ ذلك الخطر يزداد يوماً بعد يوم، بسبب ما كانت تعانيه القوى الإسلامية آنذاك من ضعف وتنازع، فالخلافتان العباسية والفاطمية كانتا أضعف من أن تقفا بوجه هذا الزحف الجديد، أما السلاجقة فقد بددوا قواهم في الصراع على السلطة. ولم يبق لتحمل عبء القتال ضد الصليبيين سوى الأمراء المحليين في الجزيرة والشام، لكن التنافس بين هؤلاء كان يعرقل ـ في كثير من الأحيان ـ نجاح أي مشروع لطرد الغزاة.

استغل الصليبيون هذا التدهور الشامل الذي لف العالم الإسلامي، وسعوا جاهدين إلى توسيع نفوذهم في المنطقة، وإرغام سكانها على تنفيذ مطاليبهم، فكانت سراياهم ـ كما يقول ابن الأثير ـ تبلغ (آمد. . ونصيبين ورأس العين. وأما الرقة وحران فكانتا تعيشان على الخوف من استضعاف الفرنج وهجماتهم. وانقطعت الطرق إلى دمشق، إلا على الرحبة ـ وبادية الشام ـ فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف وركوب المفازة تعباً ومشقة، ويخاطرون بالقرب من العرب بأموالهم وأنفسهم. ثم زاد الأمر فجعلوا على كل بلد جاورهم خراجاً وإتاوة، يأخذونها منهم ليكفوا أيديهم

عنهم.. وأما حلب فإنهم أخذوا مناصفة أعمالها، وأما باقي بلاد الشام فكان حالها أشد من حال هذه البلاد، وكان ملوك المسلمين عاجزين عن نصرة دينهم[١])(!).

وهكذا غدت الظروف السياسية والعسكرية في الجزيرة والشام تحتم ظهور أمير قوي يتمكن من القضاء على تناحر الأمراء المحليين، وتوحيد إماراتهم في جبهة إسلامية واحدة، بمقدورها التصدي للصليبيين. وقد قدر لعماد الدين زنكي أن يقوم بهذا الدور، بعد أن ولاه السلطان محمود السلجوقي حكم الموصل والجزيرة، وما يفتتحه من بلاد الشام، نظراً لقوة شخصيته، وشجاعته، ومواقفه السابقة في القتال ضد الصليبيين، عندما كان يعمل تحت إمرة ولاة الموصل طيلة الفترة بين ٥٠٥ و ٥١٤ هـ، حيث اشترك معهم في معظم حروبهم في هذا المجال. وكانت أولى تلك المعارك التي خاضها إلى جانب هؤلاء الولاة، تلك التي قادها مودود بن التونتكين والي الموصل، بعد تلقيه أمراً من السلطان محمد (عام ٥٠٥ هـ) بمهاجمة الصليبيين في الشام. وقد استهدف الهجوم مدينة الرها، إلا أن صمودها للحصار اضطر مودود وقواته إلى مغادرتها إلى مواقع أخرى أسهل منالاً. فمر على تل باشر وانتهى المطاف به عند معرة النعمان حيث فرض عليها الحصار. وهناك انضم إليه بعض الأمراء المحليين في المنطقة، وعلى رأسهم طغتكين حاكم دمشق. إلا أن مراسلة الأخير للصليبيين ـ سراً ـ لطلب الصلح، أدى إلى إخفاق حملة المسلمين في الاستيلاء على المعرة، وإلى انفضاض معظم أمرائها بالتالي، (فلما رأى مودود تفرق العساكر وصلح طغتكين للفرنج، ضعفت نفسه، وعاد عنهم. ولم يكن في عسكره من ظهر اسمه غير زنكي)[٢].

(١) الباهر ص ٣٢ ـ ٣٣ وينقل عنه: أبو شامة: الروضتين ١ ـ ٧٦ ـ ٧٧.

(٢) الباهر ص ١٧ ـ ١٨.

وبعد أقل من عامين شارك زنكي في الهجوم الذي شنه في فلسطين كل من مودود وطغتكين إثر التحالف الذي عقداه فيما بينهما لهذا الغرض. وقد استمرت المعارك بين المسلمين والصليبيين أسابيع طوالاً دون نتيجة حاسمة وعندما حل البرد والشتاء ارتأى الحليفان أن يعودا إلى دمشق ريثما يأتي الربيع، وقد أظهر زنكي خلال المعارك الآنفة شجاعة فائقة (لم يسمع بمثلها)[١].

لم يلبث مودود أن اغتيل على أيدي الباطنية، في جامع دمشق خلال العام نفسه. فقام السلطان محمد ـ إثر ذلك ـ بتجهيز الأمير آق سنقر البرسقي بالعساكر وتسييره لقتال الصليبيين، وأصدر أمره إلى قوات الموصل بمرافقته في حملته تلك، فكان زنكي من أبرز المنضمين إليه، وكان (قد ظهر عنه من الشجاعة ما لا يوصف، لا سيما بعد ما فعله بطبرية)[٢]. وقد استهدفت الرها مرة أخرى، إلا أن قدرتها الدفاعية أرغمت القائد الجديد، كما أرغمت سلفه من قبل، على التخلي عن فكرة الاستيلاء عليها، فرحل إلى سميساط، وقام ـ من هناك ـ بمهاجمة وتخريب عدد من المواقع الصليبية ثم قفل عائداً إلى بغداد[٣]، (وأبلى زنكي في هذه المواقف كلها بلاء حسناً، وعادت العساكر تتحدث بما فعله، وما ظهر له من الشجاعة)[٤].

لعبت مواقف زنكي هذه عبر جولات الصراع ضد الصليبيين دوراً كبيراً في مستقبله السياسي، إذ كانت على رأس الأسباب التي دفعت السلطان محمداً السلجوقي إلى توليته الموصل والجزيرة، إثر وفاة واليها عام ٥٢١، بعد أن أصبح لديه الاقتناع الكافي بأنه ليس ثمة من يسند هذا الثغر الهام غير عماد الدين، الأمر الذي دفعه إلى أن يمنحه منشوراً إضافياً بحكم ما يفتتحه من بلاد الشام. مما يؤكد حرص السلطان على الاستفادة من قدرات

---

(١) المصدر السابق ص ١٨ ـ ١٩.
(٢) الباهر ص ١٩.
(٣) نفسه ص ١٩ ـ ٢٠.
(٤) نفسه ص ١٩ ـ ٢٠.

هذا الأمير إلى آخر مدى ضد الخطر الجاثم على حدود العراق الغربية[١]. وقد جاءت هذه التولية نصراً هاماً للمسلمين في صراعهم ضد أعدائهم. ذلك أن طغتكين ـ حاكم دمشق ـ ما لبث أن توفي في العام التالي، وكان يعتبر من أشد أمراء الشام حرصاً على التصدي للهجمات الصليبية (فبعد وفاته خلت البلاد بالمرة.. ولطف الله سبحانه وولي زنكي)[٢].

لم يشأ زنكي الاشتباك مع الصليبيين منذ البداية، ورأى أن يسعى أولاً إلى تثبيت إمارته الجديدة، وتعزيز إمكانياتها الاقتصادية والعسكرية، وتوحيد ما يمكن توحيده من الإمارات الصغيرة المتناثرة التي تحيط بها من كل مكان. وتشكل عوائق أمام أية خطة يستهدف من ورائها إعلان الجهاد العام ضد الصليبيين، إذ كانت المصالح الخاصة لأمرائها، والمنافسات المستمرة فيما بينهم، تمنع تشكيل حلف متماسك ضد الأعداء، كما كان هؤلاء الأمراء ـ من جهة أخرى ـ يشكلون خطراً مباشراً على زنكي في حالة تقدمه لقتال أولئك الغزاة، إذ ستظل خطوط رجعته ـ آنذاك ـ غير مأمونة، فضلاً عن إمكان تعرضه لمجابهة محالفات بين بعض هؤلاء الأمراء والصليبيين، قد تعيقه عن تنفيذ مشاريعه واسترداد ما استولوا عليه. ومن ثم قام بمراسلة جوسلين أمير الرها، وعقد معه هدنة مؤقتة[٣] (يعلم أنه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقي له من البلاد الشامية والجذرية، وإصلاح شأنها، والفراغ من إقطاع بلادها لجند يختبرهم، ويعرف نصحهم وشجاعتهم)[٤]. ولم تشر المصادر إلى شروط هذه الهدنة التي كان أمدها سنتين[٥]، إلا أن

---

(١) انظر الفصل الأول.

(٢) الباهر ص ٣٨.

(٣) الكامل ١٠ ـ ٢٤٧، الباهر ص ٣٧، مفرج الكروب ١ ـ ٣٦.

Lane-Pool: Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, p.49, Geousset: Croisades, vol. 1., pp.667-668.

(٤) الباهر ص ٣٧.

(٥) Runciman: A History of the Ceusades, 11/182.

ابن الأثير يذكر أنها تمت على ما اختاره زنكي[١]. ويبدو أن المشاكل التي جابهت جوسلين اضطرته إلى قبول هدنة لصالح غريمه المسلم.

كان هدف زنكي الأول، إثر عقده الهدنة، هو الاستيلاء على حلب واتخاذها نقطة انطلاق له في بلاد الشام[٢]، وعندما دخلها في العام التالي، لقي ترحيباً بالغاً من أهاليها، وخرجوا لاستقباله في تظاهرة عبروا خلالها عن فرحهم وسرورهم بالأمير الذي جاء لتخليصهم من تهديد الصليبيين الدائم لهم، ومما كانوا يقومون به من تخريب لا حد له، على مدى المناطق الزراعية المحيطة بمدينتهم[٣]. وانطلق زنكي بعد ذلك لاكتساح ما كان يقف في طريقه من حصون مستقلة وإمارات محلية، منتهزاً فرصة هدنته مع جوسلين، ساعياً إلى توسيع حدود إمارته في شتى الاتجاهات.

ووافق عام ٥٢٤ هـ أن اجتازت أنطاكية الصليبية ظروفاً صعبة كادت أن تنتهي بسقوط هذه الإمارة في يد زنكي، أو بخضوعها لطاعته على الأقل. ذلك أن أميرها (بوهيمند الثاني) قتل هذا العام على أيدي سلاجقة آسيا الصغرى، فخلفته في الحكم زوجته (أليس) ابنة (بلدوين) ملك بيت المقدس. وعندما استنجد الأنطاكيون بأبيها، واتجه لإنهاء المشاكل هناك، أسرعت ابنته وبعثت رسولاً إلى زنكي تعرض عليه إعلان طاعتها له مقابل إقرارها كأميرة على أنطاكية. لكن الرسول ما لبث أن قتل على يد بلدوين؛ الذي عثر عليه أثناء توجهه إلى أنطاكية. إلا أن ملك بيت المقدس ما أن وصل إلى هناك حتى قامت ابنته بإقفال الأبواب في وجهه، ثم ما لبثت أن أعلنت ـ مضطرة ـ خضوعها له[٤]. وهكذا خسر زنكي فرصة ثمينة لا تعوض، كانت ستتيح له ـ بلا شك ـ السيطرة على أهم إمارات الصليبيين في الشمال.

---

(١) الباهر ص ٣٧.

(٢) نفسه ص ٣٧.

(٣) الكامل ١٠ ـ ٢٤٨، الباهر ٣٢ ـ ٣٤، ٣٧ ـ ٣٨، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٢٥ ـ ٢٣٤.

(٤) Runciman: op cit., 11/182-184 W.B.Stevenson: The Crusaders in the East, p.129

لكن ما حققه من نصر في العام نفسه، عوضه عن هذه الخسارة، ذلك أنه كان قد أنهى آنذاك معظم مشاكله وحروبه ضد أمراء ديار بكر[١]. كما كانت هدنته مع جوسلين قد انتهت، فقرر البدء بالهجوم على المواقع الصليبية، مستهدفاً أشدها قرباً وخطراً على كيانه السياسي في حلب، ولم يكن غير حصن الأثارب المجاور هو ذلك الهدف، بسبب ما كان يلحقه من أضرار بفلاحي المنطقة من المسلمين، وكان من فيه من الصليبيين يقاسمون سكان حلب كافة أعمالها الغربية، ويقومون بغارات مستمرة عليهم، وقد جمعوا فيه خيرة فرسانهم، نظراً لخطورة موقعه وأهميته بالنسبة لأهدافهم في المنطقة[٢].

اتجه زنكي إلى هذا الحصن وفرض الحصار عليه، فلما علم صليبيو الشام بذلك، حشدوا قواتهم من كل مكان، وشكلوا جيشاً ضخماً اتجهوا به لقتال زنكي، فاستشار هذا أصحابه وقادته فيما يعمل، فأجمعوا أمرهم على الانسحاب، وترك الحصن، لأن لقاء الصليبيين في بلادهم مجازفة وخيمة العاقبة. إلا أنه أجابهم: (إن الفرنج متى رأونا قد عدنا من بين أيديهم، طمعوا وساروا في أثرنا، وخربوا بلادنا، ولا بد من لقائهم على كل حال)[٣]. ومن ثم سار بجيشه للقائهم بعيداً عن الأثارب، وجرت بين الطرفين معركة قاسية انتهت بانتصار المسلمين وقتل وأسر عدد كبير من الصليبيين. ثم ما لبث زنكي أن اتجه إلى الحصن وفتحه عنوة، وقتل وأسر معظم أفراد حاميته، ثم أمر بتخريبه[٤]، كيلا يكون عرضة لتهديد مستمر من قبل الصليبيين، وتقدم من هناك إلى حارم الواقعة على طريق أنطاكية، وضرب عليها الحصار، فبذل له أهلها نصف دخل بلدهم، والتمسوا مهادنته، فأجابهم

(١) الباهر ص ٣٩.

(٢) الكامل ١٠ ـ ٢٥٢ الباهر ص ٣٩.

(٣) الكامل ١٠ ـ ٢٥٢ ـ ٢٥٣، الباهر ص ٣٩ ـ ٤٢.

(٤) المصدران السابقان، نفس الصفحات.

Crousset: op,ciy., 1/675-676, Stevenson: op.cit., p.129.

إلى ذلك، وقفل عائداً إلى حلب[١]. وقد أشار ابن الأثير إلى نتيجة من أهم نتائج معركة الأثارب، وهي أن الأحداث في الشام أخذت تتجه اتجاهاً جديداً لصالح المسلمين، الأمر الذي جعل الصليبيين يدركون أن عليهم مجابهة قوة جديدة لم تكن في حسابهم، ويحولون خططهم العسكرية من الهجوم إلى الدفاع، بعد أن كانوا (قد طمعوا في ملك الجميع)[٢]!!

انشغل زنكي، طيلة السنوات الأربع التالية (٥٢٥ ـ ٥٢٨ هـ) بتنظيم شؤون إمارته وتوسيعها، ولم يستطع أن يوجه اهتمامه إلى الصليبيين رغم المنازعات التي نشبت بينهم إثر وفاة (بلدوين الثاني) أمير أنطاكية عام ٥٢٥[٣]. وفي عام ٥٢٩ أتيحت له الفرصة ثانية لتحقيق انتصارات جديدة في بلاد الشام، حيث قام بمهاجمة عدد من المواقع الصليبية المحيطة بحلب، والتي كانت تهددها باستمرار، فضلاً عن كونها الخط الدفاعي الذي يحمي أنطاكية من هجمات المسلمين، وتمكن من الاستيلاء على خمسة منها: الأثارب[٤]، زردنا، تل أغدي، معرة النعمان، وكفر طاب[٥].

(١) المصادر السابقة، نفس الصفحات.

(٢) الكامل ١٠/٢٥٣.

(٣) Runciman : op.cit., 11/193-194 Stevenson: op.cit., pp.129-130.
Grousset: op. cit., 1/676
السيد الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية ١/٥٠٢ ـ ٥٠٣.

(٤) مر ذكر استيلاء زنكي على الأثارب وتخريبه عام ٥٢٤ هـ، ولم تشر المصادر إلى ظروف عودته إلى الصليبيين ثانية. وهذه الرواية تثير الشك فيما أورده ابن الأثير، والذين نقلوا عنه، كابن واصل، من أن زنكي فتح الحصن وخربه عام ٥٢٤ هـ. فهل أن ما أورده ابن العديم هنا (زبدة الحلب ٢ ـ ٢٥٩) يشير إلى أن الحصن فتح لأول مرة عام ٥٢٩ هـ، وأن ابن الأثير أخطأ في تحديد التاريخ؟ أم أن صاحب الزبدة حشر اسم الأثارب بين أسماء الحصون المجاورة الأخرى التي فتحها زنكي هذا العام؟ (انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ١/٥٦٨، ٥٧٢، و Grousset: OP. Cit., 11/193-194)

(٥) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٥٩. Stevenson: OP.Cit., pp. 129-130.
Runciman: op.cit., 11/197, K.M. Setton: A History of the Crusades, vol, S.V. Zengi and the Fall of Edessa. by: H.A.R. Gibb, pp. 457-458

أدت هذه الانتصارات التي حققها زنكي ضد الصليبيين إلى تنبيههم إلى تزايد خطره على ممتلكاتهم في الشام، وإلى ضرورة توجيه ضربة حاسمة إليه، وراحوا يتحينون الفرصة المؤاتية لإنزال هذه الضربة. وبعد عامين وحينما كان منهمكاً في حصاره لحمص، قاموا بحشد كبير تقدموا به مسرعين لمباغتة زنكي والقضاء عليه، وكسب حكام دمشق إلى جانبهم. وعندما سمع بذلك سار للقائهم بعيداً عن حمص كيلا يوقع نفسه في شقي الرحى بينهم وبين الحمصيين، ورأى أن خير وسيلة يستدرج بها الصليبيين إليه، وتتيح له، في نفس الوقت، تولي زمام المبادرة بنفسه، هو أن يظهر عزمه على مهاجمة حصن بعرين الصليبي القريب. وما أن بدأ زحفه صوب ذلك الموقع حتى تقدم إليه الصليبيون بقيادة كل من فولك ملك بيت المقدس وريموند كونت طرابلس. ودارت بين الطرفين معركة شديدة انتهت بانتصار المسلمين، وقتل وأسر عدد كبير من جند العدو وأمرائه وقادته، كان ريموند من بينهم، أما فولك فقد تمكن من الهروب إلى حصن بعرين[(١)].

ما لبث زنكي أن تقدم نحو الحصن وفرض عليه حصاراً شديداً. بينما اتجه عدد من المنهزمين من المعركة إلى بلاد البيزنطيين وأوربة طالبين النجدة من أبناء العالم المسيحي وأمرائه، قائلين لهم: إن زنكي، إذا ما تمكن من الاستيلاء على بعرين، سهلت عليه السيطرة على بقية الممتلكات الصليبية في الشام، لعدم وجود من يدافع عنها (وأن المسلمين لهم نية في قصد بيت

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩، الكامل ١١/٢١ ـ ٢٢، الباهر ص ٥٩ ـ ٦١ (ويخطئ المصدر الأخير بجعله هذه الحادثة عام ٥٣٤، كعادته في عدم ضبط التواريخ، والأصح عام ٥٣١ هـ، على ما أجمعت عليه المصادر)، وقد نقل عنه هذه الرواية أبو شامة: الروضتين ١/ ٨٧ ـ ٨٨.

Runciman : op. cit., 11/203-205 Gibb: op.cit., p. 458. Setton: A History of the Crusades. vol. I.S.V. The Grouth of the Latin = States, by.: R.L. Nishoison, pp. 438.

المقدس). فجمع المسيحيون جيشاً كبيراً من الصليبيين والبيزنطيين، وساروا لنجدة الحصن. إلا أن زنكي كان قد عزله عن العالم الخارجي، ومنع عنه تسلل الأخبار، كما أن تشديده الحصار على هذا الموقع الهام أدى إلى تناقص الميرة والذخيرة فيه، الأمر الذي اضطر أصحابه إلى طلب الصلح. فأجابهم زنكي إليه، بعد أن علم بتقدم الأعداء لنجدته، واشترط عليهم، فضلاً عن تسليم الحصن، تقديم مبلغ قدره خمسون ألف دينار يستعين به على نشاطه العسكري، فلم يتردد أصحاب الحصن في قبول مطالب زنكي، بعد أن أيقنوا بعجزهم عن مقاومته، والتمسوا منه إطلاق سراح أمرائهم وكبار أسراهم، فأطلقهم، بعد أن عاملهم معاملة حسنة، وتسلم الحصن[١].

بعد أن أخفقت حملة الروم والصليبيين التي قادها الإمبراطور البيزنطي (حنا كومنين)، في إنقاذ بعرين، سعت إلى محاولة استغلال الفرصة والاستيلاء على عدد من المواقع الإسلامية في الجهات الشمالية من الشام[٢]. وتم عقد اتفاق بين الإمبراطور وريموند أمير أنطاكية، كان من أبرز بنوده أنه إذا ما استولى المتحالفون على حلب وما يحيط بها من حصون، فإن ريموند يقوم بالتنازل عن أنطاكية للإمبراطور البيزنطي، ويتخذ لنفسه، عوضاً عن ذلك، إمارة صليبية جديدة تضم حلب وشيزر وحماة وحمص[٣]. وقد قام ريموند ـ كتأكيد لهذا الاتفاق ـ بإعلان تبعيته للإمبراطور، بعد حصوله على موافقة فولك، ملك بيت المقدس، على ذلك، إذ اعتقد الأخير بأن مصلحة صليبيي الشام تقتضي استمالة البيزنطيين، والإفادة من قواهم الكبيرة ضد المسلمين وبخاصة زنكي[٤].

---

(١) المصادر السابقة، نفس الصفحات.

(٢) الباهر ص ٦٢، الروضتين ١ ـ ٨٩، ابن منقذ: الاعتبار ص ٢.

(٣) Runciiman: op.cit., 11/213, Grousset: op.cit., 11/97, Nicholson op cit., p. 439

(٤) Runciiman: op.cit., 11/213, Nicholson: op.cit., p.439

ولكي يغطي الإمبراطور حنا كومنين على أهدافه سعى إلى خداع زنكي، الذي كان معسكراً آنذاك بين حمص وحماة، بأن أرسل إليه رسولاً ليقدم له بعض الهدايا، وليخبره بعدم تعرض الإمبراطور لإمارته[١] ثم ما لبث الأخير أن أصدر أوامره بإلقاء القبض على جميع المسافرين القادمين من حلب والقرى المجاورة صوب الغرب، كيلا تصل أنباء تحركات قوات المتحالفين إلى زنكي[٢]. ومن ثم تقدم الإمبراطور، يصحبه أميرا الرها وأنطاكية، وبدؤوا بمهاجمة حصن بزاعة القريب من حلب، وتمكنوا من الاستيلاء عليه[٣]. وقد استطاع بعض أهاليه أن يفروا إلى حلب، حيث أنذروا المسؤولين فيها عن قرب الخطر، فقام هؤلاء بتعزيز التحصينات الدفاعية، وأرسلوا إلى زنكي يطلبون نجدة مستعجلة، فأمدهم بقوة من الفرسان، كان لدخولها حلب تأثير كبير على رفع معنويات أبنائها. وما أن وصل المتحالفون إلى حلب وفرضوا الحصار عليها، حتى أدركوا مدى مناعتها وقدرتها الكبيرة على المقاومة، هذا إلى أن الحلبيين أخذوا يقومون بهجمات سريعة على معسكرات الأعداء أدخلت الرعب وعدم الاستقرار في نفوسهم، فآثروا الانسحاب. ولما علم جند الأثارب بذلك، خافوا من توجه المتحالفين إليهم، فأحرقوا خزائن القلعة وانسحبوا، وقام الإمبراطور ـ إثر ذلك ـ بإرسال بعض قواته إلى هذا الموقع، فتمكنت من الاستيلاء عليه. أما هو فقد تقدم على رأس القسم الأكبر من جنده إلى معرة النعمان واستولى عليها، وتوجه من هناك إلى شيزر، وفرض الحصار عليها، ساعياً بذلك إلى

(١) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٦٣.

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٤، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٦٤، Runciiman: op.cit., 11/215

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٥، تاريخ آمد وميافارقين، ورقة ١٢١ أ، المنتظم ١٠ ـ ٧٢، الكامل ١١ ـ ٢٣، الباهر ص ٥٥.

Gibb : op.cit., pp. 458-459 Nicholson: op.cit., p.439.

وضع يده على موقع هام يمنح الغزاة السيطرة على وادي نهر العاصي، ويقف سداً أمام مطامح وأهداف زنكي البعيدة في المنطقة[١].

استنجد سلطان بن علي الكناني، صاحب شيزر، بزنكي الذي كان منهمكاً آنذاك بمشاريعه الرامية إلى توحيد الجبهة الإسلامية في قلب بلاد الشام، فاتجه على رأس قواته شمالاً، وعسكر بالقرب من حماة (وكان يركب كل يوم في عساكره، ويسير إلى شيزر، بحيث يراه ملك الروم، ويرسل السرايا تتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب، ثم يعود آخر النهار)[٢]. كما سعى إلى خداع المتحالفين، إذ أرسل إليهم يقول: (إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال ـ المحيطة بشيزر ـ فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي!! فإن ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها، وإن ظفرنا بكم أرحت المسلمين من شركم. ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم، وإنما كان يفعل هذا ترهيباً لهم)[٣]!! وبهذا استغل زنكي مبادئ علم النفس الحربي، وعمل على تحطيم الروح المعنوية للصليبيين[٤]. وقد أشار هؤلاء على كومنين بلقاء عدوهم، فرفض الإمبراطور ذلك، اعتقاداً منه بأن زنكي لم يكن يظهر أمامهم من عسكره سوى القليل، وأن وراءه قوات ضخمة أتاحت له أن يتحداهم إلى اللقاء[٥].

استمر زنكي يطلق ما في جعبته من سهام الحيلة والدهاء لتفتيت هذا التحالف الخطير، فراح يراسل صليبيي الشام، ويحذرهم من إمبراطور الروم. ويعلمهم أنه إن استولى على حصن واحد في الشام (أخذ البلاد التي

---

(١) الكامل ١١ ـ ٢٣، الباهر ص ٥٥، ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٤.
Runciiman: op.cit., 11/215, Gibb: op. cit., 459., Nicholson: op.cit., pp. 439-440.

(٢) الباهر ص ٥٥، الروضتين ١ ـ ٨١، مفرج الكروب ١ ـ ٧٩.

(٣) الكامل ١١ ـ ٢٣ ـ ٢٤، الباهر ص ٥٥ ـ ٥٦.

(٤) عاشور: الحركة الصليبية ١ ـ ٥٨٧.

(٥) الكامل ١١ ـ ٢٤، الباهر ص ٥٦.

بأيديهم منهم)، ويراسل الإمبراطور ـ من جهة أخرى ـ يتهدده ويوهمه أن الفرنج معه. فسادت الشكوك بين الطرفين المسيحيين[١]، سيما وأن أميري الرها وأنطاكية لم يسعيا إلى التعاون الجاد مع الإمبراطور، فضلاً عن اشتداد المنافسة فيما بينهم، وتخوف ريموند من انتصار الروم، وبالتالي تنفيذ الاتفاقية التي وقعها معهم، والتي تجعله يقف وجهاً لوجه أمام قوات المسلمين بعيداً عن أنطاكية. ولم يرغب أمير الرها ـ هو الآخر ـ في أن يكون منافسه ريموند قريباً منه في حلب، في حالة انتصار المتحالفين وتنفيذ بنود الاتفاقية المعقودة بينهم، وقد عرقلت هذه العوامل جميعاً توحيد الجهود لفتح شيزر[٢].

ولم يأل زنكي جهداً ـ من جهة أخرى ـ في طلب النجدات العسكرية من شتى أنحاء العالم الإسلامي، فأرسل إلى بغداد يلتمس نجدة السلطان مسعود السلجوقي[٣]. وإلى سلاجقة آسيا الصغرى يشير عليهم بالإغارة على المواقع البيزنطية هناك، كي يتحول اهتمامهم إلى تلك الجهات[٤]. ووردت أنباء تشير إلى أن أمير حصن كيفا الأرتقي أرسل ابنه على رأس جيش كبير من التركمان[٥]، وأن قوات دمشق تحركت لمساعدة زنكي[٦].

إزاء هذا وذاك رأى الإمبراطور أن الانسحاب أصبح أمراً محتماً، فأنهى حصاره لشيزر في التاسع من رمضان (٥٣٢ هـ)، بعد أن عرض عليه أميرها

(١) الكامل ١١ ـ ٢٤، الباهر ص ٥٦، Runciiman : op.cit., 11/216.

(٢) ستيفن رنسيمان: محاضرات عن الحروب الصليبية، ترجمة صالح أحمد العلي، ص ٢٣٥، Runciiman: op.cit., 11/216.

(٣) الكامل ١١ ـ ٢٤، الباهر ص ٦٢ ـ ٦٣.

(٤) العريني: الحروب الصليبية ١ ـ ٥١٥ ـ ٥١٦،

Runciiman: op.cit., 11/216, Gibb: op. cit., p.459.

(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٦، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٦٨، Gibb: op.cit., p. 459.

(٦) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٦، Grousset: op.cit., 11/99.

مبلغاً من المال، وهدايا قيمة، وضريبة سنوية كرمز لتبعيته[١]، وقاد القوات المسيحية المتنازعة في طريق العودة إلى أنطاكية. وحينذاك انقض زنكي على آلاتهم الحربية الثقيلة (ومجانيقهم العظام)، فاستولى عليها، ورفعها إلى قلعة حلب[٢]، كما أرسل بعض جنده في آثار قوات العدو المنسحب، فقتلوا وأسروا عدداً كبيراً منهم[٣].

وفي أنطاكية حدث خلاف جديد بين الإمبراطور والصليبيين كاد أن ينتهي بفتنة واسعة بين الطرفين، لولا إسراع كومنين بالرجوع إلى بلاده[٤]. وهكذا يبدو واضحاً أن أهم النتائج التي أسفرت عن فشل المسيحيين هذه، هي تدهور العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين، وعدم استطاعتهم القيام بعمل سريع ضد نشاط زنكي في المنطقة في السنين التالية.

في الأيام التي أعقبت انسحاب المتحالفين، استطاع صلاح الدين الياغسياني حاجب زنكي، أن يستولي على كفر طاب، بعد أن بلغه هروب الصليبيين منها[٥]. كما سار زنكي إلى حصن عرقة، فحاصره وفتحه عنوة، وأسر من فيه من الصليبيين، ثم أمر بتخريبه[٦]. وما لبث أن اتجه، في مطلع العام التالي (٥٣٣ هـ) إلى حصن بزاعة، فاجتاحه عنوة وقتل معظم من فيه من قوات الصليبيين والروم، ثم حاصر الأثارب وتمكن من فتحها ـ في صفر ـ وقفل عائداً إلى الموصل[٧].

---

(١) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٦٨، الباهر ص ٥٦. Runciiman: op.cit., 11/216-217.

(٢) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٦٨، الباهر ص ٥٦.

(٣) الكامل ١١ ـ ٢٤، الباهر ص ٥٦.

(٤) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٦٨، Runciiman: op.cit., 11/217-218.

(٥) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٦٨، Gibb: op.cit., p.459.

(٦) الباهر ص ٥٧، الروضتين ١ ـ ٨٤.

(٧) مفرج الكروب ١ ـ ٨٣، Gibb: op.cit., p. 459.

انهمك زنكي، في الفترة التالية، بالعمل على إتمام خطته بتوحيد الجبهة الإسلامية، كي يكون أكثر قدرة على مجابهة الصليبيين، وقام في عام ٥٣٣ بعدة مناورات وعمليات عسكرية وسياسية، في بعض جهات الجزيرة، مستهدفاً ضمها لإمارته[١]. ثم عاد ليستأنف السعي من أجل تحقيق هدفه القديم بالاستيلاء على دمشق وتوحيد الجبهة الشامية. فاتجه إليها في أواخر العام نفسه، وفرض حصاراً شديداً عليها كاد أن يسقطها في يديه، لولا استنجاد أمرائها بصليبيي بيت المقدس، واستجابة هؤلاء لهم، رغبة منهم في القضاء على الخطر المشترك الذي يمثله وجود زنكي في المنطقة، الأمر الذي اضطر الأخير إلى الانسحاب[٢].

وفي عام ٥٣٨ هـ أتيح لزنكي استغلال مركزه القوي في ديار بكر[٣]، والقيام بفتح عدد من المواقع والحصون الصليبية العائدة لإمارة الرها الصليبية، والمنتشرة في المناطق القريبة من ماردين. كجملين، والموزر[٤]، وتل موزن، وغيرها من حصون إقليم شبختان[٥]. وكان هدفه من وراء ذلك قطع الاتصال بين قرا أرسلان الأرتقي، أمير حصن كيفا، وبين جوسلين أمير الرها، بسبب تحالفهما ضده[٦]، وبذلك تمهد الطريق أمامه لإنزال

---

(١) انظر الفصل الرابع.

(٢) انظر الفصل السادس.

(٣) انظر الفصل الرابع.

(٤) سماها ياقوت: الموزز (بالزاي) وذكر أنها إحدى أقاليم الجزيرة (معجم البلدان، ٤ ـ ٦٧٩ ـ ٦٨٠)، أما المصادر الأخرى فترسم حرفها الأخير بالراء. ويذكر ابن شداد أنها وجملين قلعتان لهما عمل متسع بين بلاد ديار بكر وديار مضر، على مسيرة يوم من حران. (حاشية زبدة الحلب ٢ ـ ٢٧٧).

(٥) شبختان: هو أحد أقاليم ديار بكر، عند منابع نهر الخابور: Gibb: op.Cit., p.461 ولم تحدد المصادر أسماء الحصون الصليبية الأخرى التي استولى عليها زنكي في هذا الإقليم.

(٦) Runciiman: op.cit., 11/235, Gibb: op.cit., pp.460-461.

ضربته المباشرة بالرها نفسها، وتحقيق حلمه الذي طالما راود خياله عبر سني صراعه الطويل ضد الصليبيين.

كانت الرها من أهم المراكز الصليبية، باعتبارها قاعدة لإحدى إماراتهم الأربع في الشرق الإسلامي، ولقربها من العراق، وقوة تحصيناتها، وما كانت تسببه للمناطق الإسلامية المجاورة من أخطار لا تقف عند حد، (وهي من أعظم المدن عند النصارى، إذ كانت عين البلاد الجزرية، وحصن المنطقة، وانضاف إليها عدد من البلاد)، فاتسعت أراضيها، واشتدت وطأتها على سكان المناطق المجاورة، (وأصبحت غارات فرسانها تبلغ آمد وماردين ونصيبين، ورأس عين، والرقة، وأما حران فكانت في الخزي، كل يوم صبحوها بالغارة)[١]. وكانت هذه الإمارة الصليبية ـ فضلاً عما سبق ـ تشكل عائقاً يحول دون قيام زنكي بتوحيد الجبهة الإسلامية في الجزيرة وشمالي الشام، بسبب تدخلها المستمر لصالح أعدائه من أمراء المسلمين في المنطقة، وتهديدها الدائم لخطوط المواصلات الإسلامية التي تربط بين الموصل وحلب من جهة، وبين بلاد فارس وسلاجقة آسيا الصغرى من جهة أخرى[٢].

لذلك راح زنكي يعد العدة للاستيلاء عليها، وتأمين الأهداف الكبرى التي يتيحها إسقاط هذا الجدار، منتظراً سنوح الفرصة لتوجيه ضربته، ودخول المدينة التي كان ذكرها ـ كما يقول ابن القلانسي (جائلاً في خلده، وأمرها ماثلاً في خاطره وقلبه)[٣] ـ وسرعان ما غدت ظروف الصليبيين في الشام ـ في أواخر الثلاثينيات ـ ملائمة إلى حد كبير لقيامه بهذه الخطوة. إذ اشتد النزاع بين ريموند أمير أنطاكية، وجوسلين الثاني أمير الرها، وانتهى

---

(١) الكامل ١١ ـ ٤٠، الباهر ص ٦٦ ـ ٦٧.

(٢) Stevenson: op.cit., 153.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ٢٧٩، وانظر: زبدة الحلب ٢ ـ ٢٧٨.

الأمر بمقاطعة أحدهما للآخر، وعدم نجدته لصاحبه في حالة تعرض إمارته لغزو خارجي، بل العكس، أصبح خطر كهذا مبعث ارتياح وتشفٍّ من قبل الآخر[١]. ومما زاد أمور الصليبيين سوءاً: وفاة فولك، ملك بيت المقدس، ومجيء بلدوين الثالث إلى العرش، وهو حديث السن، ضعيف الشخصية، الأمر الذي جعل الصليبيين لا يخضعون لإرادة مدبرة تستطيع أن تنهي ما قام بين جوسلين وريموند من حقد ونزاع، وتسعى إلى توحيد قواهم ضد محاولات المسلمين الاستيلاء على ممتلكاتهم[٢]. ولم تكن ميلزاند ـ الوصية على بلدوين ـ بالتي تهتم بأمر المصالح الصليبية العامة، بل اتصفت بتقلب الأهواء، ونسج المؤامرات[٣]، فضلاً عن انشغالها بصد هجمات الدمشقيين[٤]. هذا إلى أن التحالف القديم بين الصليبيين والإمبراطور البيزنطي كان قد انتهى عام ٥٣٧ هـ. وحل محله عداء شديد، وحروب دائمة بين الطرفين، بسبب أطماعهما الدائمة[٥]. وأخيراً جاءت وفاة الإمبراطور حنا كومنين لكي تخلص زنكي من عدو خطر لدود[٦].

وكانت ظروف الرها نفسها مساعدة هي الأخرى، إذ تميز أميرها جوسلين الثاني بضعف شخصيته. وانسياقه وراء العواطف والأهواء، وعدم امتلاكه دراية سياسية كافية[٧]. وكانت أمه أرمينية، فنشأ وفي نفسه ميل إلى الأرمن وغيرهم من طوائف المسيحيين الشرقيين الذين كان يفضلهم على المسيحيين الغربيين الأمر الذي سبب قلقاً بين فرسانه الصليبيين، وأوجد

(١) Runciiman: op.cit., 11/234-236.

(٢) عاشور: الحركة الصليبية ٢ ـ ٦٠٣ ـ ٦٠٤، Grousset: op.cit., 11/ 174-5.

(٣) Grousset: op.cit., 11/174-175.

(٤) Runciiman: op.cit., 11/235.

(٥) Runciiman: op.cit., 11/234.

(٦) Runciiman: op.cit., 11/235.

(٧) العريني: الحروب الصليبية ١ ـ ٥٢٣ ـ ٥٢٤، Grousset: op.cit., 11/176.

نوعاً من عدم الاستقرار داخل الرها[١]. هذا إلى أن موقع هذه الإمارة كان ملائماً لمهاجمة زنكي، بعد إذ أحاط بها المسلمون من كل مكان، وفصلها الفرات عن بقية الإمارات الصليبية في الشام.

استغل زنكي هذه الظروف، وسعى إلى تدبير خدعة تتيح له تحقيق هدفه من أقصر طريق، وكان يعلم أنه لن يستطيع أن ينال غرضه من الرها ما دام جوسلين وقواته موجودين فيها، وهكذا انصب اهتمامه على إيجاد وسيلة تدفع غريمه إلى مغادرة مقر إمارته. فاتجه إلى آمد، وأظهر أنه يعتزم حصارها، وأنها هدفه دون غيرها، وبث عيونه ـ في الوقت نفسه ـ في منطقة الرها ليطلعوه ـ أولاً بأول ـ على تحركات أميرها الذي ما أن رأى انهماك زنكي بحروبه في ديار بكر، وعدم تفرغه للهجوم على المواقع الصليبية، حتى غادر مقر إمارته على رأس قواته[٢]، بعد أن اتخذ إجراءً احتياطياً بأن عقد هدنة مع قرا أرسلان صاحب حصن كيفا؛ الذي كان قد التجأ إليه بعد تهديد زنكي لإمارته[٣]. ومن ثم اتجه إلى تل باشر الواقعة على الضفة الغربية للفرات، كي يتخلص ـ هناك ـ من كل مسؤولية، ويتفرغ لملذاته، تاركاً حماية الرها لأهاليها من الأرمن والسريان والنساطرة واليعاقبة، وكان معظمهم من التجار الذين لا خبرة لهم بشؤون الحرب والقتال، بينما تولى الجند المرتزقة مهمة الدفاع عن القلعة[٤].

وجاءت عيون زنكي لتطلعه على النبأ الذي كان يتحرق شوقاً إليه، فأسرع بالتوجه إلى الرها، مستعيناً (على السرعة بركوب النجائب والإبل)[٥]

(١) عاشور: الحركة الصليبية ٣ ـ ٦٠٤. Grousset : opÁ citÁ, 11 / 176

(٢) الكامل ١١ ـ ٤٠، الباهر ص ٦٧.

(٣) Gibb: op.cit., p.460, Runciman: op. cit., 11/235.

(٤) Ibid: 11/235, Grousset: op.cit., aa/ 168-177.

(٥) الباهر ص ٥٨، الروضتين ١ ـ ٩٥.

مستنفراً كل قادر على حمل السلاح من مسلمي المنطقة للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، وما لبث أن انهالت عليه جموع المتطوعين، فطوق بهم الرها من جهاتها الأربع. وحاول ـ في البدء ـ أن يتوسل بالطرق السلمية علها تحقق هدفه دون اضطرار إلى رفع السيف، فراسل أهالي الرها باذلاً لهم الأمان، طالباً منهم أن يفتحوا له الأبواب قبل أن يجد نفسه مضطراً إلى تدمير أسوار بلدهم، وإخلاء دياره، إلا أنهم أبوا قبول الأمان[١]. وحينئذ اشتد زنكي في التضييق على الحصن، مستخدماً آلات الحصار الضخمة التي جلبها معه لتدمير أسواره، قبل أن تتاح الفرصة لتجمع الصليبيين والتقدم لإنقاذ هذا الموقع الخطير، وأرسل جوسلين ـ لدى سماعه نبأ الهجوم ـ في طلب نجدة مستعجلة من كافة الإمارات الصليبية في الشام، فلم يستجب له سوى (ميلزاند) الوصية على بيت المقدس، التي وصلت نجدتها بعد فوات الأوان[٢]. كما أنه قام بمحاولة للدخول إلى المدينة، أو إرسال نجدة لتعزيز دفاعها، فحيل بينه وبين ذلك. وفي السادس والعشرين من جمادى الآخرة (٥٣٩ هـ). وبعد مرور ثمان وعشرين يوماً على بدء الحصار، انهارت بعض أجزاء الحصن، إثر الضرب المركز الشديد الذي تعرضت له، فاجتاحت قوات المسلمين المدينة[٣]، ثم ما لبثت القلعة أن استسلمت بعد يومين، وقام القس اليعقوبي برصوما بإجراءات تسليم الرها لزنكي[٤] الذي أصدر أوامره إلى جنده بإيقاف أعمال القتل والأسر والسلب، وإعادة ما استولوا عليه من سبي وغنائم، فأعيدوا (ولم يفقد إلا الشاذ النادر)[٥]، وأعقب ذلك

---

(١) الباهر ص ٦٩.

(٢) عاشور: الحركة الصليبية ٢ ـ ٦٠٥ ـ ٦٠٦.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠، الكامل ٤٠ ـ ٤١، الباهر ص ٩٦.

Runciiman: op.cit., 11/235-246, Cahen: La Syria du Nord, pp. 369-370, Gibb: op. cit., 11/236.

(٤) Runciiman: op.cit., 11/236.

(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠، الكامل ١١ ـ ٤٠ ـ ٤١، الباهر ص ٦٨ ـ ٦٩.

بإصدار أمر آخر بالإسراع في تنظيم ما اضطرب من أمور الرها، وتعمير ما تهدم خلال أسابيع طويلة من القتال، و (رتب من رآه أهلاً لتدبير أمرها، وحفظها، والاجتهاد في مصالحها، ووعد أهلها بإجمال السيرة، وبسط العدالة)[١]. مستهدفاً من وراء ذلك استمالة سكانها الأصليين من المسيحيين الشرقيين ضد الصليبيين الكاثوليك، الأمر الذي يؤكده قيامه بتدمير عدد من الكنائس الكاثوليكية، واحتفاظه بكنائس الشرقيين[٢].

حقق زنكي بفتح الرها أهم أعماله التي قام بها ضد الصليبيين طوال حكمه. وكان لهذا النصر نتائج هامة في العالمين الإسلامي والمسيحي[٣]. كما كان له نتائجه بالنسبة لزنكي وإمارته. فأما فيما يتعلق بالمسلمين بصورة عامة، فقد أعطاهم سقوط أولى الإمارات الصليبية أملاً جديداً[٤]، وعد نصراً عظيماً للإسلام (لم ينتفع المسلمون بمثله، وطار في الآفاق ذكره، وصار حديث المحافل)[٥]، إذ إنه أوضح مدى قدرة المسلمين على مجابهة القوى الصليبية، وانتزاع أقوى حصونهم منهم. كما أن هذا الانتصار مهد الطريق أمام الذين أعقبوا زنكي لإكمال عمله، وإسقاط بقية الإمارات الصليبية، واحدة تلو الأخرى. كما أدى إلى القضاء على الحواجز التي أقامها الصليبيون في هذه المنطقة، والتي أعاقت الاتصال بين سلاجقة آسيا الصغرى وسلاجقة العراق وبلاد فارس[٦].

وأما فيما يتعلق بالعالم المسيحي، فقد أثار سقوط الرها مخاوف المؤسسات الصليبية في أوربة، ونبههم إلى خطورة الأوضاع في الجزيرة

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠.

(٢) Runciiman: op.cit., 11/236-237.

(٣) Ibid: 11/237238 Gibb: op.cit., p461.

(٤) Runciiman: op.Cit, ll/238.

(٥) الباهر ص ٦٩ Gibb: op.cit., 461.

(٦) Runciiman: op.cit., 11/238.

والشام، وتحولها إلى اتجاه مضاد لمصالحهم وأهدافهم، لذلك نشطوا في الدعوة إلى حملة صليبية جديدة[١]، وصلت الشام بعد مقتل زنكي وتولي ابنه نور الدين زعامة المسلمين في الشام، وعرفت بالحملة الصليبية الثانية، كما أن سقوط هذا الموقع الهام، دفع ريموند، أمير أنطاكية، إلى الاعتقاد بعدم قدرته على مجابهة زنكي بمفرده، والذهاب ـ بالتالي ـ إلى القسطنطينية لإعلان تبعيته للإمبراطور البيزنطي (مانويل) الذي وعده بمساعدته ضد غريمه[٢].

فإذا ما انتقلنا إلى إمارة زنكي وجدنا كيف كان لسقوط الرها دور كبير في تخليصها من مصدر قريب للخطر، كان يهدد المنطقة دوماً بشن الغارات (فأصبح أهلها بعد الخوف آمنين)[٣]. كما أن هذا النصر مهد الطريق أمام زنكي للاستيلاء على الحصون الصليبية المجاورة، وفرض سيطرته التامة على ممتلكات أعدائه في المنطقة.

وفوق هذا وذاك حقق فتح الرها نتائج هامة بالنسبة لزنكي نفسه، إذ عزز مركزه تجاه السلطان السلجوقي، والخليفة العباسي الذي أنعم عليه بعدد كبير من الألقاب الشرفية كالأمير المظفر ركن الإسلام.. عمدة السلاطين.. زعيم جيوش المسلمين، ملك الأمراء، أمير العراقيين والشام[٤]. كما أن هذا النصر جعل من زنكي أمام المسلمين، والمدافع عن الدين، والمجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله[٥]. ودارت عن شخصه في المحافل أحاديث شتى، تصور لنا ـ رغم ما فيها من مبالغة ـ مدى التقدير والإعجاب اللذين نالهما

(١) رنسمان محاضرات عن الحروب الصليبية ٢٠٣، Runciiman: op.cit., 11/247.

(٢) Runciiman: op.cit., 11/238.

(٣) الباهر ص ٦٩، الروضتين ١ ـ ٩٧. Gibb: op. cit., p. 461.

(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤.

(٥) الكامل ١١ ـ ٤١، الباهر ص ٦٩ ـ ٧٠.

زنكي إثر تحقيقه هذا النصر الحاسم ضد الصليبيين. فقد ذكر والد المؤرخ المشهور ابن الأثير أن جماعة يطمأن إلى صدقهم وصلاحهم حكوا له أنهم رأوا يوم فتح الرها الشيخ أبا عبد الله بن علي بن مهران الفقيه الشافعي ـ وكان من العلماء العاملين، الزاهدين في الدنيا ـ خارجاً من زاويته تكسو وجهه علائم الاستبشار والسرور، وقال لهم: إن بعض إخوانه حدثوه أن زنكي فتح مدينة الرها، وأنه شهد معه فتحها يومنا هذا، ثم قال: ما يضرك يا زنكي بعد اليوم، وبقي يردد هذا القول مراراً، فضبطوا تاريخ ذلك اليوم فكان يوم الفتح!! ثم إن نفراً من الأجناد حضروا معه عند هذا الشيخ وقالوا له أنهم منذ رأوه يكبر على السور أيقنوا بالفتح، فأنكر الشيخ حضوره فأقسموا أنهم رأوه عياناً[1].

ويسرد لنا والد ابن الأثير رواية أخرى يقول فيها: إن أحد العلماء بالأخبار والأنساب، المتضلعين فيها، حدثه أنه كان لملك جزيرة صقلية الفرنجي عالم مسلم في أفراد حاشيته، وكان يكرمه ويرجع إلى قوله ويفضله على من عنده من الرهبان والقسيسين. فلما حان الوقت الذي فتحت فيه الرها، سير هذا الملك حملة بحرية إلى شمالي إفريقية أغارت على بعض مناطقها، ونهبت، وأسرت عدداً من أهاليها وجندها، ولما جاءت أخبار الحملة إلى الملك ـ وهو في مجلسه ـ أيقظ الشيخ ـ الذي كان قد أخذته سنة من النوم ـ وقال له: يا فقيه قد فعل أصحابنا بالمسلمين كذا وكذا، أين كان محمد عن نصرهم ؟ أجاب الشيخ: قد حضر فتح الرها!! فتضاحك من عند الملك من الفرنج، إلا أن الملك قال لهم: لا تضحكوا، فوالله ما قال عن غير علم. ومن ثم اشتد هذا الأمر على الملك، ولم يمض غير قليل حتى جاءهم الخبر بفتح الرها، فأنساهم فرحتهم الأولى في إفريقية، لما كان للرها من منزلة عالية عند النصرانية. ويستمر والد ابن الأثير في حديثه

(١) الباهر ص ٦٩ ـ ٧٠، الكامل ١١ ـ ٤٠ ـ ٤١، أبو شامة: الروضتين ١ ـ ٩٤ ـ ٩٧.

عن هذه المناسبة فيقول أن غير واحد ممن يثق بهم حكوا له أن رجلاً من الصالحين قال يوماً: رأيت الشهيد (زنكي) بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي!! فقلت: بماذا؟ قال: بفتح الرها...[١].

وبالرغم من أهمية الرها، وخطورة سقوطها على كيان الصليبيين في الشرق، إلا أن أياً منهم لم يقم بعمل سريع مباشر ضد زنكي بسبب تدهور أوضاعهم، إذ كان بلدوين الثالث، ملك بيت المقدس، لا يزال قاصراً تحت وصاية أمه، وكان ريموند، أمير أنطاكية، أضعف من أن يقوم بإجراء جاد ضد المسلمين[٢]. ومن ثم لم يستطع الصليبيون مجابهة المسلمين إلا بعد وصول الحملة الصليبية الثانية، وإعلان ريموند تبعيته للإمبراطور البيزنطي.

استغل زنكي فرصة سقوط الرها، واضطراب أمور الصليبيين في المنطقة، وأخذ يسعى إلى الاستيلاء على مراكزهم وحصونهم هناك، فاتجه إلى سروج التي تخلت حاميتها عنها مولية الفرار، واستولى عليها، وما لبثت الحصون المجاورة أن أخذت تسقط في يديه واحدة تلو الأخرى[٣]، (وجعل لا يمر بعمل من أعمالها، ولا معقل من معاقلها، إلا سلم إليه في الحال)[٤]. ثم يمم وجهه صوب قلعة البيرة الحصينة المطلة على الفرات، وكانت من أهم الحصون التي تبقت لجوسلين الثاني، وأشدها مناعة، ففرض الحصار عليها، وقطع عنها ما كان يصل إليها من (القوت والميرة والمعونة)، حتى أشرفت على الاستسلام. وحينذاك بلغ زنكي نبأ مقتل نائبه

---

(١) المصادر السابقة، نفس الصفحات.

(٢) عاشور: الحركة الصليبية ٢ ـ ٦٠٨ ـ ٦٠٩.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠، الكامل ١١ ـ ٤١، الباهر ص ٦٩، Gibb : op. cit., 461 Runciiman : op. cit., 11 / 237.

(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠.

في الموصل، فاضطر إلى فك الحصار والإسراع بالتوجه إلى مقر إمارته لإقرار الأوضاع فيها، إلا أن صليبيي الحصن خافوا من مهاجمته إياهم ثانية، فأرسلوا إلى حسام الدين تمرتاش الأرتقي، وأعلموه برغبتهم في التنازل له عن موقعهم هذا، قبل أن يسقط بيد عدوهم اللدود[١]. وهكذا فقد صليبيو الرها كافة حصونهم الواقعة شرقي الفرات[٢]، كنتيجة مباشرة لسقوط القاعدة الأم بيد زنكي، ولم يتبق لجوسلين من إمارته الواسعة سوى عدد من الحصون المنتشرة غربي الفرات كتل باشر ومرعش ودلوك وسميساط وعينتاب وعزاز[٣]، استطاع نور الدين محمود ـ فيما بعد ـ اكتساحها جميعاً، ومحو أولى الإمارات الصليبية من الوجود.

ما لبث سكان الرها من الأرمن أن دبروا ـ في العام التالي ـ مؤامرة استهدفت الفتك بالمسلمين، وإعادة المدينة إلى السيطرة الصليبية بعد القيام باستدعاء جوسلين. إلا أن زنكي سرعان ما تمكن من كشف هذه المحاولة الخطيرة، والقبض على مدبريها وإعدامهم، ثم أعقب ذلك بنفي عدد من الأرمن كيلا يتاح لهم مرة أخرى أن يسعوا إلى طعن المسلمين من الخلف، وتسليم أهم مواقعهم لقمة سائغة للغزاة الصليبيين[٤].

لم يقتصر زنكي، في قتاله للصليبيين، على الحروب النظامية فحسب، إذ كان ذلك يقتضي منه البقاء باستمرار في بلاد الشام، واستنفاد قواه في قتال أعدائه هؤلاء، وعدم تمكنه ـ بالتالي ـ من التفرغ لتصفية مشاكله العديدة في العراق والجزيرة، وأدرك أهمية الاستفادة من الغارات، أي الهجوم والانسحاب السريع، سيما في فترات غيابه عن الشام، وذلك أن هذا النوع

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٠، الكامل ١١ ـ ٤١ ـ ٤٢، الباهر ص ٧٠ ـ ٧١.

(٢) مفرج الكروب ١ ـ ٩٦.

(٣) Grousset : op. cit., 11 / 192

(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٢، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨١، Runciiman : op. cit., 11 / 238-9.

من القتال سيتيح له الحصول على نتائج هامة، أولها إقلاق الصليبيين وعدم إعطائهم المجال لإعادة تنظيم قواتهم، ورسم الخطط الهجومية على مواقع المسلمين في المنطقة، ومن ثم تمكين هؤلاء من الدفاع عن مراكزهم والاحتفاظ بها، وثانيها إضعاف قوى العدو العسكرية والاقتصادية، بما تحدثه ـ هذه الحروب ـ من قتل وأسر ونهب وتخريب، وثالث تلك النتائج قطع الاتصال بين المراكز الصليبية شمالي الشام، وعدم إعطائهم الفرصة للتجمع، وتوجيه ضربة موحدة ضد المسلمين.

وقد اعتمد زنكي في هذا النوع من القتال على محاربي التركمان، ومهد لذلك بتوثيق علاقاته بقادتهم وإسناد كبرى المناصب الحربية إليهم، ففي عام ٥٢٤ هـ وصل إلى حلب الأمير مسعود سوار بن أيتكين، أحد أمراء التركمان المحاربين، وكان قبلئذ في خدمة أمراء دمشق، إلا أن تدهور العلاقة بينه وبينهم دفعه إلى مغادرة بلدهم والتوجه للعمل تحت إمرة زنكي (فأكرمه ـ هذا ـ وشرفه، وخلع عليه، وأجرى له الإقطاعات الكثيرة، وأعطاه ولاية حلب وأعمالها، واعتمد عليه في قتال الفرنج. وكانت له بصيرة بالحرب وتدبير الأمور، كما كان ذا شجاعة وإقدام)[١]. وقد أفاد زنكي من قائد آخر يدعى (لجة التركي) ـ الذي كان قد نزح كسلفه عن دمشق ـ وجعله أحد قادته المعتمدين في قتال الصليبيين[٢]. وقام ـ فضلاً عن ذلك ـ بنقل طائفة من محاربي التركمان، مع أميرهم (الياروق) إلى الشام وأسكنهم منطقة حلب، بعد أن أمرهم بجهاد الصليبيين، مانحاً إياهم وعداً بتمليكهم كل ما استردوه من المواقع التي سيطر عليها الأعداء، (فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويراوحونهم، وأخذوا كثيراً من سواد حلب، وسدوا ذلك الثغر العظيم)[٣].

(١) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٤٥.
(٢) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٤٥.
(٣) الباهر ص ٨٠.

وبذلك وفر زنكي القيادة الحاذقة، والمحاربين الشجعان، للقيام بشن ما يطلق عليه اليوم حروب المقاومة والعصابات، وجعل من حلب مركزاً لهم نظراً لأهمية موقعها بالنسبة للحصون الصليبية والإسلامية على السواء؛ فهي تتوسط أنطاكية والرها الصليبيتين، وتسيطر على خطوط المواصلات بينهما، كما أنها تعد قاعدة عسكرية لتوجيه الهجمات السريعة ضد مواقع وتحركات الصليبيين، وقوافل إمدادهم وتموينهم.

وقد قامت هذه الجماعات من التركمان بشن غارات عديدة ضد جيوش الأعداء، ومعسكراتهم، وقوافلهم، ومراكز تجمعهم، ولم تخل سنة من سني الصراع بينهم وبين زنكي، من عدد من أعمال المقاومة وحروب العصابات كان يقوم بها هؤلاء التركمان، ويلحقون ـ بفضلها ـ خسائر مختلفة في صفوف أعدائهم. ففي رجب من عام ٥٢٤ هـ على سبيل المثال جهز زنكي قوة عسكرية أغارت على عزاز الصليبية، وعاثت في بلاد جوسلين أمير الرها[١]. وفي العام التالي حدث اشتباك بين سوار وجوسلين، شمالي حلب، أسفر عن انتصار الصليبيين ومقتل عدد من المسلمين، مما دفع سوار إلى القيام بهجوم على ربض الأثارب، والاستيلاء على مقادير من أمواله ومحاصيله[٢]. ثم ما لبث، بعد عام واحد (٥٢٦ هـ) أن أوقع بصليبيي تل باشر، وقتل منهم خلقاً كثيراً[٣].

لم يتوقف سوار وجنده التركمان عن شن الغارات ضد الصليبيين كلما أتيحت الفرصة لذلك، وشهد صفر من عام ٥٢٧ عدة اشتباكات بين الطرفين، وقع أحدها بالقرب من قنسرين، إثر قيام بلدوين ملك بيت المقدس بمحاولة للهجوم على أطراف حلب، حيث تصدى له سوار،

(١) مفرج الكروب ١ ـ ٤.
(٢) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٤٧.
(٣) المصدر السابق ٢ ـ ٢٥١.

وجماعة من جنده، وأسفر القتال عن هزيمة المسلمين وانسحابهم إلى حلب. إلا أن قائدهم الشجاع ما لبث أن خرج بهم ثانية (ووقع على طائفة منهم، فأوقع بهم وأكثر القتل والأسر، وانهزم من سلم منهم إلى بلادهم). وعاد إلى حلب حاملاً معه رؤوس القتلى والأسرى (وكان يوماً مشهوداً)[١]. ولم تمض سوى أيام قلائل حتى قام صليبيو الرها بمحاولة جديدة للإغارة على أعمال حلب، فخرج إليهم سوار يصحبه الأمير حسان البعلبكي أمير منبج، وأوقع بهم على حين غرة، وتمكن من إبادة عدد كبير منهم، وأسر الباقين، ثم قفل عائداً إلى حلب دون أن يصاب أحد من جنده بأذى[٢]. وفي جمادى الآخرة من نفس العام قام سوار، على رأس قوة من الفرسان، بالإغارة على تل باشر، فتصدى له صليبيو ذلك الموقع، إلا أنه تمكن من هزيمتهم، وحصد رؤوس ألف رجل، حملها معه إلى حلب[٣].

وفي ربيع الأول من العام التالي سار صاحب موقع القدموس الصليبي إلى قنسرين، على رأس قوة من فرسان أنطاكية، فلقيهم عسكر حلب بقيادة سوار وأسفر القتال عن انتصار الصليبيين، واضطرار قائد زنكي إلى مصالحتهم، إلا أنه ما لبث أن باغت إحدى سراياهم بهجوم سريع وتمكن من قتل معظم أفرادها، ثم قفل عائداً إلى حلب (فسر الناس بذلك بعد مساءتهم). ولم يمض سوى وقت قصير حتى أغار فرسان الرها على أطراف حلب الشمالية في طريقهم إلى إحدى المعسكرات الصليبية فأوقع بهم سوار وحليفه أمير منبج، وأباد عدداً كبيراً منهم، بينما وقع معظم الباقين في الأسر[٤]. ثم ما لبث سوار أن قام ـ في نفس العام ـ بغارة واسعة على

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١، الكامل ١٠ ـ ٢٦١.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٦، الكامل ١١ ـ ٣.

(٤) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٥٢، وانظر: Nicholson : op. cit., p. 437.

المواقع الصليبية في منطقة الجزر[١] وزردنا، وأوقع بأعدائه عند حارم، ثم عاد إلى حلب محملاً بالغنائم والأسلاب[٢].

أخذ نطاق الغارات والهجمات المفاجئة يتسع شيئاً فشيئاً، وشهد رجب من عام ٥٣٠ هـ محاولة واسعة قام بها سوار، إذ سار على رأس ثلاثة آلاف فارس من التركمان، وفاجأ بلاد اللاذقية وأعمالها بهجوم مباغت لم يكن الصليبيون يحسبون له أي حساب، وتمكن بذلك من أسر سبعة آلاف أسير، والحصول على مقادير كبيرة من الغنائم، واجتياح عشرات من القرى والمزارع الصليبية ملأ المسلمون أيديهم منها بالأسرى والغنائم. وقد استبشر مسلمو المنطقة أيما استبشار لهذا النصر الكبير الذي أحرزه سوار، والذي كان بالنسبة لصليبيي الشمال (نكبة لم يمنوا بمثلها)[٣]. والواقع أن ما شهدته أنطاكية، خلال عامي ٥٢٩ و ٥٣٠هـ، من فتن داخلية بسبب التنازع على الحكم، أسهم إلى حد كبير في عجز هذه الإمارة عن الدفاع عن نفسها إزاء هجمات المسلمين[٤]، الأمر الذي دفع قائدهم إلى استغلال الفرصة، وتحقيق نصر كبير ضد صليبيي الشمال.

وفي أواخر العام التالي قام سوار بهجوم مباغت ضد سرية بيزنطية كبيرة العدد، كانت تتقدم شرقاً، وتمكن من قتل وأسر عدد من أفرادها ثم قفل عائداً إلى مقره في حلب[٥]. ولم تمض سوى أشهر معدودات على هذا الهجوم حتى قام الصليبيون والبيزنطيون بإرسال قوات مشتركة لاحتلال قلعة الأثارب القريبة من حلب. وبعد أن حققت هذه القوات هدفها، أوكل إليها

---

(١) الجزر: إحدى كور حلب (ياقوت: معجم البلدان ٢ ـ ٧١) وانظر الخارطة رقم ٢.

(٢) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٥٤. Nicholson : op. cit., p. 437.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦، الكامل ١١ ـ ١٦ ـ ١٧، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٦٠ ـ ٢٦١. Gibb : op. cit., 458.

(٤) العريني: الحروب الصليبية ١ ـ ٥١٠، Grousset : op. cit., 11/65-66.

(٥) العظيمي: تاريخ، مخطوطة، ورقة ٢١١ ظ، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٦٣.

حراسة أسرى المسلمين الذين جمعوا في هذا الموقع. إلا أن سواراً ما لبث أن خرج على رأس قواته، وهاجم الحامية الصليبية البيزنطية، وتمكن من استخلاص معظم أسرى المسلمين من أيديهم، وعاد بهم إلى حلب التي عمها السرور، وسادتها الأفراح لهذا النصر الذي حققه أميرها[١].

وفي عام ٥٣٣ هـ هاجم سوار عدداً من المواقع الصليبية، واستولى على بعض الغنائم، إلا أن فرسان الصليبيين تمكنوا من اللحاق به وإنزال هزيمة بقواته أسفرت عن أسر ما يزيد عن ألف فارس منهم، وانسحب هو إلى حلب بمن سلم من جنده[٢].

استمرت المناوشات بين الطرفين طيلة السنين التالية، وأصابها بعض الفتور خلال عامي ٥٣٤ ـ ٥٣٥ هـ إثر فشل زنكي في الاستيلاء على دمشق، وتحالف الصليبيين والدمشقيين ضده، إلا أن هذه المناوشات ما لبثت أن استعرت من جديد في عام ٥٣٦ هـ والسنين التي تلته. ففي الأشهر الأولى من هذا العام قام الصليبيون بهجوم سريع ضد بعض المواقع الإسلامية غربي حلب، ولدى تفرقهم، أرسل سوار قوة من التركمان بقيادة ابنه علم الدين، أغارت على المواقع الصليبية، وتوغلت إلى أسوار أنطاكية، ثم عادت تحمل معها كثيراً من الغنائم والأسلاب[٣]. وبعد فترة قصيرة أغار لجة التركي على بعض المناطق الصليبية في الشمال (فساق وسبى وقتل، وذكر أن عدد القتلى بلغ سبعمئة رجل)[٤].

وفي رمضان من العام نفسه هاجم سوار معسكراً صليبياً عند جسر الحديد، إلى الشمال الشرقي من أنطاكية، بعد أن اجتاز بقواته نهر العاصي صوب

---

(١) العظيمي، ورقة ٢١٢ ظ، ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦، الكامل ١١ ـ ٢٣.

(٢) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٧١. Nicholson : op. cit., p. 441

(٣) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٧٥ Nicholson : op. cit., p. 444.

(٤) العظيمي: ورقة ٢١٥، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٧٥ Nicholson : op. cit., p. 444

تجمعات العدو، وتمكن من قتل معظم أفراد المعسكر، وأسر الباقين[١]. وما لبث أمير أنطاكية أن خرج ـ في العام التالي ـ للإغارة على وادي بزاعة القريب من حلب، فتصدى له سوار وأجبره على الانسحاب. وانتهز جوسلين الفرصة فقام بهجوم على تجمعات المسلمين عند ضفاف الفرات، وتمكن من أسر تسعمئة رجل منهم. ثم ارتأى الطرفان عقد هدنة بينهما لم يكن لأمير أنطاكية نصيب فيها[٢]. وهكذا ظل القتال مستمراً بين هذه الإمارة وقوات حلب، وعندما خرجت طائفة كبيرة من تجار أنطاكية ـ في جمادى الأولى من عام ٥٣٨ هـ ـ تحرسها قوة من الفرسان، في طريقها إلى بعض البلاد الصليبية المجاورة (ومعها مال كثير وأموال ومتاع)، باغتها المسلمون، وأوقعوا بها، وتمكنوا من إبادة كافة أفراد القوة التي خرجت لحمايتها، وغنموا ما كانت تحمله من بضائع قيمة[٣]. وفي أواخر ذي القعدة من العام نفسه هاجمت مجموعة من فرسان حلب قوة من الفرسان الصليبيين الخارجين من باسوطا وأبادوهم، وأسروا صاحب باسوطا حيث اعتقله سوار في حلب[٤].

❊ ❊ ❊

وقد حان الوقت ـ قبل الانتقال إلى البحث عن حياة زنكي وشخصيته ونظمه العسكرية والإدارية ـ لتحليل حصيلة الدور السياسي والعسكري الذي لعبه على مسرح التاريخ الإسلامي.

يمكن القول بأن زنكي استطاع أن يحقق قسطاً كبيراً من برنامجه، وأن يكون لنفسه مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي كسياسي بارع وعسكري

(١) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٧٦.
(٢) العظيمي: ورقة ٢١٥ ظ، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٧٧ Runciiman : op. cit., 11 / 234.
(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٨، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٧٧ ـ ٢٧٨.
(٤) العظيمي: ورقة ٢١٧ وزبدة الحلب ٢ ـ ٢٧٨.

متمكن، ومسلم واع أدرك الخطر الذي ألحق بالعالم الإسلامي من قبل الصليبيين. فقد استطاع أن يوجه (الظروف التاريخية القائمة) لصالح المسلمين، وذلك بتجميعه القوى الإسلامية، بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام، وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة في نطاق دولة واحدة استطاع بمقدرته أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه من إمكانات في سبيل تحقيق برنامجه المزدوج: أي تشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين.

وقد اتضح لنا ـ من خلال استعراض علاقة زنكي بالقوى الإسلامية كإمارات المدن والإمارات المحلية في الجزيرة والشام، والقبائل الكردية والتركمانية ـ مدى قدرته السياسية وبراعة خططه العسكرية خلال علاقاته السلمية والحربية مع هذه القوى المنبثة في المنطقة. فهو من الناحية الرسمية كان قد تسلم من السلطان السلجوقي (محمود بن محمد بن ملكشاه) عام ٥٢٢ هـ منشوراً يقر سلطته الشرعية على الموصل والجزيرة والشام، وقد تأكد هذا المنشور خلال الأعوام التالية. إلا أنه لم يكن كافياً لتثبيت سلطته الفعلية في هذه الفترة التي استطاع فيها عدد كبير من الأمراء أن يفرضوا سلطتهم على عدد لا يحصى من المدن والأقاليم، مستقلين إلى حد كبير عن السلطة السلجوقية، ومستفيدين ـ كما سبق ـ من مجموعة من العوامل الشخصية والسياسية والجغرافية والاقتصادية والبشرية.

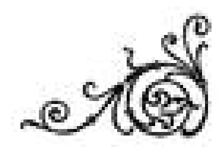
فكان لابد لزنكي إذاً، من إخضاع هذا العدد الكبير من السلطات المتمركزة في المنطقة، ومن اختيار أسلوب الهجوم، منذ البداية، بالرغم مما يحيق بهذا الأسلوب من أخطار، أولها: احتمال تشكيل حلف دفاعي مضاد من الأمراء المعادين، وقد يتحول هذا الحلف فيما بعد إلى حلف هجومي، كما حدث بالنسبة للأراتقة. وثاني تلك الأخطار: عدم وجود خط رجعة في حالة انكساره أو انسحابه أمام الأمراء المحليين الذين كانوا يحيطون به (إحاطة السوار بالمعصم). إلا أنه لم يأبه لهذه الأخطار، وراح

يهاجم الأمراء المحليين منذ البداية، دفعه إلى ذلك طموحه وشجاعته الشخصية، واطمئنانه إلى قاعدة شعبية وعسكرية تحبه وتخلص له لمواقفه السابقة تجاه الصليبيين، قبل أن يتولى الحكم في الموصل، كما ساعده على ذلك منشور السلطان، آنف الذكر، بتسلم الموصل والجزيرة والشام، وما كان يتضمنه من اعتراف بحرية زنكي في الاشتباك مع التشكيلات السياسية المحلية واكتساحها، والتوسل بأية وسيلة يراها مناسبة لتحقيق هذا الهدف.

لكن الأهم من ذلك كله ما تمتع به زنكي من مقدرة سياسية وعسكرية وما تميز به من نظر بعيد، ذلك أنه عرف ـ منذ البدء ـ أنه إذا ما سلك سبيل المسالمة والتودد تجاه الأمراء المحليين فإن حصونهم ومدنهم وإماراتهم ستظل تشكل عوامل خطر ضد إمارته، لقربها منها ولاستراتيجية مواقعها، إذ تشكل نقاط تسلط مرتفعة، انحدارها باتجاه الموصل، وخطوطها الخلفية، سلاسل جبلية وأنهار متشابكة وحصون منيعة. كما أن السياسة الانعزالية التي اتبعها أولئك الأمراء تجاه الخطر الصليبي المتقدم نحو الشرق، وما تبع ذلك من تشتيت لإمكانات المسلمين البشرية والعسكرية والاقتصادية، قد أدت إلى عجز هذه الإمارات عن الوقوف بوجه هذا الخطر الصليبي الزاحف، هذا في الوقت الذي كان على زنكي فيه أن يعمل على إزالة العقبات التي تقف أمام توحيد الإمارات المتفرقة، المبعثرة، في جبهة إسلامية موحدة تستطيع أن توقف الزحف الصليبي، ومن ثم تبدأ بالهجوم المنظم على قواعد الصليبيين، هذه هي العوامل التي دفعت زنكي إلى أتباع سياسة الهجوم، والتي تخللتها أحياناً علاقات سلمية ومعاهدات استدعتها طبيعة الظرف الذي كان يمر فيه، وفي نفس الوقت، عمل زنكي على تأمين حدود إمارته باتجاه الشرق والشمال الشرقي، حيث يشكل الأكراد والتركمان في هذه المناطق عناصر خطر بالغة ضد إمارته، لا سيما عند تأزم علاقاته بالإمارات الغربية، أو عند توغله بعيداً عن مقره في الموصل.

ومن ثم تبدو لنا واضحة أهمية الدور الذي لعبه زنكي في التاريخ الإسلامي، إذ يعتبر أول قائد قام بتجميع القوى الإسلامية وفق برنامج معين ليجابه بها تزايد الخطر الصليبي الذي لم توقفه المحاولات الجدية التي سبقت زنكي، وبخاصة تلك التي تمت على يد كل من (مودود بن التونتكين) (٥٠٢ ـ ٥٠٧ هـ) و(إيلغازي) و(بلك) الأرتقيين (٥١٢ ـ ٥١٨ هـ) و(آق سنقر البرسقي) (٥١٨ ـ هـ).

ومن المرجح أنه لو تمكن زنكي من فتح (دمشق) وإنجاز محاولته لتوحيد الشام، ولو لم يقتل ـ وهو في قمة انتصاراته ضد الصليبيين ـ لكان قد استطاع أن يستكمل الأجزاء المتبقية من برنامجه، ولتكاملت أمام الباحث الحديث الصورة الواضحة للدور الذي قام به في التاريخ الإسلامي، وهو دور فاصل، تتضح خطورته، إذا ما عرفنا أن نور الدين محمود، ومن بعده صلاح الدين، لم تكن جهودهما سوى إتمام للعمل الذي بدأه زنكي، وفي نفس الطريق.




الفصل الثامن
حياة عماد الدين زنكي وشخصيته

علاقاته العائلية:

لم يخلف آق سنقر، لدى مقتله عام ٤٨٧ هـ، غير ولد واحد هو عماد الدين زنكي، وكان عمره آنذاك عشر سنوات[١]. وقد ظل زنكي ـ طيلة سني شبابه ومسؤوليته ـ يحتفظ لوالده الراحل بأعمق المشاعر وأطيب الذكرى، وما أن استولى على حلب عام ٥٢٢ هـ ودخل قلعتها، حتى أخذ يبحث عن موضع مناسب لينقل إليه جثمان أبيه الذي كان مدفوناً على مرتفع يقع إلى الشرق من حلب. وقد أشار عليه بعض رجالاتها بنقله إلى مدرسة الزجاجين الشافعية، فنقل إلى هناك، ودفن في البيت الشمالي من المدرسة، والذي اتخذ مقبرة لآل زنكي، وأوقف الابن البار إحدى ضياع حلب، كي يصرف ريعها على المقرئين على قبر والده[٢]. ويبلغ من حب زنكي وتقديره لوالده أنه هجر إحدى زوجاته لكونها حفيدة قاتله السلطان تتش السلجوقي ؛ إذ كان قد تزوج من خاتون بنت رضوان بن تتش، وصادف ـ بعد مرور وقت قصير على ذلك ـ أن اطلع على الثوب الذي كان يلبسه أبوه حين قتله جدها تتش، وهو ملوث بالدم، فثارت ثائرته، وهجر زوجته، ثم ما لبث أن طلقها في نفس العام[٣].

(١) الباهر ص ١٥.

(٢) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٤٢ ـ ٢٤٣، ابن شداد: الأعلاق (القسم المنشور) ١ ـ ٩٧.

(٣) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٤٢ ـ ٢٤٥.

أما والدة زنكي فلم تشر المصادر إلى اسمها، ولم تقدم روايات ذات غناء عنها، وتكتفي بالإشارة إلى أنها توفيت بالموصل عام ٥٢٩ هـ[١]، ويبدو أنها أقامت مع ابنها هناك منذ انتقاله إلى الموصل بعد مقتل والده عام ٤٨٧ هـ. وعلى العكس، نجد أن موضوع زوجات زنكي قد حظي باهتمام عدد من المؤرخين، وأغلب الظن أن سبب ذلك يعود، بالدرجة الأولى، إلى العلاقة الوثيقة بين معظم عقود الزواج التي قام بها وبين أهدافه السياسية والعسكرية.

والمرأة الأولى التي تزوجها زنكي هي أرملة الأمير السلجوقي (كند غدي) أحد حكام فارس، وقد تم ذلك خلال ذهابه إلى أصفهان عام ٥١٨ هـ للالتحاق بحاشية السلطان محمود، فأراد هذا أن يكافئه على إخلاصه للسلاجقة، وما أداه ـ وأبوه ـ من خدمات جليلة لهم، فزوجه هذه الأرملة، وأورثه مخلفات زوجها الراحل، وجعله وصياً على ولده الصغير (خاصبك)[٢]. وجاء زواجه الثاني بالأميرة خاتون ابنة رضوان أمير حلب السابق، بعد سنتين من دخوله حلب، لكنه ما لبث أن هجرها ـ كما رأينا ـ بسبب حقده على جدها تتش قاتل أبيه، وقد توسطت خاتون لدى قاضي حلب، وشكت إليه هجر زنكي لها، لكن الوساطة لم تجد نفعاً، وانتهى الأمر بتطليقها في العام نفسه[٣]. ولعل زنكي قصد من هذا الزواج في البداية تثبيت ملكه في حلب، إذ أن خاتون هي ابنة أمير حلب السابق، ولذا تعتبر الوريثة الشرعية لحقوق أسرة آل تتش السلجوقية[٤].

بعد أربع سنوات تزوج زنكي ابنة صاحب خلاط التي تنتمي إلى آل سكمان القطبي حكام أرمينية، مستهدفاً من وراء ذلك توثيق علاقاته بهذه

---

(١) الباهر ص ٤٨.
(٢) الباهر ص ٢٧ ـ ٢٨، البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٩٢.
(٣) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٤٢ ـ ٢٤٥.
(٤) السيد الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية ١ ـ ٢٩٦.

العائلة الحاكمة[١]، ولذا حظيت (خاتون السكمانية) بمزيد من الرعاية، وكلفت بالإشراف على تربية الأمير السلجوقي الخفاجي ابن السلطان محمود المقيم في الموصل[٢]. ثم جاء زواج زنكي الرابع بابنة جناح الدولة حسين[٣] عام ٥٣١ هـ[٤]، ولم تشر المصادر إلى ظروف هذا الزواج وأسبابه. ولم يمض عام واحد حتى تزوج بزمرد خاتون أم إسماعيل بن بوري حاكم دمشق، وقد أحاطت هذا الزواج ـ كما مر بنا ـ ظروف سياسية وعسكرية بحتة إذ كان جزءاً من بنود الاتفاقية التي عقدت بينه وبين حكام دمشق[٥]. وقد اتخذت زمرد مدينة حلب مقراً لها، وبقيت مع زوجها حتى مقتله، حيث عادت إلى دمشق وأقامت بها. وكانت متدينة شغوفة بدراسة الحديث، وحفظ القرآن الكريم، وبناء المدارس، وقد استقرت ـ في أواخر حياتها ـ بالمدينة المنورة حيث عاشت عيشة بسيطة، وتوفيت هناك[٦].

وفي مطلع عام ٥٣٤ هـ قام زنكي بزواجه التالي، إثر استيلائه على بعلبك، من جارية كانت مقيمة هناك لمعين الدين أنر حاكم دمشق. وقد ظلت هذه الزوجة الجديدة مع زنكي حتى مقتله، حيث أعادها ابنه نور الدين محمود إلى أنر الذي كان يحبها حباً شديداً، وقد أدى ذلك إلى توثيق العلاقات بين الحاكمين[٧]. ثم جاء آخر زواج لزنكي عام ٥٣٤ هـ، من صفية خاتون ابنة حسام الدين تمرتاش الأرتقي، إثر اتفاقية الصلح التي

---

(١) ابن منقذ: الاعتبار ص ٨٨ ـ ٨٩، وانظر الفصل الرابع.

(٢) تاريخ دولة السلجوق ص ١٠٦.

(٣) كان جناح الدولة أتابكاً لرضوان بن تتش السلجوقي، أمير حلب السابق: (ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٣)

(٤) العظيمي: تاريخ، مخطوطة، ورقة ١١ ظ.

(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧، الكامل ١١ ـ ٢٣، وانظر الفصل السادس.

(٦) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٤٢، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢ ـ ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٧) الكامل ١١ ـ ٢٩، مفرج الكروب ١ ـ ٨٦.

عقدت بين الطرفين في العام السابق، وتقرر بموجبها تزويج أمير الموصل بابنة حاكم ديار بكر[١].

وهكذا يبدو واضحاً أن زنكي كان يعتمد رابطة الزواج لتحقيق بعض أهدافه السياسية والعسكرية، وأنه تمكن ـ عن هذا الطريق ـ من توثيق علاقاته بعدد من الحكام والأمراء، الأمر الذي ساعده إلى حد كبير في تنفيذ خططه الرامية إلى توحيد القوى الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبي.

أنجب زنكي من زوجاته تلك أربعة بنين وابنة واحدة ؛ أما البنين فهم: سيف الدين غازي، ونور الدين محمود، ونصرة الدين أميران، وقطب الدين مودود[٢]؛ وأما البنت فلم تذكر المصادر اسمها[٣]، ويرد ذكرها في أحداث عام ٥٣٢ هـ حينما تم الاتفاق بين زنكي وحكام دمشق، وكان من بنوده أن يتزوج شهاب الدين محمود ابنة أمير الموصل هذه[٤].

خصص زنكي لتربية أولاده علياً بن منصور السروجي، وكان أديباً شاعراً خطاطاً[٥]. وعندما كبر سيف الدين غازي أرسله أبوه لخدمة السلطان مسعود، فتلقاه بالحفاوة والتقدير، ورتب في خدمته عشرة من الحراس[٦]. وقد بقي سيف الدين هناك حتى قبيل مقتل أبيه بوقت قصير، بدليل حادثة عام ٥٣٨ هـ، تلك التي استغل زنكي فيها وجود ابنه في حاشية السلطان لإبعاد الأخير عن غزو الموصل[٧]. أما نور الدين محمود فقد نشأ تحت

---

(١) الفارقي: تاريخ آمد (مخطوطة)، ورقة ١٢١ ب ـ ١٢٢ م.

(٢) الباهر ص ٧٦، ونقل عنه أبو شامة: الروضتين ١ ـ ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٣) المصدران السابقان، نفس الصفحات.

(٤) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

(٥) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨ ـ ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

(٦) الباهر ص ٩٧.

(٧) انظر الفصل الثاني.

رعاية والده، وتعلم القرآن الكريم والفروسية والرمي[١]، ولما جاوز صباه لزم خدمة أبيه حتى مقتله[٢]. وهكذا كان زنكي يعد أولاده لتحمل المسؤوليات الإدارية والعسكرية في المستقبل. وما يقال عن غازي ومحمود يمكن أن يقال عن ابنيه الآخرين أميران ومودود.

صفاته:

كان زنكي حسن الصورة، أسمر اللون، مليح العينين[٣]، معتدل الطول[٤]، وخط الشيب رأسه في سني حكمه الأخيرة[٥]، وكان ذا شخصية قوية، شديد الهيبة على رعيته وجنده[٦]، جاداً في معظم الأحيان، الجد الصارم الذي كان يمنعه من الاستسلام للراحة أو الترف، ويدفعه إلى مواصلة كفاحه من أجل أهدافه، ويجعل (أصوات السلاح الذي في سمعه من غناء القينات)[٧]!! أما شجاعته وإقدامه (فإليه النهاية فيهما، وبه كان يضرب المثل)، وقد ظهرت شجاعته الفذة هذه في كثير من الحروب التي اشترك فيها، قبل توليته الموصل وبعدها[٨]، وكان (لا يقدر أحد على مساواته ـ أي مضاهاته ـ في الحرب)[٩].

كما كان ذا دهاء ومكر وحيلة، وذكاء نافذ في مجابهة المشاكل الحربية والسياسية، وقد مكنه ذلك من اجتياز كثير من الصعوبات، وتحقيق مزيد من

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢ ـ ٢٧٧ ـ ٢٧٨.
(٢) الروضتين ١ ـ ١١٩.
(٣) الكامل ١١ ـ ٤٥، الباهر ص ٧٦.
(٤) الباهر ص ٧٦، الروضتين ١ ـ ١٠٨.
(٥) الكامل ١١ ـ ٤٥، الباهر ص ٧٦.
(٦) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٩٠ ـ ٢٩١، مفرج الكروب ١ ـ ١٠٠ ـ ١٠١. وانظر الباهر ص ٨١ ـ ٨٢، والروضتين ١ ـ ١١٣ ـ ١١٤.
(٧) الباهر ص ٥٨، وانظر المصدر نفسه ص ٤٧، ٨١.
(٨) الكامل ١١ ـ ٤٥ ـ ٤٦، الباهر ص ٨٠ ـ ٨١.
(٩) الباهر ص ٨١، ونقل عنه ابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ٩٣ ـ ٩٤.

الانتصارات، ونحن لا زلنا نذكر مناورته البارعة ضد التحالف البيزنطي ـ الصليبي عام ٥٣٢ هـ، عندما أرسل إلى قادته يقول: (إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، وتكون الغلبة لأحد الطرفين)، فظن الروم والصليبيون أن وراءه قوات ضخمة أتاحت له أن يطرح تحديه، فتجنبوا لقاءه، وهو ما كان زنكي يرجوه. ثم راح ـ بعد هذا ـ يراسل إمبراطور الروم ويوهمه أن الصليبيين متفقون مع المسلمين سراً، وبالعكس، واستطاع بذلك أن يبذر الانشقاق في الجبهة المسيحية مما اضطر قواتها إلى الانسحاب[1]. كما لا زلنا نذكر مناورته إزاء محاولة السلطان مسعود غزو الموصل[2]. هذا إلى أنه فتح الرها، وهو أكبر نصر حققه في حياته، معتمداً على الحيلة والمكر، إذ اتجه إلى آمد موهماً الصليبيين أنه يسعى لحصارها، وما أن رحل أمير الرها عن حاضرته مطمئناً إلى انهماك زنكي بمشاكله في دياربكر، حتى انقض الأخير عليها وتمكن من اجتياحها[3]. وغير هذه وتلك من الأحداث والوقائع التي تؤكد ما كان زنكي يتمتع به من مقدرة عسكرية وسياسية فذة.

غدا زنكي، بفضل ما كان يتميز به من صفات، أتينا على جانب منها، واثقاً بنفسه، معتداً بها، معتقداً بإمكانيته على تذليل كل صعوبة، مترفعاً عن أداء المهمات الثانوية، منزلاً غضبه بمعارضي أهدافه. فعندما تقدم لخطبة ابنة صاحب خلاط ـ على سبيل المثال ـ ثم سمع أن أمير بدليس خطبها هو الآخر، تملكه الغضب، وانطلق على رأس جيشه صوب خلاط، وأشرف على كتابة المهر بنفسه، ثم حاول القيام من هناك بحملة تأديبية ضد أمير بدليس، لولا معارضة حاجبه الياغسياني وجهوده من أجل الصلح[4]. وعندما تظاهر جنده ـ مرة ـ بسبب

---

(١) الكامل ١١ ـ ٢٣ ـ ٢٤، الباهر ص ٥٥ ـ ٥٦، وانظر الفصل السابع.

(٢) انظر الفصل الثاني.

(٣) الكامل ١١ ـ ٤٠ ـ ٤١، الباهر ص ٦٧ ـ ٦٨.

(٤) ابن منقذ: الاعتبار ص ٨٨ ـ ٨٩.

تأخر صرف رواتبهم، شدد لومه لموظفي الديوان لعدم قيامهم بواجبهم (وعظم نفسه عن أن يخاطب في هذا الأمر الحقير)[١]. وفي عام ٥٣٧ هـ، حينما هدم الأكراد أحد حصونهم، لعجزهم عن حمايته، أعلن (أنه إذا عجز الأكراد عن هذا الحصن، فأنا لا أعجز عنه) وأمر ببنائه (وكان ذا عزم ونفاذ أمر)[٢].

وكان زنكي يشعر بمسؤوليته كمسلم سواء في سياسته وعلاقاته العامة، أم في سلوكه الشخصي. فقد كرس حياته وطاقاته في سبيل (الجهاد) ضد الصليبيين[٣]، والجهاد، كما قال عنه العماد الأصفهاني (أفضل أركان العبادة)[٤]، واعتبر نفسه قائد المسلمين الأول في الوقوف بوجه الخطر الصليبي، معتقداً أن مركزه ـ كأقوى أمير في المنطقة ـ يحتم عليه ذلك. ولعل موقفه من التحالف البيزنطي الصليبي ضد المسلمين عام ٥٣٢ هـ يوضح طبيعة نظرته في هذا المجال. فعندما قرر الاستنجاد بالسلطان السلجوقي، واعترض قاضيه بأن ذلك ربما أدى إلى تمهيد الطريق أمام سيطرة السلاجقة على بلاده، رد قائلاً: (إن هذا العدو قد طمع في البلاد، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار)[٥]. وكان كلما قرر التوجه لقتال الصليبيين استثار في المسلمين تعشقهم للجهاد، ففي عام ٥٢٤ هـ ـ على سبيل المثال ـ اتجه إلى الشام (وصمم العزم على الجهاد. . . وإعلاء كلمة الله)[٦]، وفي عام ٥٣٢ هـ سار إلى بعرين الخاضعة للصليبيين (وجمع عساكره وحثهم على الجهاد)[٧]،

(١) الباهر ص ٨٣.
(٢) المصدر السابق ص ٦٤.
(٣) انظر فصل (زنكي والصليبيون).
(٤) تاريخ دولة السلجوق ص ١٨٦.
(٥) المصدر السابق ص ٦٢.
(٦) المصدر السابق ص ٣٩.
(٧) الباهر ص ٥٩.

وعندما عزم على فتح الرها عام ٥٣٩ هـ (تبعته العساكر.. عازمين على أن يؤدوا فريضة الجهاد)[(١)]. ولقد لاقى فتحه للرها استبشاراً عاماً لدى المسلمين في كل مكان (فامتلأت بذكره المحافل في الآفاق) واعتبروه نصراً حاسماً للإسلام ضد الصليبية[(٢)]. ومن ثم فإن مفهوم الجهاد خلع على زنكي صفة إسلامية في نظر المسلمين، إلى الحد الذي دفع العماد الأصفهاني إلى القول (بأنه كان قطباً يدور عليه فلك الإسلام)[(٣)]، كما ذكر رنسيمان أن زنكي اعتبر نفسه (حامي الإسلام) ضد الصليبيين[(٤)].

وتتضح نزعة زنكي الدينية في سياسته الداخلية وفي سلوكه الشخصي كذلك ؛ وهناك العديد من الأمثلة التي تبين إلى أي مدى بلغ الحس الديني لدى هذا الأمير المسؤول، فعندما قام عام ٥٣٤ ـ على سبيل المثال ـ بتولية هبة الله بن أبي جرادة قضاء حلب قال له: (هذا الأمر قد نزعته من عنقي، وقلدتك إياه، فينبغي أن تتقي الله)[(٥)]. وكان يتصدق كل جمعة بمئة دينار جهراً، ويتصدق فيما عداها من الأيام سراً[(٦)]. كما كان يستفتي الفقهاء والقضاة قبل إقدامه على كثير من الأعمال[(٧)]، وقد أقام الحدود الشرعية في أنحاء بلاده[(٨)]. (وكان شديد الغيرة على الحريم، لا سيما نساء الأجناد، فإن التعرض إليهن كان من الذنوب التي لا يغفرها. وكان يقول: إن جندي لا يفارقوني في أسفاري، وما يقيمون عند أهاليهم ؛ فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن)، حتى إنه أقال ـ يوماً ـ أحد عماله،

---

(١) المصدر السابق ص ٦٧ ـ ٦٨، وانظر ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩.
(٢) الباهر ص ٦٩ ـ ٧٠، وانظر فصل (زنكي والصليبيون).
(٣) تاريخ دولة السلجوق ص ١٨٥.
(٤) Runciman : op. cit., 11 / 182, Lane pool : Mohammadan Dynasties, p. 162.
(٥) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٧٤ ـ ٢٧٥.
(٦) الباهر ص ٨١.
(٧) مفرج الكروب ١ ـ ٤١ ـ ٤٢.
(٨) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨٤.

وجرده من الأموال، بسبب تعرضه لبعض نساء البلد الذي يشرف عليه[١].
ولا ريب أن عمق الحس الديني لدى زنكي هو الذي دفعه إلى أن يكون (قليل التلون والتنقل، بطيء الملل والتغير ؛ لم يتغير على أحد من أصحابه، مذ ملك إلى أن قتل، إلا بذنب يوجب التغير)[٢]. وعندما قبض على دبيس بن صدقة، أمير الحلة، عام ٥٢٦ هـ، أكرمه وأحسن إليه، رغم المحاولات التي كان الأخير قد قام بها ضده[٣].

غير أن عدداً من المؤرخين يأخذون على زنكي لجوءه إلى الغدر والظلم إزاء أعدائه في بعض الأحيان، فيصفه الأصفهاني بأنه كان شديداً جباراً عنيفاً، وأنه كان يبلغ في ذلك حد الظلم[٤]، ويصفه الذهبي بالظلم والزعارة[٥]، ويذكر أسامة بن منقذ كيف كان زنكي أحياناً يسكت عن الأساليب القاسية التي اتبعها أحياناً بعض كبار موظفيه أمثال الياغسياني حاجبه[٦]، ونصير الدين جقر نائبه في الموصل[٧]. ويحمل ابن واصل عليه ـ لدى استعراضه أحداث الهجوم على حماة عام ٥٢٤ هـ ـ قائلاً: (وارتكب أمراً قبيحاً أنكره الناس عليه، ولا شيء أقبح من الغدر، ولما عزم على تلك الفعلة الشنعاء[٨]، استفتى الفقهاء في ذلك، فأفتاه من لا دين له، وجوز له ما لا يحل ولا يحسن شرعاً وعرفاً)[٩].

---

(١) الكامل ١١ ـ ٤٥، الباهر ص ٨٤.

(٢) الباهر ص ٨٢.

(٣) الكامل ١٠ ـ ٢٥٥، الباهر ص ٤٦.

(٤) تاريخ دولة السلجوق ص ١٨٦.

(٥) العبر في خبر من غبر ٤ ـ ١١٢.

(٦) الاعتبار ص ١٥٧.

(٧) انظر: الكامل ١١ ـ ٦.

(٨) انظر ما يلي من الفصل.

(٩) مفرج الكروب ١ ـ ٤١ ـ ٤٢. ولا بد من أن نلاحظ التطرف الذي يسود أحكام عدد من المؤرخين عن بعض مواقف زنكي، فبينما يحاول ابن الأثير في (الباهر) الذي ألفه للملك
=

ولنا ـ بعد هذا ـ أن نناقش بعض مواقف زنكي التي دفعت أولئك المؤرخين إلى إطلاق صفات الظلم والغدر عليه، ولا ريب أن هجومه على حماة عام ٥٢٤ يقف على رأسها، وذلك عندما طلب من حكام دمشق مساعدته ضد الصليبيين، فلما أمده صاحبها بابنه سونج ـ أمير حماة ـ على رأس قوة من الفرسان، قبض عليه واعتقله وعدد كبير من أمرائه وقواده، كي يمهد الطريق للاستيلاء على حماة، ثم ما لبث أن قبض بعد قليل على حليفه خيرخان بن قراجا صاحب حمص وهاجم بلده[١]. وينفرد ابن العديم بالقول بأن زنكي أخذ يعذب خيرخان أمام أبنائه كي يلجئهم إلى تسليم القلعة، بينما لا تشير بقية المصادر إلى ذلك، مما يضع روايته موضع الشك، خاصة وأنه يوردها في سياق الحديث عن غدر خيرخان بسونج (وعقاب الله له ببعض ظلمه في الدنيا)[٢]. مما يشبه السرد القصصي.

ولعل ما يبرر لزنكي موقفه هذا إزاء أمراء الشام، محاولته الجادة لكسب الوقت، وتوحيد العدد الأكبر من المدن ذات الحكم الذاتي هناك من أجل الإسراع بتشكيل الجبهة الإسلامية الموحدة للوقوف بوجه الخطر الصليبي، بعد أن أدرك عدم إمكان تحقيق نصر حاسم ضدهم في حالة تمزق بلاد الشام إلى إمارات عديدة متطاحنة، فكان لا بد من الخدعة سيما وأنها في حالة كهذه توفر على المسلمين كثيراً من الجهود والدماء، لذا نجد زنكي يستفتي الفقهاء قبل أن يقدم على فعلته هذه.

وشبيه بهذا الحيلة الطريفة التي مكنته عام ٥٢٩ هـ من الاستيلاء على الرقة[٣]، دون سفك قطرة دم واحدة. وهل الحرب ضد الأمراء الذين نسوا

= القاهر أحد أحفاد زنكي، أن يسكت عنها، نجد مؤرخين آخرين كابن واصل والأصفهاني يدفعهم ميلهم للأيوبيين ضد أتابكة الموصل، إلى وصفها وتجسيدها بنوع من المبالغة.

(١) انظر التفاصيل في الفصل السادس.

(٢) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٤٦.

(٣) انظر التفاصيل في الفصل الثالث.

وحدة الأمة ومصالحها الحيوية، إلا خداعهم والكيد لهم ؟ أما إعدامه بعض أمراء بعلبك إثر استيلائه عليها بعد قتال عنيف عام ٥٣٤ هـ، فقد جاء نتيجة نقضهم بعض الشروط التي تم الاتفاق عليها قبيل مغادرتهم القلعة[١]، ولعل هذه الحادثة هي أبرز ما دفع المؤرخين إلى وصف زنكي بالقسوة والغدر، وقد أشار ابن الأثير ـ في الكامل ـ إلى ذلك بقوله: (واستقبح الناس ذلك من فعله، واستعظموه، وخافه غيرهم)[٢]. لكن زنكي سرعان ما سعى إلى التعويض عن خطئه هذا، وذلك بإصداره العفو عن العدد الأكبر من المحكوم عليهم بالإعدام، وتولية بعلبك لنجم الدين أيوب، وهو الذي بذل جهوداً مشكورة في التوسط لهؤلاء الأمراء والدفاع عنهم[٣].

وفي حصار زنكي لقلعة جعبر عام ٥٤١ هـ، جرت مفاوضات بين الطرفين وافق فيها على تسلم مبلغ ثلاثين ألف دينار مقابل فك الحصار عن القلعة. وما أن وصله الرسول حاملاً المبلغ المتفق عليه حتى رده من حيث جاء، بعد أن وردته أنباء تشير إلى أن القلعة قد أوشكت على السقوط[٤]، وهو موقف يبرره تماماً حرصه على وحدة الجبهة الإسلامية إزاء أنانيات الأمراء الصغار، وأطماعهم الذاتية.

أما ما أورده ابن العديم من أن زنكي كان يقول: (ما يتفق أن يكون أكثر من ظالم واحد ـ قاصداً نفسه ـ)[٥]، فإنه لا يعني سوى عزمه على اتباع نظام المركزية في الإدارة، وتركيز السلطة بيد المسؤول الأعلى.

(١) انظر: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠، الكامل ١١ ـ ٢٩، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٧٣.
(٢) الكامل ١١ ـ ٢٩.
(٣) الروضتين ١ ـ ٨٦ ـ ٨٧.
(٤) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨٢ ـ ٢٨٣.
(٥) المصدر السابق ٢ ـ ٢٨٤، وانظر فصل (النظم الإدارية).

هواياته:

كان طبع زنكي الحاد، وعمله المتواصل من أجل تحقيق أهدافه السياسية والعسكرية، يستنفدان الكثير من وقته، ولا يتيحان له من الفراغ للراحة والتمتع إلا القليل القليل. وفي هذه الفترات المتباعدة، من التحرر من قيود العمل والمسؤولية، كان زنكي يسعى للترفيه عن نفسه، وممارسة هواياته المفضلة التي كان الصيد والطراد أبرزها وأقربها إلى طبيعته الجادة.

ويحدثنا ابن منقذ عن الجولات التي قام بها مع أمير الموصل، وعن أنواع الصيد ووسائله وحيله، ولنستمع إليه (شاهدت زنكي يوماً، وكانت له الجوارح الكثيرة، ونحن نسير على الأنهار. فيتقدم البازداريه[1] بالبزاة ويطلقونها على طيور الماء، وتدق الطبول كجاري العادة، فتصيد ـ من طيور الماء ـ ما تصيد، وتخطئ ما تخطئ، ووراءهم الشواهيق الجبلية على أيدي البازداريه، فإذا أخطأت البزاة أرسلوا الشواهين على الطيور)[2]. ويستطرد ابن منقذ قائلاً: (وشاهدته يوماً ونحن بظاهر الموصل.. وبين يديه بازدار على يده باشق، فطار ذكر دراج[3]، فأرسله عليه، فأخذه ونزل. فلما صار في الأرض ـ تمكن من الإفلات ـ فلما ارتفع لحقه الباز وأخذه ونزل به وقد ثبته)[4]. ثم يمضي ابن منقذ يقص علينا وجوهاً أخرى من الصيد، الذي كان يألفه زنكي ويهواه، فيقول: (ورأيت زنكي وهو في صيد الوحش مراراً عديدة. فإذا ما نصبت الحلقة، واجتمعت الوحوش داخلها ـ ثم حاولت الخروج ـ رموها. وكان زنكي من أرمى الناس، فكان إذا دنا منه الغزال، رماه، فنراه كأنه قد عثر، فيقع ويذبح. وشاهدته وقد أقيمت الحلقة،

---

(١) البازدارية: هم حملة البزاة بين يدي الأمراء.

(٢) الاعتبار ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٣) الدراج: طير من فصيلة الدجاج.

(٤) الاعتبار ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

ونحن في أرض نصيبين على الهرماس[١]. وقد ضربوا الخيام، فوصل الوحش إلى الخيام، فخرج الغلمان بالعصي والعمد فضربوا منها شيئاً كثيراً.. وشاهدته يوماً ونحن بسنجار، وقد جاءه فارس من أصحابه فقال: هاهنا ضبعة نائمة !! فسار زنكي، ونحن معه، إلى واد هناك، والضبعة نائمة على صخرة في سفحه، فترجل ومشى حتى وقف مقابلها وضربها بنشابه، فوقعت أسفل الوادي، فنزلوا وجاؤوا بها بين يديه وهي ميتة)[٢] وكان الملوك والأمراء، إذا أرادوا التقرب إلى زنكي وكسب وده، قدموا له هدايا مما اصطادوه من طيور وحيوانات شتى، وكان يرد عليهم ـ بدوره ـ بهدايا مما جنته يداه في جولات الصيد والطراد فهوداً وبزاة وصقوراً[٣].

ولم يكن تعشق زنكي لسباق الخيل ومهارات الفروسية بأقل من تعشقه للصيد والطراد، فهذه هواية تصدر هي الأخرى عن الطبع الجاد والرغبة في قضاء أوقات الفراغ بما هو مجد في عصر كانت الفروسية فيه شارته الأولى. ويحدثنا ابن منقذ، رائد الفروسية الإسلامية في عهده، كيف كان زنكي يلح عليه في أن يتنازل له عن فرسه (الفرنجي) لأنه كان السباق دائماً، وكيف اضطر أخيراً إلى إهدائه إياه، وهو العزيز على قلبه، الأثير لديه[٤].

وفي فترات أخرى من فترات الفراغ المتباعدة، كان زنكي يروح عن نفسه بالقيام منفرداً برحلات هادئة في نهر دجلة، متخففاً من أعباء ومهام إمارة شاسعة الأطراف، يتربص بها الأعداء من كل جانب[٥]. وربما استمع

---

(١) الهرماس: أحد روافد خابور الفرات.

(٢) الاعتبار ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٣) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٦٣.

(٤) الاعتبار ص ٤٦.

(٥) الباهر ص ٨٢، ونقل عنه أبو شامة: الروضتين ١ ـ ١١٤.

في رحلاته تلك إلى الغناء الهادئ الحزين الذي كان يحبه ويألفه أشد الألفة[١]. وقريب من الغناء الشعر، أو هو الغناء بعينه، لما كان يستثيره من وجدان زنكي وأحاسيسه، وكثيراً ما كان الشعراء يقصدونه لينشدوه أشعارهم في المناسبات[٢]. وقد بلغ من تأثره بالشعر والغناء، أنه سمع ليلة، وهو نازل بحماة، شخصاً يغني على شط العاصي:

اعـدلـوا !! مـا دام أمـركـم نـافـذاً فـي الـنـفـع والـضـرر

واحـفـظـوا أيـام دولـتـكـم أنـكـم مـنـهـا عـلـى خـطـر !!

(فبكى، وتبدلت نيته في الظلم، وأخذ نفسه ـ من حينئذ ـ بالعدل[٣]) !! وما كان زنكي ليتذوق الشعر والغناء، ويتأثر بهما، لو لم يكن قد أتقن العربية خير إتقان، وأدرك آدابها الفذة وجمالها المعجز. وكان ـ بطبيعة الحال ـ يتقن التركية، لغته الأصلية، كذلك، ويتكلم بها في كثير من الأحيان، سيما لدى تحدثه إلى بعض جنده أو مماليكه الذين لم يكونوا قد أجادوا العربية إجادة تامة. وربما استغل معرفته باللغتين، فتكلم بالتركية حول بعض الأمور والمهام الرسمية، كيلا يعرف بعض الحاضرين حقيقة ما يدور، وكذلك كان يفعل كبار موظفيه[٤].

مقتله ٥٤١ هـ:

تجمع المصادر على أن زنكي اغتيل ليلة الخامس من ربيع الآخر عام ٥٤١ هـ خلال حصاره لقلعة جعبر، عندما انقض عليه ـ وهو نائم ـ غلام (أو عدة غلمان) من مماليكه المقربين اللذين كانوا يقومون على حراسته أثناء نومه، وأنهم هربوا ـ بعد قتله ـ إلى القلعة، ونادوا أصحابها بحقيقة الأمر

---

(١) ابن الوردي: تاريخ ٢ ـ ٤٦ ـ ٤٧.

(٢) الكامل ١١ ـ ٢٤ ـ ٢٥، الباهر ص ٥٦ ـ ٥٧.

(٣) مفرج الكروب ١ ـ ١٠٠ ـ ١٠١.

(٤) ابن منقذ: الاعتبار ص ١٥١.

ففتحوا لهم الأبواب، وأنه ما أن انتشر نبأ الاغتيال في معسكره حتى اضطرب وتشتت وسادته الفوضى، فلم ير قادته بداً من فك الحصار والرحيل[١].

لكن الاختلاف بين المصادر يبدو واضحاً في إيراد التفاصيل، وهوية القاتل، وسبب القتل، فالعماد الأصفهاني يشير إلى أن زنكي كان، إذا نام، سهر حول سريره عدد من خدامه ومماليكه لحراسته، أولئك الذين كان يحبهم أعمق الحب، ويعطف عليهم أشد العطف، لكنه ـ مع ذلك ـ كان يعاملهم أحياناً معاملة صعبة تبلغ حد العنف والقسوة، فكان إذا نقم على كبير أبعده وأبقى ولده عنده، بعد أن يأمر بإخصائه، وكان هؤلاء من أبناء وجهاء القرم والترك والروم. فأسروا الثأر في أنفسهم، وراحوا ينتظرون الفرصة المناسبة، وفي تلك الليلة ـ التي شهدت الحادث المشؤوم ـ نام زنكي وما لبث أن انتبه من نومه وهم (قد شرعوا في اللعب، وأخذوا في الطرب، فزجرهم وتوعدهم وهم ساكتون، لكن كبيرهم المدعو (يرنقش) أسر ذلك في نفسه، وراح ينتظر الفرصة للأخذ بثأره، وما أن عاد سيده إلى النوم ثانية حتى أسرع إليه، وبرك عليه، وذبحه)، واستطاع ـ إثر ذلك ـ أن يتسلّل من المعسكر إلى أسوار جعبر، دون أن يشك أحد فيه باعتباره كبير حراس زنكي. وهناك أخبر أهل القلعة وحراسها بما أقدم عليه، وأراهم الأدلة والعلامات، فأسرعوا بإشاعة النبأ في أطراف المكان كي يحدثوا الاضطراب في صفوف قوات زنكي، وقد أتت مساعيهم كلها سريعاً ورحلت تلك القوات[٢]. ويتفق كل من ابن القلانسي[٣] وسبط ابن الجوزي[٤] مع الأصفهاني في هذه الرواية، مع حذف بعض

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤، الكامل ١١ ـ ٤٥، الباهر ص ٧٤، الروضتين ١ ـ ١٠٧ ـ ١٠٨، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨١ ـ ٢٨٣، مفرج الكروب ١ ـ ٩٩ ـ ١٠٠، البنداري آل سلجوق ص ١٨٩ ـ ١٩٠، الفارقي: تاريخ آمد، مخطوطة، ورقة ١٢٧ ب، ابن الوردي: تاريخ ٢ ـ ٤٦.

(٢) تاريخ دولة السلجوق ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

(٤) مرآة الزمان ٨ ـ ١٩٠ ـ ١٩١.

التفاصيل، أما ابن العديم فإنه يذكر أن زنكي تهدد يرنقش خلال النهار، فخاف الأخير منه وأسرع باغتياله ليلاً[١].

ويشير كل من ابن القلانسي[٢] وابن واصل[٣] ورنسمان[٤] إلى أن القاتل كان ذا أصل (إفرنجي). أما جمال الدين الشيال فيقول: (ويبدو أن صاحب جعبر هو الذي حرض على قتله، بدليل أن قتلته فروا إلى القلعة بعد قتله مباشرة)[٥]، ويشاركه حسن حبشي هذا الرأي، ويضيف (ولعل القاتل كان باطنياً)[٦]. وهكذا يتضح أن يرنقش قام باغتيال سيده مدفوعاً بعامل أو أكثر من عوامل ثلاثة: شخصي ونفسي وسياسي.

أما العامل الشخصي فيتمثل بتهديد زنكي له، وخوفه عاقبة هذا التهديد وإسراعه باغتيال سيده دفاعاً عن نفسه. ويتمثل العامل النفسي بتأكيد المصادر على تأثر يرنقش من معاملة زنكي له وزجره إياه، وشعوره العميق بما أصابه من ظلم من جراء إخصائه، فحاول أن يرد على الظلم بمثله، سيما وأنه كان من أقرب مقربي زنكي[٧]، وقد بلغ منزلة خيل إليه معها أنه أصبح بمنأى عن أن يناله أذى أو تمسه إهانة، فلما كانت تلك الليلة، وإهانة سيده أمام رفاقه، لعب إحساسه بمرارة الإهانة دوره، فاندفع لحماية كرامته وذبح سيده. ويصور الأصفهاني حركات يرنقش أثناء الاغتيال بالشكل الذي يبرز أثر الانفعال النفسي فيها (فأسرع إلى زنكي، وبرك عليه، وذبحه في نومه)[٨].

---

(١) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨١ ـ ٢٨٢.
(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.
(٣) مفرج الكروب ١ ـ ٩٩.
(٤) History of the Crusades, 11 / 239.
(٥) حاشية مفرج الكروب ١ ـ ٩٩.
(٦) نور الدين والصليبيون ص ٤٠.
(٧) انظر: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.
(٨) تاريخ دولة السلجوق ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

أما الدافع السياسي للاغتيال فيقوم على وجهين، أولهما اتفاق يرنقش ـ سراً ـ مع أصحاب قلعة جعبر لاغتيال عدوهم وإنهاء أزمتهم، بعد أن كاد حصنهم يوشك على الاستسلام، ويدخل ضمن هذا الاحتمال كون يرنقش ذا ميول باطنية، وربما تسلل إلى خدمة زنكي منذ زمن بعيد، لتحقيق هدفه هذا، كعادة الباطنية في التستر والانتظار الطويل لتنفيذ اغتيالاتهم لكبار الشخصيات السياسية (السنية) التي كانت تشكل خطراً على دعوتهم، خاصة إذا ما عرفنا العطف الذي كان يبديه أمراء جعبر تجاه الباطنية. أما ثاني الاحتمالات السياسية فكون يرنقش ذا أصل (إفرنجي)، كما أكد ابن القلانسي وابن واصل ورنسمان، ويحتمل أن يكون قد أقدم على فعلته إما باتفاق سري مع الصليبيين، أو بدافع شخصي مرتجل يعود إلى حرصه على مصالح قومه التي بدأ زنكي يوجه إليها ضربات حاسمة.

ولا نستطيع الجزم بأي من هذه الدوافع الثلاثة لاغتيال زنكي، ذلك أن المصادر ـ كما رأينا ـ لم تعط القول الفصل في هذا المجال، ومن الخطأ الاعتقاد بأن (يرنقش) ذا الأصل الفرنجي اغتال سيده ـ وهو في قمة انتصاره على الجبهتين الصليبية والإسلامية ـ بدافع شخصي أو نفسي محض، ولا ريب أن وراء هذا الاغتيال الخطير، في هذه المرحلة الصعبة، دوافع سياسية أبعد مدى وأشد خطورة، ربما تعود إلى الأصل الفرنجي للقاتل، أو إلى ميوله الباطنية، وربما تعود إلى اتفاقه ـ سراً ـ مع أمراء قلعة جعبر، لقاء ما منوه به، إذا أتم تخليصهم من زنكي الذي غدا قاب قوسين أو أدنى من اجتياح حصنهم.

اتجه القاتل، بعد أن اغتال زنكي، إلى أسوار قلعة جعبر، بسكينه الملطخ بالدم، وصاح في الحرس (شيلوني فقد قتلت زنكي !!)، فلم يصدقوه، فأراهم السكين، وعلامة أخرى كان قد أخذها من سيده، وعند ذلك أصعدوه إلى القلعة وتحققوا صدق ما كان يقول[١]. وعندما بشر

---

(١) الفارقي: ميافارقين، مخطوطة، ورقة ١٢٧ م ـ ١٢٨ ب.

صاحب جعبر بالنبأ لم يصدقه أول الأمر (وآوى يرنقش إلى القلعة، وأكرمه، وعرف حقيقة الأمر، فسر بذلك واستبشر بما أتاه من الفرج بعد الشدة الشديدة)[١] ويشير ابن العديم إلى رد الفعل الذي أحدثه القاتل في (أهل القلعة)، فعندما ناداهم: إني قتلت زنكي، أجابوه: (اذهب إلى لعنة الله، فقد قتلت المسلمين كلهم بقتله)[٢]!!

ولم يقبض القاتل ثمناً لخيانته إلا المطاردة والخوف. ذلك أن حكام جعبر قاموا بطرده بعد وقت قصير من التجائه إليهم، ولم يكافئوه على عمله ربما خوفاً من قيام نور الدين محمود بن زنكي، أمير حلب، بالانتقام منهم لأبيه، وأخيراً تم إلقاء القبض على القاتل، وأرسل مخفوراً إلى الموصل حيث قتل هناك[٣].

عندما انتشر خبر اغتيال زنكي في معسكره، انقسم إلى قسمين اتجه أحدهما إلى حلب بقيادة نور الدين محمود، واتجه القسم الآخر إلى الموصل بقيادة جمال الدين الأصفهاني حيث قام هو وكبار الأمراء بتنصيب سيف الدين غازي أميراً على الموصل[٤]. وحملت جثة زنكي إلى الرقة حيث دفنت في مشهد هناك في منطقة قبور شهداء صفين[٥]، ثم ما لبث نور الدين محمود أن بنى جداراً يقصر عن القامة حول مشهد أبيه[٦].



(١) ابن القلانسي ص ٢٨٥.

(٢) بغية الطلب حـ ٨، ورقة ٢١٣ و (حاشية زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨٢).

(٣) ابن القلانسي ص ٢٨٨، ونقل عنه أبو شامة: الروضتين ١ ـ ١١٨.

(٤) ابن القلانسي، ص ٢٨٥، أبو شامة ١ ـ ١١٩، الكامل ١١ ـ ٤٦، الباهر ص ٨٤ ـ ٨٥.

(٥) ابن القلانسي ص ٢٨٥، الكامل ١١ ـ ٤٥، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨٥ ـ ٢٨٦. أبو شامة ١ ـ ١٠٨، ابن خلكان ٢ ـ ٨٠، سبط ابن الجوزي، مرآة ٨ ـ ١٩٠ ـ ١٩١.

(٦) بغية الطلب: حاشية زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨٥ ـ ٢٨٦.

الفصل التاسع
النظم العسكرية

الجيش ـ الإقطاع ـ الأتابكية

١ـ الجيش:

قامت إمارة زنكي في ظروف سياسية وحربية معقدة، حيث انتشرت في منطقة الموصل والجزيرة والجبال والشام مجموعة من الإمارات المحلية المتنافسة فيما بينها، والتي كان بقاؤها وتوسعها يعتمد على إمكانياتها العسكرية، فضلاً عن وجود الصليبيين الذين كانوا يهددون هذه المناطق بالاعتداءات المستمرة والهجمات الشديدة، وكان هدف زنكي الرئيسي كما رأينا هو القضاء على الإمارات المحلية في هذه المناطق وتوحيدها في جبهة إسلامية واحدة ليستطيع مجابهة الصليبيين؛ لذلك كان عليه أن يعتني بأمر قواته العسكرية، وينظم جيشاً قوياً ليحقق به أهدافه تلك.

لا تقدم المصادر سوى معلومات مختصرة عن جيش زنكي وبخاصة (ديوان الجيش)، وتكاد تكتفي بمجرد الإشارات عن الجوانب الأخرى للموضوع، كفرق الجند وطوائفهم، وعناصر الجيش ومقراته، ورواتب المقاتلين ومصادرها، واستدعاء الجيوش وأساليب القتال، ومعتقلات الأسرى وطبيعة معاملتهم، مما سنحاول أن نلقي عليه ما يتيسر من الأضواء.

ديوان الجيش:

نظم زنكي (ديوان الجيش) ليقوم بالإشراف على أمور الجند وتنظيمهم وتوزيع رواتبهم وأعطياتهم بانتظام[١]، وجعل على رأس هذا الديوان موظفاً أعلى يطلق عليه (أمير حاجب)[٢]، تختلف وظيفته عن وظيفة الحجاب القدماء، إذ أن عمله هو أن (ينصف بين الأمراء والجند، تارة بنفسه وتارة بمشاورة السلطان، وتارة بمراجعة النائب، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد، وعرض الجند، وما ناسب ذلك)[٣]، كما كان ينظر في (مخاصمة الأجناد واختلافهم في أمور الإقطاعات ونحو ذلك)[٤].

ذكر ابن الأثير أنه (كان لزنكي جماعة كثيرة من الخراسانية في الركاب (أي ما يشبه الحرس الخاص المرافق للأمير)، لهم الجامكيات[٥] الوافرة، وكان في الديوان من يجمعونها من جهاتها ويقسمونها عليهم كل ثلاثة أشهر مرة، ففي بعض السنين تأخرت (رواتبهم) تأخراً يسيراً، فاجتمعوا ووقفوا بحيث يراهم (زنكي) مجتمعين، فعلم أنهم يشكون شيئاً، فأرسل إليهم وسألهم عن حالهم فذكروه له فقال لهم: شكوتم إلى الديوان ؟ قالوا: لا. قال: فهل ذكرتم حالكم للأمير حاجب ؟ قالوا: لا. قال: فلأي شيء أعطي الديوان مئة ألف دينار وأعطي الأمير حاجب أكثر من ذلك، إذا كنت أنا أتولى الأمور صغيرها وكبيرها ؟.. كان عليكم أن تشكوا حالكم إلى الديوان، فإن أهملوا أمركم قلتم (لأمير حاجب)، فإن أهمل أمركم شكوتم

(١) الباهر، ص ٨٣.
(٢) المصدر السابق، ص ٨٣.
(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤ ـ ١٩.
(٤) المقريزي، الخطط، ٢ ـ ٢١٩.
(٥) الجامكيات: هي الرواتب العامة: محمد مصطفى زيادة، حاشية السلوك للمقريزي، ١ ـ ٥٢. وفي القلقشندي أن نفقة مماليك السلطان كانت عبارة عن (جامكيات وعلف وكسوة وغير ذلك) (صبح الأعشى ٣ ـ ٤٥٧) مما يشير إلى أن الجامكيات كانت رواتب نقدية.

الجميع إلي حتى أعاقبهم على إهمالكم، وأما الآن فالذنب (عليكم). ثم أمر بتأديبهم وقطع (رواتبهم)، حتى شفع فيهم بعض الأمراء فعفا عنهم. ثم أحضر موظفي الديوان وأمير حاجب وقال لهم: إذا كنتم تهملون أمر جندي الذين تحت ركابي، ومن هو ملازمي في سفري وإقامتي، وبهم من الحاجة إلى النفقات في أسفارهم ما تعلمونه، فكيف يكون حال من بعد عني؟ وأنكر عليهم ذلك، فخرجوا من عنده وفرقوا في الأجناد من أموالهم إلى حين وصول (رواتبهم)، فأخذوا عوض ما أخرجوه)[١]، ويعلق ابن الأثير على هذه الحادثة قائلاً بأن زنكي بهذا الإجراء (أصلح الجند لطاعة الديوان وأصلح الديوان للنظر في مصالح الجند، وعظم نفسه عن أن يخاطب في هذا الأمر الحقير، وسهل عليه بذل المبلغ الكثير لمن يقوم بأموره)[٢].

ويوضح هذا النص أموراً مهمة تتعلق بديوان الجيش وموظفيه والمشرف عليه، وكيفية سير الأمور، وتوزيع الرواتب، فعبارة (ثم أحضر موظفي الديوان) تشير إلى وجود مجموعة من الموظفين الذين كلفوا بإدارة شؤون الديوان، وكانوا يخضعون للإشراف المباشر لأمير حاجب ويتلقون الأوامر منه، وفي حالة عدم قيامهم بواجباتهم بالشكل المطلوب، كان على أهل الشكوى من الجند تقديم شكواهم إلى (أمير حاجب) باعتباره المسؤول الأعلى في الديوان، فإذا لم يقم هذا أيضاً بحل مشاكلهم فإن المشكلة آنذاك تنتقل إلى زنكي، وهذا يشير إلى السلطة الواسعة التي خول بها (أمير حاجب) في قضايا الجيش، إذ كان عليه أن يتلافى الأخطاء التي يتورط فيها موظفو الديوان دون الرجوع إلى زنكي.

وكان على الديوان أن يقوم بجمع الرواتب من (جهاتها) التي لم يحددها ابن الأثير، وتوزيعها على الجند كل ثلاثة أشهر وبشكل منظم، وإلا تعرض

---

(١) الباهر، ص ٨٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٣.

موظفو الديوان للتأنيب أو العقاب، وكانت هذه الرواتب تدفع نقداً، وقد تجاوز مقدارها المئتي ألف دينار، يصرف نصفها لحساب أمير حاجب والنصف الآخر لحساب الديوان كي يقوم هذان الطرفان بصرفها على الجند بعد استقطاع مخصصاتهم التي لم يحددها النص السابق.

ولا يوجد ما يوضح أصناف موظفي ديوان الجيش ـ فيما عدا أمير حاجب ـ وماهية مناصبهم، وعددهم، والأعمال التي كلف بها كل منهم، والشروط التي اشترطت فيهم. ويشير ابن الأثير إلى أن ديوان زنكي كان يتصف (بكثرة التجمل، ونفاذ الأمر وعظم الحاشية والخرج. . فكان الإنسان إذا قدم عسكره لم يكن غريباً، فإن كان جندياً اشتمل عليه الأجناد وأضافوه وقاموا بما يحتاج إليه لكثرة أموالهم، وإن كان القادم صاحب ديوان، قصد منزلة الديوان فرأى من توفرهم عليه ونظرهم في مصالحه ما يكون كأنه في أهله. . وسبب ذلك أنه كان يخطب وُدَّ ذوي الهمم ويوسع عليهم في أرزاقهم)[1]. وهذا يشير إلى أن ديوان الجيش بلغ حداً كبيراً من الاتساع: في موظفيه، ومخصصاته المالية، وأجهزته، واهتمام زنكي وبقية المسؤولين فيه.

وكان أمير حاجب ـ في الوقت نفسه ـ أحد قواد زنكي الكبار، وربما قائده الأعلى، إذ وصف بكونه (أكبر أمير مع زنكي)[2]، واشترك معه في قيادة الجيش والمعارك الحربية.

أمير حاجب زنكي:

تولى صلاح الدين بن أيوب الياغسياني، منصب أمير حاجب لدى زنكي، ويرجع سبب ذلك إلى الدور الذي لعبه في تولية الأخير على

(١) الباهر، ص ٨٣، ونقل عنه كل من أبي شامة، الروضتين ١ ـ ١١٤، وابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ١٠٦.

(٢) الكامل ١١ ـ ٢١، ابن خلدون، العبر ٥ ـ ٥٨.

الموصل، إذ كان أحد عضوين في الوفد الذي توجه إلى بغداد عام ٥٢١ هـ لمفاوضة المسؤولين حول إقرار الوضع في المنطقة. وقد وعده زنكي بتوليته منصب أمير حاجب حالما يستقر في الموصل، فلما دخلها عام ٥٢١ هـ ولاه هذا المنصب الهام[١]. وقد ظل الياغسياني يلازم زنكي في حله وترحاله، واعتمد عليه هذا في مهامه العسكرية، وجعله أحد قواده الكبار، وكلفه بقيادة جيشه في عدد من المعارك والمهام العسكرية[٢].

وقد كافأ زنكي موظفه الكبير هذا، بناء على خدماته العديدة في الإدارة والحرب، فأقطعه حماة عام ٥٢٤ هـ[٣] وردها إليه بعد أن استعادها ثانية من حكام دمشق عام ٥٢٩ هـ[٤]، كما أقطعه حصن الخربة عام ٥٣١ هـ[٥]، وكفر طاب عام ٥٣٢ هـ[٦]. وقد بقي الياغسياني في منصبه كأمير حاجب وقائد، وتقدم لدى زنكي (بالمناصحة وسداد التدبير، وحسن السفارة وصواب الرأي)[٧]. ولذلك لم يعترضه أو يقيله من منصبه طيلة فترة حكمه.

تنظيم الجيش وعناصره:

إن معلوماتنا عن تنظيم جيش زنكي والعناصر التي شكلته مقتضبة؛ إذا قورنت بما نعرفه عن تنظيم جيش الأيوبيين والمماليك القائم على التقسيم العشري، حيث ينظم الأمراء المشرفون على الجند بشكل متدرج يلقب

---

(١) الكامل ١٠ ـ ٢٤٦، الباهر ص ٣٥.

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨، ابن منقذ، الاعتبار ص ٩٩ ـ ١٠٠، الكامل ١ ـ ٢٤٨، ١١ ـ ٢١، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٦١، ٢ ـ ٢٦٨.

(٣) ابن منقذ، الاعتبار ص ٩٧ ـ ٩٨، مفرج الكروب ١ ـ ٥٣.

(٤) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٥٩.

(٥) ابن منقذ، الاعتبار ص ٧٨.

(٦) المصدر السابق ص ٤٥.

(٧) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٧، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين ١ ـ ٢٨٦.

أكبرهم بمقدم ألف ويليه أمير أربعين ثم أمراء العشرات فالخمسات الذين يعتبرون من أكابر الأجناد، وهو التنظيم الذي نقله السلاجقة من أوطانهم الأولى بعد أن عدلوا فيه[١]، ومن المرجح أن زنكي اتبع هذا التنظيم، باعتبار أن نظمه هي استمرار للنظم السلجوقية من جهة[٢]، وأساس للنظم الأيوبية والمملوكية من جهة أخرى[٣].

توجد إشارات متفرقة عن بعض العناصر التي كانت تشكل جيش زنكي، فهنالك (الخراسانيون) الذين كانوا (يخدمون في الركاب)، أي ما يشبه الحرس الخاص المرافق للأمير، كما يتضح من قول ابن الأثير بأنه كان لزنكي (جماعة كثيرة خراسانية في الركاب)، وأنه أنب ديوانه لإهماله أمر رواتبهم قائلاً: (إذا كنتم تهملون أمر جندي الذين تحت ركابي ومن هو ملازمي في سفري وإقامتي...)[٤]. وكان هؤلاء يتقاضون رواتب عالية، إذ كانوا بحاجة إلى النفقات في أسفارهم وتحركاتهم المستمرة[٥]، كمرافقين لزنكي، يتنقلون معه حيثما ذهب.

ولم تقتصر مهمة هؤلاء الخراسانيين على حراسة زنكي ومرافقته، بل اشتركوا في الحروب وفي عمليات الحصار وتخصصوا فيها، وقد ورد ذكرهم في حصار حصن الصور (في ديار بكر) عام ٥٢٨ هـ، حيث لعبوا دوراً مهماً، كما كان لهم دور فعال في فتح الرها عام ٥٣٩ هـ، حيث يشير ابن القلانسي إلى أن (الخراسانيين العارفين بمواضع النقوب.. نقبوا عدة

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى ٤ ـ ١٤ ـ ٢٨، ١٠ ـ ٥١، المقريزي، الخطط، ٢ ـ ٢١٥ ـ ٢١٩، تحقيق، محمد مصطفى زيادة، حاشية السلوك للمقريزي ١ ـ ٢٣٩ ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك ص ١١١ ـ ١٢٠.

(٢) المقريزي، السلوك، حاشية ١ ـ ١ ـ ٢٣٩.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى ٤ ـ ٥.

(٤) الباهر ص ٨٣.

(٥) المصدر السابق ص ٨٣.

مواضع عرفوا أمرها) ثم أحرقوا فيها الأخشاب فوقعت بعض أجزاء السور ودخل المسلمون المدينة[١].

ولم تشر المصادر إلى مصدر هؤلاء الخراسانيين، وفيما إذا كان زنكي قد جاء بهم من بغداد عند توليته الموصل عام ٥٢١ هـ بعد أن أغراهم ومناهم، أم كانوا مقيمين في الموصل منذ فترة سابقة ؟ وبالرغم من أن الخراسانية كانوا يشكلون فرقة مستقلة[٢]، فإن المصادر لم تشر إلى أمرائها وطبيعة تنظيمها، ومدى علاقتها بالقوات الأخرى في جيش زنكي.

ومن العناصر الأخرى في الجيش، التركمان، وكانوا يشكلون أعداداً كبيرة، إذ يشير ابن القلانسي إلى أن زنكي عندما حاصر الرها عام ٥٣٩ هـ (كاتب طوائف التركمان بالاستدعاء لهم للمعونة عليها (أي على الرها) وأداء فريضة الجهاد، فوصل إليه منهم الخلق الكثير، بحيث أحاطوا بها من جميع الجهات وحالوا بينها وبين ما يصل إليها من الميرة والأقوات)[٣]. وقد استفاد زنكي من التركمان لجهاد الصليبيين بالدرجة الأولى، وقام (بنقل طائفة من التركمان الإيوانية مع أميرهم (الياروق) إلى الشام وأسكنهم بولاية حلب، وأمرهم بجهاد الفرنج، وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد التي لهم.. فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويراوحونهم.. ولم يزل جميع ما فتحوه بأيديهم إلى سنة ٦٠٠ هـ)[٤]. وقد استفاد الأمير سوار بن أيتكين التركماني، نائب زنكي في حلب، من التركمان في غاراته ضد الصليبيين في شمالي الشام، واستطاع أن يحقق بواسطتهم انتصارات عديدة[٥].

---

(١) ص ٢٧٩.

(٢) الباهر ص ٨٣.

(٣) ص ٢٧٩.

(٤) الباهر ص ٨٠، ونقل عنه أبو شامة، الروضتين ١ ـ ١١١ ـ ١١٢، وابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ١٠٣.

(٥) انظر فصل (زنكي والصليبيون).

وكان التركمان ينتشرون في معظم أنحاء الشام وبخاصة مناطق الفرات (وكانوا طوائف كثيرة وجماعة كبيرة)[١]. ويعدد القلقشندي عشرة طوائف من تركمان الشام، ويضيف بأن هناك جماعات كثيرة أخرى لا يمكن استيعابها[٢]. لذلك كان زنكي (يمضي إلى الفرات لجمع التركمان)[٣] قبل القيام بمعاركه المهمة، إذ كان هؤلاء، بأعدادهم الضخمة ومرانهم في الحرب، وشجاعتهم، يشكلون أهم عنصر في جيشه.

وأغلب الظن أن معظم الذين استخدمهم زنكي في حروبه لم يكونوا جنوداً نظاميين، بل كانوا يجتمعون لمساعدته أثناء استنفارهم، حيث يتطوعون في جيشه حباً في الجهاد وطلباً للغنيمة، ثم يتفرقون بعد انتهاء المعركة التي استدعوا من أجلها، وربما اتخذ سوار (نائب زنكي في حلب) من بعض هؤلاء التركمان جنوداً نظاميين كي يستعين بهم كقوة ثابتة في جهاد الصليبيين.

وترد إشارات متعددة عن (الحلبيين) كقوة عسكرية اشتركت في معارك عديدة ضد الصليبيين في شمالي الشام بقيادة الأمير سوار، وقامت بدور أساسي في الدفاع عن حلب وبعض المدن الأخرى القريبة، عند هجوم الإمبراطور البيزنطي المتحالف مع الصليبيين على هذه المنطقة عام ٥٣٢ هـ[٤]. كما قام (الحلبيون) بدور هام في فتح الرها عام ٥٣٩ هـ، جنباً إلى جنب مع الخراسانيين، إذ كان في (الحلبيين) أيضاً من هو (عارف بمواضع النقوب)، فنقبوا عدة مواضع مع الخراسانيين وأشعلوا فيها النار مما أدى إلى انهيار بعض أجزاء السور ودخول المسلمين إلى الرها[٥].

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى ٧ ـ ١٩٠.

(٢) المصدر السابق ٧ ـ ٢٨٢.

(٣) ابن منقذ، الاعتبار ص ٣١.

(٤) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٦٤ ـ ٢٦٨، وانظر (فصل زنكي والصليبيون).

(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩.

وقد كان هؤلاء (الحلبيون)، من سكان حلب الأصليين، أي من العرب، بدليل ما أورده ابن العديم من أن زنكي كان يجبر فلاحي حلب على الالتحاق بجيشه في أوقات القتال[١]، ويظهر أن هؤلاء كانوا يتركون الجيش ويعودون إلى أعمالهم الزراعية بعد انتهاء القتال، ولا ريب أنهم كانوا يتقاضون أجوراً على اشتراكهم في المعارك، سواء كانت أرزاقاً معينة، أم ما يحصلون عليه من الغنائم.

وقد ذكر ابن واصل أن زنكي رحل إلى أرض حماة عام ٥٣٣ هـ (واستصحب من أهلها تسعة آلاف راجل يخدمون الركاب)[٢]، أي للقيام بمهمة الحشم في خدمة الجيش وأمرائه في حلهم وترحالهم، فضلاً عن حراسة زنكي الخاصة، مما يشير إلى أن هذا اعتمد على أهالي الشام في كثير من الأمور الحربية.

هذه هي العناصر التي تشير المصادر إليها، والتي أسهمت في تشكيل جيش زنكي بقسميه من النظاميين (أو المرتزقة) والمتطوعين. ولا ريب أن زنكي اعتمد على عناصر أخرى كالبدو والأكراد، وربما كانت قلة أهمية هؤلاء بالنسبة لعناصر الجيش الأخرى سبباً في إغفال المؤرخين لهم.

ويظهر مما سبق أن عدد جيش زنكي لم يكن ثابتاً، بل كان عرضة للزيادة والنقصان بما ينضم إليه من المتطوعين من حين لآخر، وقد حاول زنكي أن يضمن وجود مورد عسكري بشري ثابت، ففرض التجنيد الإجباري على بعض المناطق القريبة من مواطن الخطر، ولذلك (كان يلزم أهل حلب بجمع الرجالة للقتال والحصار، فإن كان ذلك في جهاد الكفار، فقد كان بحلب عليهم ذلك وله إلزامهم به)[٣]. ولم تذكر المصادر فيما إذا كان زنكي قد فرض التجنيد

(١) بغية الطلب حـ ٨، ورقة ٢١١، وحاشية زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨٤.

(٢) ١ ـ ٨٤.

(٣) ابن العديم، بغية الطلب، حـ ٨، ورقة ٢١١، وحاشية زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨٤.

الإجباري على المناطق الأخرى من إمارته، ولعل أهمية موقع حلب وقربها من الصليبيين حتم عليه اتخاذ هذا الإجراء. ويظهر أنه كان حر التصرف في استخدام من يشاء للأغراض الحربية، ففي عام ٥٣٣ هـ على سبيل المثال، مر بأرض حماة (واستصحب من أهلها تسعة آلاف راجل يخدمون الركاب)[١]. وفي عام ٥٣٩ هـ طلب من قواته أن تجهز لحصار (الرها) وهدد من (تأخر عن صحبته، وأخبرهم أنه لا يقبل عذراً من أحدهم)[٢]. مما يشير إلى وجود نوع من التجنيد الإجباري في أوقات الحاجة.

وهنالك إشارات محدودة عن معسكرات الجند، ففي شتاء إحدى السنين قدم زنكي إلى جزيرة ابن عمر، فنزل بالقلعة، وعسكر جنده في الخيام خارج المدينة[٣]، الأمر الذي يشير إلى وجود معسكرات غير ثابتة في الحالات الطارئة، أما في الحالات الدائمة، فقد كان زنكي يقيم حامية عسكرية في كل مدينة أو حصن يفتحه بعد أن يقطع أراضيها لأمراء الحامية وجنودها[٤]، وهذا يؤكد وجود معسكرات ثابتة في مختلف المناطق التابعة لزنكي، ولم تحدد المصادر فيما إذا كانت سكنى الجند داخل القلاع أم خارجها؟.

استخدمت الخيل على نطاق واسع في جيش زنكي، ووردت إشارات عديدة عن اهتمام قواته بها واستخدامها في مختلف الحروب، وفي الهجمات السريعة، وبالرغم من أن فن الفروسية لم يكتمل في عهد زنكي، ولم تؤلف عنه كتب ورسائل كما حدث بعدئذ[٥]، إلا أن أسامة بن منقذ

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ٨٤.

(٢) الباهر ص ٦٨.

(٣) الكامل ١١ ـ ٤٥، الباهر، ص ٧٦ ـ ٧٧، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين ١ ـ ١١٠.

(٤) الكامل ١٠ ـ ٢٤٧ ـ ٢٤٨، ١١ ـ ٣٩، الباهر ص ٦٦، ٦٩.

(٥) ألفت في العصر المملوكي في مصر مجموعة من الكتب والرسائل التي تناولت فنون

=

يقدم في كتابه (الاعتبار) بعض اللمحات عن هذا الفن وعن الخيول في عهد زنكي[١]، فكان الفارس يلبس الزردية، أو الكزاغند (أي الدرع) والخوذة، ويقاتل بالسيف أحياناً وبالدبوس أحياناً أخرى[٢]. وقد جرى التنافس بين قوات زنكي لاقتناء الخيول الحسنة[٣]، وكان للأمراء ركائبيون وإسطبلات خاصة لخيولهم[٤]، ويشير ابن العديم إلى استخدام الخيل في معارك عام ٥٣٢ هـ ضد الروم والصليبيين[٥]، وقد اعتمد الأمير سوار نائب زنكي في حلب على الخيول في غاراته التي شنها ضد الصليبيين[٦]. ولا توجد أية إشارة عن تنظيم الفرسان في جيش زنكي، وعن رواتبهم ومعاملتهم، وعما كان بينهم وبين المشاة (الرجالة) من فروق.

وهنالك إشارات مختصرة عن تنظيم النقل في جيش زنكي، إذ يشير ابن منقذ إلى استخدام زنكي للبغال[٧]. ويظهر أن حروبه الجبلية دفعته إلى ذلك، كما استخدمت الإبل في مناطق الجزيرة المستوية في الظروف التي تطلبت السرعة[٨].

= الفروسية وفصلت فيها مثل: (نهاية السول والأمنية في تعليم الفروسية) تأليف ابن لاجين الحسامي (ت ٧٨٠ هـ) وكتاب (فن الحروب وعلم الفروسية) لمؤلف مجهول، وغيرها. انظر علي إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣، ونظير حسان سعداوي، التاريخ الحربي المصري (المقدمة و ـ ط).

(١) انظر الصفحات: ٤٦، ٥٩ ـ ٦٠، ٩٧ ـ ٩٨، ٩٩ ـ ١٠٠، ١٤٤، ١٥٠ ـ ١٥١، ١٥٧ من كتاب الاعتبار.

(٢) ابن منقذ، الاعتبار ص ٩٨، ١٤٤، وانظر ص ١٠٠ (نفس المصدر) عن تركيب الكزاغند.

(٣) المصدر السابق ص ٤٦.

(٤) المصدر السابق ص ٤٦، ٥٩ ـ ٦٠.

(٥) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٦٤ ـ ٢٦٧.

(٦) انظر فصل (زنكي والصليبيون).

(٧) ابن منقذ، الاعتبار ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٨) الباهر ص ٦٨.

استدعاء الجيوش وأساليب الحرب:

قبيل إعلان الحرب، كان زنكي يستدعي قوات من المتطوعين لتنضم إلى جيوشه النظامية المجهزة[١]. فعندما عزم على فتح الرها عام ٥٣٩ هـ (كاتب طوائف التركمان بالاستدعاء لهم للمعونة عليها، وأداء فريضة الجهاد فوصل إليه منهم الخلق الكثير)[٢]، كما كان يمر ـ في طريقه إلى الحرب ـ ببعض مدن إمارته، ويجمع منها الجند ليضيفهم إلى قواته كما فعل مع أهالي حلب[٣]، وحماة[٤]. وكان الجهاد ضد الصليبيين أحد الدوافع المهمة في اشتراك المتطوعين في حروب زنكي وخصوصاً التركمان، كما كانت الرغبة في الغنائم، والخوف من سلطة زنكي[٥]، من الدوافع الأخرى لذلك.

وهنالك إشارات عديدة عن طرق القتال وأساليبه، خاصة فيما يتعلق بحروب الأسوار ومهاجمتها، ذلك أن معظم المعارك التي خاضها زنكي كانت عبارة عن هجمات ومحاصرة للحصون الكثيرة المنتشرة في منطقة الجزيرة والشام، أما المعارك المفتوحة فإنها كانت أقل من حروب الأسوار بشكل ملحوظ، ولذلك قلت الإشارات عن الأساليب التي اتبعت فيها.

كان للجواسيس أهمية كبيرة في المعارك التي خاضها زنكي، وكانوا ينتشرون في مناطق العدو، ويطلعون أميرهم على تحركاته وإمكانياته لكي يكون على بينة من الأمر، وكان زنكي يحدد موقفه الحربي أحياناً بناء على ما يقدمه هؤلاء من معلومات[٦]. ومن ثم يتجه، هو أو أحد قواده، على

(١) انظر موضوع (تنظيم الجيش وعناصره) من هذا الفصل.

(٢) ذيل تاريخ دمشق ٢٧٩.

(٣) ابن العديم، بغية الطلب، حـ ٨، ورقة ٢١١، وحاشية زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨٤.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ٨٤.

(٥) الباهر ص ٦٨.

(٦) الكامل ١١ ـ ٤٠، الباهر ص ٦٨، ونقل عنه أبو شامة، الروضتين ١ ـ ٩٥ وابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ٩٣.

رأس الجيش لفرض الحصار، فإذا ما استدعت الظروف السرعة في السير اتخذ من الوسائل ما يكفل ذلك، ففي عام ٥٢٨ هـ على سبيل المثال، توجه إلى (خلاط)، وأراد الوصول إليها بسرعة، فسلك طريقاً، عبر الجبال، غير الطريق المسلوك، وكان جنده يستريحون، كل واحد في موضعه، دون خيام[١]. وعندما توجه لحصار الرها عام ٥٣٩ هـ استعان على السرعة بركوب النجائب (أي الإبل صغيرة العمر)[٢].

وتقدم المصادر بعض التفصيلات عن أساليب حروب الأسوار، ففي حصار الرها، تقدم زنكي ـ أولاً ـ إلى أهل الحصن بتسليمه له دون أن يضطر إلى تخريبه، فلما رفضوا، أمر المنجنيقات بالضرب (وقدم الشجعان لنزاله) على شكل زحوف مستمرة لقتال الحامية، وفي الوقت نفسه، كان النقابون (العارفون بمواضع النقوب) يعملون على نقب بعض المناطق الواقعة تحت الأبراج، وبعد ذلك وضعوا فيها الأخشاب وأحرقوها، فسقطت الأبراج، واحترق السور، واندفع جند زنكي إلى داخل الحصن[٣].

كما اتبع زنكي في هذا النوع من القتال أسلوب الاشتباك مع حامية الحصن حالما يفسح المجال بذلك، إذ تبدأ المنجنيقات ـ أولاً ـ بضرب الأسوار، وما أن تحدث بعض الفتحات، حتى يقوم عدد من جنده بهجوم سريع على تلك المناطق والاشتباك مع الحامية، فإذا ما قضوا على المدافعين فتحوا الطريق أمام الجيش للدخول إلى الحصن والاستيلاء عليه[٤].

---

(١) ابن منقذ، الاعتبار ص ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) الباهر ص ٦٨.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩، الكامل ١١ ـ ٤١، الباهر ص ٦٨ ـ ٦٩، وينقل عنه أبو شامة، الروضتين ١ ـ ٩٤ ـ ٩٥، وابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ٩٤.

(٤) ابن منقذ، الاعتبار ص ١٥٥.

وكان زنكي يؤكد في حصاره للحصون على الناحية التموينية، فيفرض حصاراً اقتصادياً على الحصن، فضلاً عن الحصار العسكري[١]. كما كان يؤكد على إثارة حماسة الجند بأن يشترك هو نفسه في الهجوم على الأسوار كما حدث في معركتي عقر الحميدية عام ٥٢٨ هـ[٢]، والرها عام ٥٣٩ هـ[٣].

أما في الحروب المفتوحة، فقد اتبع زنكي الأسلوب السائد في ذلك الوقت، حيث تقسم القوات إلى عدة مجموعات على رأس كل منها أمير: ميمنة، قلب، ميسرة، مقدمة، مؤخرة. كما نجد إشارات عديدة عن براعة زنكي وقواده في استخدام الأساليب المختلفة في القتال كنصب الكمائن[٤]، وفي الحالات التي كانوا يرون فيها أن من الخطورة الدخول بمعارك مفتوحة مع العدو، إما لقلة عددهم، أو لعدم ملاءمة الظروف العسكرية لهذا النوع من القتال، في هذه الحالات، كان زنكي وقواده يلجؤون إلى شن الغارات على معسكرات العدو والانسحاب بسرعة، وكانوا يستهدفون من ذلك إقلاق تلك المعسكرات ونشر الخوف والفوضى في صفوفها وذلك بما يحدثونه في أطرافها من قتل واختطاف ونهب وتخريب، مما يؤدي، أيضاً، إلى اضطراب في تموين العدو، وهو عامل هام لإضعافه، وقد حققت هذه الأساليب انتصارات عديدة لزنكي ورجاله[٥]. وكان زنكي ـ أحياناً أخرى ـ يمارس ضغطه الاقتصادي ضد أعدائه عن طريق القيام بعمليات النهب

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ٢٧٩، الكامل ١١ ـ ٢، الباهر ص ٤٧، ٦٢، ونقل عنه أبو شامة، الروضتين ١ ـ ٨٩، ابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ٧٣.

(٢) الباهر ص ٨٠.

(٣) الكامل ١١ ـ ٤٠ ـ ٤١، ونقل عنه: ابن واصل مفرج الكروب ١ ـ ٩٣ ـ ٩٤.

(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٩.

(٥) المصدر السابق ص ٢٦٤، الكامل ١١ ـ ٢٣ ـ ٢٤، الباهر ص ٥٥ ـ ٥٦ ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين ١ ـ ٨١ ـ ٨٣، وابن واصل مفرج الكروب ١ ـ ٧٨ ـ ٧٩، ٨١ ـ ٨٣، وانظر فصل (زنكي والصليبيون).

والتخريب في المناطق التي تمد حصون هؤلاء بالتموين، كما حدث في منطقة حمص في السنوات التي سبقت الاستيلاء عليها عام ٥٣٢ هـ[١]، وفي حصاره لدمشق عام ٥٣٤ هـ حيث أحرق عدة قرى من المرج والغوطة، وشن الغارات على حوران وأعمال دمشق للنهب والتخريب[٢].

أما عن الأسلحة التي استخدمتها جيوش زنكي، فقد ورد ذكر عدد منها كالدبوس، وهو آلة من حديد ذات أضلاع، والرماح، والسيوف، والقوس والسهم والنشاب. وبما أن معظم الحروب التي خاضتها كانت (حروب أسوار)، فإن أهم الأسلحة التي استخدمتها كانت ولا ريب المنجنيقات، فضلاً عن مجموعة من الآلات الحربية التي تستخدم لهذا الغرض، وبالرغم من عدم تحديد المصادر لهذه الآلات، والإشارة إليها دائماً بلفظ التعميم (كالآلات المنتخبة)[٣]، وآلات الحرب[٤]، إلا أنها كانت، ولا ريب، كتلك التي استعملت في تلك المرحلة من التاريخ بصورة عامة، وأهمها: الدبابة والكبش والقلعة المتحركة، والتي كانت تستخدم جميعاً لنقل الجند والمعدات الحربية إلى الأسوار لكي تحميهم من سهام الأعداء ونيرانهم[٥]. كما استعمل جند زنكي النار العادية لحرق أبراج الأسوار بعد نقبها وملئها بالخشب[٦]. وبلغت أسلحة زنكي من الكثرة في إحدى المعارك بحيث قال عنها الشاعر: (ظن البر بحراً من سلاح)[٧]. ولم ترد إشارة فيما إذا كان

---

(١) الكامل ١٦.

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣، الكامل ١١ ـ ٣٠ ـ ٣١، ونقل عنه ابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ٨٨ ـ ٨٩.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩.

(٤) المصدر السابق ص ٢٨٢.

(٥) انظر: علي إبراهيم حسن، تاريخ المماليك ص ٢٧٦، عن: ابن أرنبغا الزرد كاشي (الأنيق في المجانيق)، مخطوط، ورقة ٧٢ ـ ٨٨.

(٦) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩، ونقل عنه: الباهر ص ٦٩.

(٧) الباهر ص ٦٨.

هناك مخزن لحفظ الأسلحة له مشرفه وموظفوه، كما لم ترد إشارة عن مصدر هذه الأسلحة سواء صنعت محلياً أم استوردت من الخارج، وهل كان الجندي يجهز نفسه بها أم تقوم الدولة بتجهيزه؟.

هناك إشارة عن وجود (جرائحي) لعلاج مصابي الحرب[١]، وربما كان ذلك دليلاً على وجود مجموعة، أو (هيئة طبية) ترافق جند زنكي لإسعاف الجرحى.

من الممكن القول بأن الاعتبارات السياسية والعسكرية كانت تحدد سلوك الجند وأمرائهم تجاه سكان وحاميات المدن المفتوحة، ففي عام ٥٣٣ هـ على سبيل المثال، فتح زنكي حصن بزاعة بالسيف (وقتل كل من فيه من الروم والفرنج)[٢]، كرد انتقامي على سلوك الروم والصليبيين تجاه المسلمين لدى استيلائهم على هذا الحصن ومعاملتهم لأهله بوحشية بالغة[٣]، كما أن هذا الحصن كان يشكل مركزاً عسكرياً مهماً لقربه من حلب، ومن ثم فإن وجود أية جماعة تؤيد الصليبيين فيه يشكل خطراً على المنطقة كلها. وكذلك يمكن القول في موقف زنكي عند فتح الرها عام ٥٣٩ هـ، بعد مقاومة شديدة، دفعته إلى إطلاق الحرية لجنده وأمرائه في الأيام الأولى من الفتح، فملؤوا أيديهم من الغنائم والأسلاب والأسرى، لكنه لدى اطلاعه على البلد (أعجبه منظره فأسف لمثله من الخراب، ورأى أن خرابه وإخلاءه غير مستحسن، فأمر بإعادة ما أخذ من الغنائم والسبي، فردوا، وعاد البلد عامراً، آهلاً بالسكان، بعد أن كان داثراً)[٤]. وهكذا

(١) ابن منقذ، الاعتبار ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٢) مفرج الكروب ١ ـ ٨٣.

(٣) الكامل ١١ ـ ٢٣، الباهر ص ٥٥، ونقل عنه أبو شامة، الروضتين ١ ـ ٨١ وابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ٧٧ ـ ٧٨.

(٤) الكامل ١١ ـ ٤١، الباهر ص ٦٩، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين ١ ـ ٩٥.

نجد أن موقف زنكي بالسماح لجنده بالنهب والأسر كان ذا اعتبار عسكري بسبب المقاومة العنيفة التي أبداها الصليبيون، وأن موقفه بعد ذلك في إيقاف تلك الأعمال كان ذا اعتبار سياسي، إذ كان يرمي من وراء ذلك إلى جعل المسيحيين الوطنيين في الرها كتلة واحدة يفيد منها ضد الصليبيين الذين يخالفونهم في المذهب، ولعله أراد أن يستعين بالمسيحيين الوطنيين، بالإضافة إلى الحامية التركية، في المحافظة على الرها بعد طرد القوات الصليبية منها[١]. ولذلك (اجتهد في مصالح ـ أهل الرها ـ ووعدهم بإجمال السيرة وبسط العدالة)[٢]. وعلى هذا الأساس أيضاً كانت معاملة زنكي لأهل بعلبك وأمرائها بعد أن أعطاهم الأمان، إذ أن ما اتخذه معهم من شدة وقسوة قصد به إثارة خوف المخالفين له من المسلمين في دمشق[٣].

أما فيما يتعلق بتوزيع الأسرى والغنائم ومدى خضوع ذلك للتنظيم والإحصاء، فلا توجد ثمة إشارة لتوضيح ذلك، والمرجح أن كل جندي كان يمتلك ما يحصل عليه أثناء القتال من أثاث ودواب وأسرى[٤]. فيما عدا بعض أنواع الأسلحة التي كانت تعود إلى الحكومة كالمجانيق، بدليل استيلاء زنكي على مجموعة المجانيق، التي تركها الروم عند شيزر بعد انسحابهم عنها عام ٥٣٢ هـ، ورفعها إلى قلعة حلب[٥]. كما لا توجد إشارة عن كيفية معاملة الأسرى، وتبادلهم، ومدى الاستفادة منهم في الأغراض العمرانية والاقتصادية.

---

(١) العريني، الحروب الصليبية ١ ـ ٥٢٧ عن: Grousset. Croisades 2/188 191.

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠.

(٣) العريني، الحروب الصليبية ١ ـ ٥٢٧: Grousset, Ibid, 2/188-191.

(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠، الكامل ١١ ـ ٤٠ ـ ٤١، الباهر ص ٦٩ ونقل عنه أبو شامة، الروضتين ١ ـ ٩٥.

(٥) الكامل ١١ ـ ٢٤، الباهر ص ٥٦، ونقل عنه أبو شامة، الروضتين ١ ـ ٨٢، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٦٨.

علاقة زنكي بجنده:

كان زنكي شديد الهيبة على عسكره[١]، فقد كان (جباراً عظيماً ذا هيبة وسطوة)[٢]. وقد أدى ذلك، فضلاً عن إعطائه جنده حقهم من الأرزاق والرواتب[٣]، إلى سيادة النظام في صفوف قواته وإخضاعهم لطاعته في كل صغيرة وكبيرة، إذ كان عقابه صارماً للمخالفين من جنده سيما إذا كانت مخالفتهم على حساب الرعية[٤].

وقد بلغ زنكي من السطوة والنفوذ لدى جنده أنه (إذا ركب مشى العسكر خلفه كأنهم بين خيطين، مخافة أن يدوس العسكر شيئاً من الزرع، ولا يجسر أحد من هيبته أن يدوس عرقاً منه، ولا يمشي فرسه فيه. ولا يجسر أحد من أجناده أن يأخذ من فلاح حفنة من التبن إلا بثمنها، أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية)[٥].

وكان زنكي يقدر الدور الهام الذي يؤديه الجند في خدمة الإمارة، لذلك عني بتوفير الراحة والاستقرار للجندي في كل ما يتعلق به، وبخاصة عائلته وزوجته (فكان شديد الغيرة على الحريم، لا سيما نساء الجند، فإن التعرض إليهن كان من الذنوب التي لا يغفرها) وقد علل ذلك بقوله: (إن جندي لا يفارقوني في أسفاري، وما يقيمون عند أهليهم، فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن)[٦]. ولذلك كان يعاقب المتعرضين

---

(١) الكامل ١١ ـ ٤٥.

(٢) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨٣.

(٣) الباهر ص ٨٣.

(٤) المصدر السابق ص ٧٦ ـ ٧٧، الكامل ١١ ـ ٤٥، ونقل عن ابن الأثير: أبو شامة، الروضتين ١ ـ ١١٠.

(٥) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨٣ ـ ٢٨٤ ويضيف ابن العديم عبارة (وإن تعدى أحد صلبه)، وبالرغم مما في ذلك من مبالغة إلا أنه يشير إلى مدى صلابة زنكي تجاه جنده.

(٦) الكامل ١١ ـ ٤٥، الباهر ص ٨٤، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين ١ ـ ١١٢ ـ ١١٣، وابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ١٠٤.

للنساء أشد العقاب، حتى إنه عزل واليه على جزيرة ابن عمر (ثقة الدين حسن البرطي) لتعرضه (للحريم)، ولم يكتف بذلك بل جرده من كل أمواله وعاقبه[١].

وهكذا قامت علاقة زنكي بجنده على النظام والطاعة والانضباط من جهة، وعلى الود والتعاطف والرأفة من جهة أخرى، بسبب ما قدمه للجند من رواتب حسنة، وما شمل به أهليهم من رعاية واهتمام.

الاستخبارات:

كانت الظروف المحيطة بإمارة زنكي، تقتضي اليقظة والحذر، إذ كان أعداؤه يحيطون بإمارته (إحاطة السوار بالمعصم)، وكانت الدسائس تحاك ضده، فإذا ما أضيف إلى ذلك طموح زنكي نحو توسيع إمارته على حساب جيرانه، ومحاولة معرفة أوضاع (الجيران) قبل أن يبدأ بعملياته، أدركنا سبب اهتمامه بقضايا (التجسس والأرصاد) مما يمكن أن نطلق عليه اسم (الاستخبارات).

يبدو مما أوردته المصادر أن زنكي أقام جهازاً للتجسس وخصص له الموظفين والرواتب، إذ ورد عنه أنه كان (شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم، وكان له في بلاط السلطان السلجوقي من يطالعه ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره من حرب وسلم وهزل وجد، وكان (يصرف) على ذلك الأموال الجليلة) وكان يصل إليه في كل يوم عدة قاصدين (أو كتب)[٢]، كما كان له في كل بلد من يطالعه بالأخبار[٣]. وقد اتصف زنكي بالدراية الواسعة والحذر في هذا المجال (فكان لا يمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير إذنه، وإذا استأذنه رسول في

---

(١) الباهر ص ٨٤.

(٢) المصدر السابق ص ٧٨، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين ١ ـ ١١١، وابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ١٠٢.

(٣) الباهر ص ٤٦ ـ ٤٧.

العبور إلى بلاده أذن له وأرسل إليه من يسيره ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم، فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولا يعلم من أحوالها شيئاً البتة)[١]، كما كان لا يمكن أحد موظفيه من مغادرة بلاده، ويعلل ذلك بأن البلاد (كبستان عليه سياج فمن هو خارج السياج يهاب الدخول، فإذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمع العدو فيها، زالت الهيبة وتطرق الخصوم إليها)[٢] وهنالك عدد من الروايات حول هروب بعض موظفيه وفلاحيه إلى الإمارات الأخرى وإلحاحه بإعادتهم إلى إمارته حتى لو اضطره ذلك إلى استخدام القوة[٣].

وقد قدم جهاز التجسس هذا، خدمات مهمة لزنكي، في ظروف شتى، فقد أطلعه عام ٥٢٥ هـ على اعتقال (دبيس بن صدقة) من قبل حكام دمشق والنتائج التي أعقبت ذلك[٤]، ولعب دوراً هاماً في حصار بعرين عام ٥٣١ هـ[٥]، وحصار الرها عام ٥٣٩ هـ[٦]. كما كان يستخدم للاطلاع على أحوال الجند لدى حصارهم بعض المواقع وملاحظة ما يصل إليهم من رواتب وسلاح[٧]. وكان زنكي مع اشتغاله بأمور الدولة الهامة لا يهمل الاطلاع على القضايا الثانوية، معللاً ذلك (بأن الصغير إذا لم يعرف ليمنع، صار كبيراً)[٨]. وقد ساعده جواسيسه في هذا المجال أيضاً[٩].

---

(١) أبو شامة، الروضتين ١ ـ ١١١، مفرج الكروب ١ ـ ١٠٢.
(٢) الباهر ص ٧٩، ونقل عنه: وابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ١٠٣.
(٣) الباهر ص ٧٩ ـ ٨٠، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين ١ ـ ٢٨٣.
(٤) الباهر ص ٤٦ ـ ٤٧.
(٥) الكامل ١١ ـ ٢١.
(٦) الباهر ص ٦٧ ـ ٦٨، ونقل عنه: ابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ٩٣.
(٧) الباهر ص ٧٨.
(٨) المصدر السابق ص ٧٨، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين ١ ـ ١١٠ ـ ١١١، وابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ١٠٢.
(٩) الباهر ص ٧٨.

ولم تشر المصادر إلى السلطة العليا التي كان هؤلاء الجواسيس يرتبطون بها، والمرجح أنهم ارتبطوا بزنكي مباشرة نظراً لأهمية دورهم السياسي والعسكري، ولأنهم كانوا يتسلمون أوامرهم المباشرة منه، كما يتضح من مطالعة النصوص في هذا المجال.

وبدراسة نظم البريد في نشأتها وتطورها في التاريخ الإسلامي، نجد ثمة نقاط تشابه بين بعض هذه النظم وبين استخبارات زنكي من حيث الوسائل والأهداف، فقد كان من جملة أعمال البريد القيام بالتجسس لحساب الخليفة أو الأمير، سواء على موظفي الدولة في الداخل أو الأعداء في الخارج[١]، مما يدفع إلى القول بأن زنكي لم يبدع هذا النظام، وأنه ربما استمده من نظم البريد السابقة.

٢ـ الإقطاع:

كانت الموصل والجزيرة، في العقود التي سبقت تولي زنكي الموصل، خاضعة للسلاجقة وكان هؤلاء يقطعونها لأحد الأمراء الذين يعتمد عليهم، بشرط أن يظل خاضعاً لهم، فإذا ما حاول الاستقلال بإقطاعه قام السلطان بعزله وإقطاع أمير آخر بدله حتى لو أدى ذلك إلى قيام الحرب بين الطرفين.

ففي عام ٥٠٢ هـ أرسل السلطان محمد الأمير (مودود بن التونتكين) إلى الموصل وأقطعه إياها[٢]، بعد أن جهزه بالجيوش لقتال الصليبيين[٣]، فلما قتل مودود عام ٥٠٧ هـ أقطع السلطان هذه المدينة للأمير جيوش بك وسير

(١) المسعودي مروج الذهب: ٣ ـ ١٨٣، ٢٨٤، الطبري، تاريخ الأمم والملوك ٣ ـ ١، ٣٠٤، ٣٩٩، ٥٦٠، ٣ ـ ٢، ٧٦٤، ٧٨٣، ٧٩٣، العمري، التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٨٥، وانظر: نظير حسان سعداوي، نظام البريد في الدولة الإسلامية ص ٥٧ ـ ٦٢.

(٢) الباهر ص ١٧، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين ١ ـ ٦٨.

(٣) الكامل ١٠ ـ ١٧١.

معه ولده الملك مسعود[١]. وعندما قام جيوش بك بثورة ضد السلطان عام ٥١٤ هـ، عزله هذا وأقطع البرسقي في العام التالي ما كان تحت يد سلفه من البلاد[٢]. ولما قتل البرسقي عام ٥٢٠ هـ قام بالموصل بعده ابنه عز الدين مسعود (وأرسل إلى السلطان يطلب منه أن يقرر البلاد عليه، فأجابه إلى ذلك وأقره على ما كان لأبيه من الأعمال)[٣]. فلما توفي عز الدين مسعود عام ٥٢١ هـ ولي بعده أخوه الأصغر وقام بتدبير دولته جاولي (أحد أمراء الموصل) الذي أرسل إلى السلطان يطلب أن يقرر البلاد عليهما، وبذل من أجل ذلك أموالاً كثيرة[٤].

وهكذا نجد أن إقطاع الموصل وأطرافها في هذه الفترة غدا شبه وراثي، إذ كانت ولاية المقطع تنتقل إلى ابنه أو أخيه بمجرد موافقة السلطان، بيد أن هؤلاء المقطعين كانوا مرتبطين بالسلطان السلجوقي مباشرة، وكانوا (كولاة) يخطبون باسمه ويخضعون لأوامره، سواء بالتوجه لقتال الأعداء في المناطق المحيطة بإمارتهم، أم بمساندة نوابه (الشحن) ضد مثيري الفتن في العراق[٥]. هذا إلى أنهم لم يكونوا يتمتعون باستقلال كامل داخل إمارتهم، وكان السلطان كلما أحس ميلاً من أحدهم للانفصال عنه أصدر أمره بتولية أمير آخر يوجهه على رأس جيش كبير لينتزع الموصل وأعمالها من الوالي السابق بالقوة[٦]، ولذلك كان حكام الموصل في هذه الفترة (٥٠٢ ـ ٥٢٠هـ) أقرب إلى (الولاة) منهم إلى (المقطعين)، ولم تشر المصادر إلى الالتزامات المالية بين هؤلاء الولاة والسلطان.

---

(١) الباهر ص ١٩، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين ١ ـ ٦٩.

(٢) الكامل ١٠ ـ ٢٢٤، الباهر ص ٢٤، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين، ١ ـ ٧٣.

(٣) الكامل ١٠ ـ ٢٤٢، الباهر ص ٣٢، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين، ١ ـ ٧٥.

(٤) الكامل ١٠ ـ ٢٤٥، الباهر ص ٣٢، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين، ١ ـ ٧٥.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم ٩ ـ ٢٣١، الكامل ١٠ ـ ١٥٨، ١٨٩، ٢٢٤، ٢٣١ ـ ٢٣٢، الباهر ص ٢٤.

(٦) ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٠، الكامل ١٠ ـ ١٥٨ ـ ١٥٩، ١٧١ ـ ١٧٣، ٢١٣ ـ ٢١٤، ٢٢٤، الباهر ص ٢٢ ـ ٢٤، ٦٥، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين ١ ـ ٧٢ ـ ٧٣، ٩٢ ـ ٩٣.

وكان الوالي، بدوره، يقوم بإقطاع أمرائه ومقربيه، ما تيسر من الإقطاعات، داخل إمارته[١]، وكان زنكي في هذه الفترة ضمن أولئك المقطعين، وأخذت إقطاعاته تتسع بالتدريج، لحب أولئك الولاة له وتقديرهم لوالده[٢]. وغدت مدينة (تل أعفر) القريبة من الموصل إحدى إقطاعاته في هذه الفترة[٣]. وكان زنكي كمقطع مرتبط من الناحيتين السياسية والعسكرية بأولئك الولاة، فعندما اتجه البرسقي والي الموصل (٥١٥ ـ ٥٢٠ هـ) إلى بغداد عام ٥١٦ هـ للقضاء على الفتن التي أثارها دبيس بن صدقة أمير الحلة في العراق، سار معه زنكي واشترك في حروبه، وبعد أن عين الوالي المذكور شحنة للعراق عام ٥١٦ هـ، أقطع زنكي مدينة واسط للدفاع عنها ضد بني مزيد[٤]، ولما عزل البرسقي من منصبه ذاك عام ٥١٨ هـ وأعيد إلى الموصل، طلب من زنكي، بناء على ارتباطاته به، أن يغادر مقره ليلحق به، فجمع الأخير أصحابه ليستشيرهم، وفي الحوار الذي دار بينهم يتضح مدى ارتباط زنكي بمقطعيه، وتطلعه للتخلص من هذا الارتباط، إذ قال لأصحابه: (قد ضجرنا مما نحن فيه، كل يوم قد يملك البلاد أمير ونؤمر بالتصرف على اختياره وإرادته، ثم تارة ـ نحن ـ بالعراق وتارة بالموصل وتارة بالجزيرة وتارة بالشام، فبم تشيرون أن أصنع؟) فأشار عليه أصحابه بالتوجه إلى بلاط السلطان السلجوقي في أصفهان[٥]، فوافق على ذلك واتجه إلى هناك حيث

---

(١) الباهر ص ١٦، ١٧، ٢٤ ـ ٢٦، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين، ١ ـ ٦٧، ١ ـ ٦٨، ١ ـ ٧٣ ـ ٧٤.

(٢) المصدران السابقان، نفس الصفحات.

(٣) الفارقي، ميافارقين، مخطوطة، ورقة ١٠٠ أ ـ ١٠٠ ب، ولم تحدد المصادر إقطاعات زنكي الأخرى.

(٤) انظر الفصل الأول: (نسب زنكي ونشأته السياسية).

(٥) الكامل ١٠ ـ ٢٣٧ (باختصار)، الباهر ص ٢٧، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين ١ ـ ٧٤، وابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ٣٠.

أكرمه السلطان وأقطعه البصرة وأعاده إليها للقيام بصد هجمات الأعراب، كما طلب منه مراعاة أحوال واسط والدفاع عنها[١].

وهكذا غدا زنكي مرتبطاً كمقطع بالسلطان نفسه، وصارت بينهما التزامات سياسية وحربية، وعندما حاصر السلطان محمود بغداد عام (٥١٩ ـ ٥٢٠ هـ) طلب منه مساعدته فلعب زنكي دوراً أساسياً في إنهاء القتال[٢]. مما أهله لتولي منصب شحنكية العراق (إضافة إلى ما بيده من الإقطاع)[٣]. ولم تشر المصادر إلى التزامات زنكي تجاه السلطان طيلة هذه الفترة، فيما عدا الالتزامات الحربية والسياسية.

وفي عام ٥٢١ هـ اتفق زنكي مع الوفد الذي قدم من الموصل لمطالبة السلطان بإقرار ابن البرسقي هناك[٤]، على قيام أعضاء الوفد بمطالبة السلطان بتوليته بدلاً من الأمير المذكور، فوافق السلطان على ذلك بعد أن قدم إليه مبلغاً من المال، وولى زنكي (البلاد جميعها وكتب منشوره إلى بغداد)[٥]، وقد أيد الخليفة هذا الإجراء[٦].

استخدمت المراجع عدة (ألفاظ) لتشير إلى عملية إقطاع السلطان الموصل وأعمالها لزنكي، منها (تولية)[٧] و(تفويض)[٨] و(إيفاء)[٩]

---

(١) انظر الفصل الأول: (نسب زنكي ونشأته السياسية).

(٢) انظر الفصل الأول.

(٣) الكامل ١٠ ـ ٢٤٤، الباهر ص ٣١.

(٤) انظر الفصل الأول.

(٥) الكامل ١٠ ـ ٢٤٦، الباهر ص ٣٥، ونقل عنه أبو شامة، الروضتين ١ ـ ٧٦.

(٦) ابن خلكان، وفيات ٢ ـ ٧٩.

(٧) الكامل ١٠ ـ ٢٤٦، الباهر ص ٣٥، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين، ١ ـ ٧٦، ابن خلكان، وفيات ٢ ـ ٧٩.

(٨) ابن الجوزي، المنتظم ١٠ ـ ٥.

(٩) الفارقي، ميافارقين، مخطوطة، ورقة ١٠٨ أ ـ ١٠٨ ب.

و(تمليك)[١]، وهي لا توضح نوعية الالتزامات التي فرضها السلطان على زنكي مقابل إقطاعه هذه المناطق، ففيما عدا اشتراطه عليه الدفاع عن البلاد ضد الصليبيين، وتسليمه ولديه ليكون أتابكاً لهما يحكم باسمهما[٢] فإن المصادر لم تشر فيما إذا ألحقت بذلك التزامات مالية سنوية، كما أن تطور الأحداث في المستقبل لم يشر إلى شيء من ذلك فيما عدا مرتين، أولاهما عام ٥٢٣ هـ حينما حاول السلطان محمود عزل زنكي عن الموصل وتوليتها لدبيس بن صدقة، فقام زنكي بتقديم مئة ألف دينار مع هدايا ضخمة للسلطان كي يبقيه في منصبه، فوافق هذا على ذلك[٣]. وثانيتهما عام ٥٣٨ هـ حينما حاول السلطان مسعود غزو الموصل بسبب موقف زنكي العدائي منه، فأقنعه هذا بالعدول عن ذلك مقابل تقديم مبلغ قدره مئة ألف دينار، دفع منه عشرين ألفاً مواد عينية، ثم اضطر السلطان إلى التنازل عن القسم المتبقي استمالة له ضد أمراء الأطراف الذين خرجوا عليه[٤]، مما يشير إلى عدم وجود التزامات مالية بين الطرفين في الأوقات الاعتيادية، سوى اعتماد زنكي على نفسه في تجهيز قواته لقتال الصليبيين دون مساعدة السلطان، بينما كان على السلطان قبل تولية زنكي إمداد ولاته على الموصل بالأموال والعساكر[٥]، لهذا الغرض، ويجب أن نلاحظ أن اشتراط السلطان على زنكي (فتح الرها) مقابل عدم غزوه للموصل، لم يكن سوى محاولة لتأكيد التزامات زنكي الحربية تجاهه.

---

(١) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٤٣.

(٢) انظر ما يلي من هذا الفصل.

(٣) المنتظم ١٠ ـ ١١، الكامل ١٠ ـ ٢٤٩، مفرج الكروب ١ ـ ٤٤، وانظر الفصل الثاني: (علاقات زنكي بالخلافة والسلطنة).

(٤) الباهر ص ٦٥ ـ ٦٦، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين ١ ـ ٩٢ ـ ٩٣، وابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ٩٠ ـ ٩١.

(٥) الباهر ص ٦٥، ونقل عنه أبو شامة، الروضتين ١ ـ ٩٣.

وبعد أن استولى زنكي على حلب عام ٥٢٢ هـ، أراد أن يعزز ذلك بموافقة السلطان الرسمية، فذهب في العام التالي إلى عاصمة السلطان (فوطئ بساطه وعاد بالتواقيع السلطانية بملك الغرب كله)[١]، وبذلك (استقر لزنكي ملك الموصل والجزيرة والرحبة وحلب، والتوقيع له بجميع البلاد الشامية وغيرها)[٢].

ومن استعراض علاقة زنكي، بعد توليته الموصل، بالسلطان السلجوقي[٣]، يتضح أنه كان يتمتع باستقلال واسع، وأن الالتزامات الإقطاعية التي كانت تربطه بالسلطان، وهي التبعية السياسية والحربية، كانت محدودة الأثر، ثم تحولت إلى موقف عدائي وقفه ضد السلطان، وقد أوضح ابن الأثير ذلك بقوله: (كان زنكي يدفع أصحاب الأطراف للخروج على السلطان، فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً إلى زنكي وطلب منه أن يجمعهم على طاعته، فيصير كالحاكم على الجميع، وكلهم يداريه ويخضع له، ويطلب منه أن تستقر القواعد على يده)[٤] (وكان ـ السلطان ـ كلما انفتق عليه فتق نسبه إلى زنكي.. وكان ظنه صادقاً ـ فإن زنكي كان يفعل ذلك ـ لئلا يخلو وجه السلطان من شاغل، ليتمكن هو من فتح البلاد والتمكن في الملك)[٥].

أدرك زنكي ضرورة توزيع الإقطاعات على أمرائه وجنده، نظراً لطبيعة الظروف الحربية والسياسية التي جابهتها إمارته، حيث انتشرت مجموعة من الإمارات المحلية المتنافسة في الجزيرة والشام والجبال وشرقي الموصل،

---

(١) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٤٣.
(٢) المصدر السابق ٢ ـ ٢٤٤.
(٣) انظر الفصل الثاني: (علاقات زنكي بالخلافة والسلطنة).
(٤) الباهر ص ٨١.
(٥) المصدر السابق ص ٦٥.

فضلاً عن إمارات الصليبيين، فكان ذلك يحتم اتباع الأساليب التي تضمن له تشكيل قوة عسكرية متمكنة، يخلص أفرادها لأميرهم ومصلحة إمارتهم، بناء على وجود مصالح مشتركة، وليس ثمة في تلك الفترة ما هو أحسن من الأسلوب الإقطاعي لضمان تكوين الجندي المخلص والجيش القوي المنظم.

لذلك كان أول عمل قام به زنكي عند دخوله الموصل عام ٥٢١ هـ هو (تقرير قواعد الجنود وإقطاع العساكر)[١]، كما جعل من منهاجه قبل الاصطدام مع الصليبيين، الاستيلاء (على ما بقي من البلاد الشامية والجزرية، وإصلاح شأنها، والفراغ من إقطاع بلادها لجند يختبرهم ويعرف نصحهم وشجاعتهم)[٢]، وفي سبيل تحقيق ذلك عقد هدنة مؤقتة مع صليبيي الرها[٣].

لم تكن معظم مدن الموصل والجزيرة وشمالي الشام خاضعة لزنكي، عند توليته هذه المناطق رسمياً من قبل السلطان السلجوقي، لذا غدت معظم عمليات التوزيع الإقطاعي متوقفة إلى حد كبير على فتوحاته ومتدرجة زمنياً مع أوقات هذه الفتوحات، فكان كلما استولى على بلد (رتب أموره وأقطع أعماله الأجناد والأمراء)[٤]، وفضلاً عن قيام المقطع بالدفاع عن المنطقة، وإمداد جيوش زنكي بقوات من عنده في حالات القتال[٥]، فقد استخدم الأخير الإقطاع لأغراض أخرى أهمها الغرض الإداري، وهو قيام المقطع بإدارة أمور ولايته كوال من قبل زنكي على تلك المنطقة[٦]، أو لإبعاد

(١) المصدر السابق ص ٣٦.

(٢) المصدر السابق ص ٣٧.

(٣) الكامل ١٠ ـ ٢٤٧، الباهر ص ٣٧، مفرج الكروب ١ ـ ٣٦.

(٤) الكامل ١٠ ـ ٢٤٨.

(٥) الباهر ص ٨٠، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين ١ ـ ١١١ ـ ١١٢، وابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ١٠٣.

(٦) انظر جدول المقطعين فيما يلي.

الشخص الذي يرى في وجوده خطراً بإقطاعه منطقة بعيدة[١]، أو لإكرام بعض أمرائه المقرّبين اعترافاً بفضلهم[٢]، أو لإغراء بعض أعدائه بتسليم حصونهم مقابل إقطاعهم بعض المناطق[٣]، كما أنه تنازل عن بعض الحصون التي فتحها في ديار بكر لحسام الدين تمرتاش أمير بني أرتق، وذلك لأغراض سياسية تستهدف تقوية حلفه مع حسام الدين ضد أعدائه في المنطقة[٤].

وتقدم المصادر عدداً ضئيلاً من أسماء مقطعي زنكي من الأمراء، تكتفي بالقول بأنه (أقطع فلاناً الحصن الفلاني، أو المدينة الفلانية) دون إشارة إلى ظروف ذلك أو شروطه، ودون تحديد مكاني لكل مقطعيه، وفيما يلي أسماء الأمراء والقواد الذين أقطعهم زنكي بعض المدن والحصون:

الأمير جاولي الذي كان وصياً على ابن عز الدين مسعود، والي الموصل المتوفى عام ٥٢١ هـ، أقطع الرحبة تخلصاً من خطره[٥].

بهاء الدين بن القاسم الشهرزوري، قاضي قضاة الموصل، وهبه زنكي (أملاكاً وإقطاعاً)[٦] لم تحددها المصادر.

أبو بكر البكجي، أحد كبار أمراء زنكي، أقطع نصيبين[٧]، ولم تحدد المصادر تاريخ ذلك.

---

(١) ١٠ ـ ٢٤٦، الباهر ص ٣٥.

(٢) الباهر ص ١٦، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين ١ ـ ٦٧ ـ ٦٨، وعن ابن أبي طي، ١ ـ ٨٦ ـ ٨٧، ١ ـ ٥٣٨.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٠، الكامل ١١ ـ ٣٠، الباهر ص ٧٤، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٧٣.

(٤) الفارقي، ميافارقين، مخطوطة، ورقة ١٢١ ب ـ ١٢٢ أ، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

(٥) الكامل ١٠ ـ ٢٤٦، الباهر ص ٣٥، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين، ١ ـ ٧٦.

(٦) الكامل ١٠ ـ ٢٤٦.

(٧) الباهر ص ٧٩.

سوتكين الكرجي، أقطع حران عام ٥٢٢ هـ أو ٥٢٣ هـ، وفي عام ٥٢٧ هـ أعلن العصيان، وقد استطاع زنكي القضاء عليه عام ٥٣٣ هـ وعين نوابه هناك[١].

صلاح الدين الياغسياني (أمير حاجب)، أقطع حماة عام ٥٢٣ هـ[٢]. وحصن الخربة عام ٥٣١ هـ[٣]. وكفر طاب عام ٥٣٢هـ[٤].

زين الدين علي كجك بن بكتكين، أحد كبار قواد زنكي، أقطع إربل عام ٥٢٦هـ[٥]. وعقر الحميدية وأعمالها عام ٥٢٨ هـ[٦] وشهرزور[٧](؟).

شهاب الدين أميرك الجاندار، أقطع الرقة عام ٥٢٩ هـ[٨].

نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه (أقطعهما زنكي في بلد شهرزور إقطاعاً سنياً، وقيل إنه أقطع أسد الدين بالمؤزر)[٩]، وذلك بعد التجائهما إليه في أواخر عام ٥٣٢ هـ[١٠].

---

(١) ابن شداد، الأعلاق، قسم الجزيرة، مخطوطة ١٧ أ ـ ١٨ أ، مفرج الكروب ١ ـ ٨٤.

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨، ابن منقذ، الاعتبار ص ٩٧ ـ ٩٨.

(٣) ابن منقذ، الاعتبار ص ٧٨.

(٤) المصدر السابق ص ٤٥.

(٥) مفرج الكروب ١ ـ ٩٧، ١ ـ ١٥٤.

(٦) الباهر ص ١٣٥.

(٧) المصدر السابق ص ١٠٨ ـ ١٠٩، ١٣٥، مفرج الكروب ١ ـ ١٥٤. ويذكر الفارقي أن شهرزور كانت إقطاعاً لسيف الدين غازي ابن زنكي (ميافارقين، مخطوطة، ورقة ١٢٧ أ ـ ١٢٨ ب)، ويوافقه في ذلك ابن خلكان، ويضيف بأن السلطان (مسعود) هو مصدر هذا الإقطاع (وفيات ٣ ـ ١٧٦). وهذه الرواية لا تنسجم وما أجمعت عليه المصادر من استيلاء زنكي على شهرزور.

(٨) ابن شداد، الأعلاق، قسم الجزيرة، مخطوطة، ورقة ٢٤ أ ـ ٢٤ ب.

(٩) أبو شامة، الروضتين ١ ـ ٥٣٨.

(١٠) ابن خلكان، وفيات ٦ ـ ١٤٣ ـ ١٤٤.

عز الدين الدبيسي، من أكابر أمراء زنكي، كانت دقوقا (من جملة إقطاعه)(١).

ناصر الدين كوري بن جكرمش (والي الموصل ٤٩٥ ـ ٥٠٠ هـ). أقطعه زنكي إقطاعا كثيراً، اعترافاً بفضل والده(٢)، ولم تحدد المصادر هذا الإقطاع.

وهنالك واليان لم يقطعا مدينة بكاملها، بل أجزاء منها، وهما:

الأمير سوار بن إيتكين التركماني، ولي حلب عام ٥٢٤ هـ (وأجرى عليه زنكي الإقطاعات الكثيرة، واعتمد عليه في قتال الفرنج)(٣)، ولم تحدد المصادر هذه الإقطاعات، والراجح أنها كانت قريبة من حلب.

ونجم الدين أيوب الذي ولاه زنكي بعلبك عام ٥٣٤ هـ، بعد أن أقطعه ثلثها، وقيل: نصفها(٤).

وكان زنكي يمتلك بعض الإقطاعات، خارج حدود إمارته، حصل عليها في ظروف استثنائية، كتلك التي وهبه الخليفة المقتفي إياها، من أملاكه الخاصة في بغداد، رغبة في استمالته(٥) وقال متحدثاً عن ذلك: (هذه قاعدة لم يسمح بها لأحد من زعماء الأطراف، وهي أن يكون له في العراق إقطاع)(٦). ومن ثم اعتبر هذا النوع من الإقطاع شاذاً.

هذه هي الأسماء التي قدمتها المصادر عن مقطعي زنكي من كبار الأمراء والقواد، والراجح أن عدداً كبيراً من المقطعين لم تشر إليهم المصادر، إما إغفالاً منها، أو لعدم أهمية الأماكن التي أقطعت لهم من النواحي العسكرية والجغرافية، وربما لقلة اشتهار المقطعين أنفسهم.

---

(١) الكامل ١١ ـ ٤٥.
(٢) الباهر ص ١٦، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين ١ ـ ٦٧ ـ ٦٨.
(٣) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٤٥.
(٤) أبو شامة، الروضتين ١ ـ ٨٦ ـ ٨٧.
(٥) انظر الفصل الثاني: (علاقات زنكي بالخلافة والسلطنة).
(٦) الكامل ١١ ـ ١٨ ـ ١٩، الباهر ص ٥٤.

وقد وزعت الإقطاعات على الجند فضلاً عن الأمراء، وتشير النصوص الواردة في ذلك إلى أن زنكي كان يقوم بنفسه أحياناً (بتقرير قواعد الجند، وإقطاعهم)[١]، مما يشير إلى أن توزيع الإقطاعات على هؤلاء كان يتم أحياناً تحت إشراف زنكي المباشر، دون تدخل كبار الأمراء المقطعين، ومن المرجح فيما عدا ذلك، أن كبار هؤلاء الأمراء كانوا يقومون بدورهم بتوزيع الإقطاعات على جندهم، ويظهر أن كلاً من الجند والأمراء والمقطعين لم يكونوا يقومون بأنفسهم باستغلال أراضيهم، بل ترك هذا العمل للفلاحين الأصليين، على أن يدفعوا مقابل ذلك ضريبة سنوية[٢]. وهنالك عدد من النصوص يؤكد ذلك، منها ما أورده ابن العديم عن عدم سماح زنكي لجنده بالاعتداء على مزروعات الفلاحين خلال تحركاتهم، وأن لا يأخذوا (حفنة من التبن) إلا بثمنها، أو بأمر تحريري من ديوان الجند إلى رئيس القرية[٣]، مما يرجح القول بأن ملكية الأراضي كانت للفلاحين مباشرة، أو لذوي الملكيات الصغيرة، ومنها ما فعله زنكي عام ٥٢٩ هـ عندما استولى على معرة النعمان، حيث أعاد إلى أهاليها أملاكهم التي كان الصليبيون قد استولوا عليها أثناء استيلائهم على المعرة، بالرغم من أن مذهبه الحنفي يقضي بعودة الأملاك إلى الحكومة بعد استرجاعها من الكفار[٤].

ويورد ابن الأثير في الباهر الإجراء الذي اتخذه زنكي بشأن أمرائه المقطعين، إذ نهى هؤلاء (من اقتناء الأملاك) معللاً ذلك بقوله: (ما دامت البلاد لنا فأي حاجة بكم إلى الأملاك؟ فإن الإقطاعات تغني عنها، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية، وتعدوا عليهم، وغصبوهم أملاكهم)[٥]،

---

(١) الباهر ص ٣٥ ـ ٣٦، ٣٧.

(٢) الباهر ص ٧٩، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨٠.

(٣) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٤) الكامل ١١ ـ ٢٢، مفرج الكروب ١ ـ ٧٤.

(٥) ص ٧٧.

وهذا النص يؤكد بوضوح عدم وجود ملكية مباشرة للأرض من قبل المقطعين بل كانت هذه الملكية بيد الفلاحين[١] والأهالي[٢]، مقابل دفع ضريبة سنوية للحكومة والمقطعين[٣]. وقد كان لهذا الإجراء الذي اتخذه زنكي بمنع المقطعين من (التملك) نتائج إيجابية ولا شك، إذ أن اقتناء الأملاك من قبل هؤلاء يؤدي إلى أضرار عديدة قد تلحق بالأهالي وبمصلحة الإمارة على حد سواء، أولها ما يجر إليه المقطعين من ظلم للرعية واعتداء عليهم واغتصاب لأملاكهم، ذلك أن الأمير في حالة كهذه سيستخدم ما يمتلكه من نفوذ وسلطة للضغط على أصحاب الملك ببيعه ملكهم بأقل ثمن، وربما دفعهم إلى التنازل عنه بالقوة. وقد أدرك ابن الأثير مدى عدالة زنكي في هذه الخطوة فعلق عليها قائلاً: (فما أحسن هذا الخلق ـ أي خلق زنكي ـ وأحسن هذا النظر للرعايا، وأكثر هذه الشفقة عليهم، والرحمة لهم، لا خلاف، في أن عمارة البلاد من ثمرات العدل، وكف الأيدي المتطاولة إلى أهلها)[٤]. وفضلاً عن ذلك، فإن من نتائج اقتناء المقطعين للأملاك، تجمع الثروة بأيدي طبقة محدودة من الأمراء، واحتكار هذه الطبقة لموارد الرزق، بينما تبقى أكثرية السكان في فقر مدقع، هذا إلى أن اقتناء الأمراء للأملاك والعناية بها قد يؤدي بهم إلى عدم توجيه جهودهم لكل ما يتعلق بالجندية والدفاع، وهي الأمور التي أقطعوا الأراضي والأعمال من أجلها.

ويستدل من بعض الروايات أنهم يكن يشترط في المقطع البقاء في إقطاعه خاصة إذا كان من أصحاب الوظائف العالية التي تقتضي ملازمته لزنكي، وكان المقطع في هذه الحالة ينيب عنه من يقوم بإدارة إقطاعيته، كما حدث بالنسبة لجمال الدين محمد بن أيوب الياغسياني، أمير حاجب

---

(١) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨٣ ـ ٢٨٤، الباهر ص ٧٩.

(٢) الكامل ١١ ـ ٢٢، مفرج الكروب ١ ـ ٧٤ ـ ٧٥، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٥٩.

(٣) الباهر ص ٧٩، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨٠.

(٤) الباهر ص ٧٧.

زنكي، الذي أقطع عدة مدن، فأناب في كل منها من يعتمد عليه في إدارة شؤونها، كحماة التي أناب فيها ابنه شهاب الدين أحمد[١]، وحصن الخربة الذي أناب فيه عيسى الحاجب[٢]، وكذلك بالنسبة لزين الدين علي كجك ابن بكتكين قائد زنكي في الموصل، الذي أقطع إربل وعقر الحميدية وأعمالها، ومن المرجح أنه أناب عنه فيهما من يدير شؤونهما، بدليل عدم مغادرته الموصل إلى إقطاعه في إربل إلا عام ٥٦٣ هـ[٣].

وكان ديوان الجيش يقوم بإدارة شؤون الإقطاعات وحل المشاكل التي تنجم عنها، بدليل النص الذي أورده ابن العديم عن عدم السماح لجند زنكي بأخذ شيء من منتجات الفلاحين، حتى لو كان حفنة من التبن، إلا بثمنه أو بأمر تحريري من ديوان الجند إلى رئيس القرية[٤]، ولم تحدد المصادر الطريقة التي كان ديوان الجيش يشرف بموجبها على الإقطاعات، وكيفية جباية الضرائب. هذا إلى أن كثيراً من مشاكل الإقطاع وتنظيماته في عهد زنكي، أغفلت من قبل المؤرخين، ومن ثم بقيت هذه الجوانب دون حل وخاصة فيما يتعلق بالمقادير التي كان الإقطاعي يستحصلها من الضرائب، وطبيعة العلاقة بين الأمراء والجند المقطعين من جهة، وبين الأمراء والفلاحين من جهة أخرى، ومدى أحقية المركز في الإشراف على شؤون الإقطاعية، وأحقية المقطع في بيع إقطاعه أو التنازل عنه لآخر أو التبادل معه.

وتشير الروايات إلى أن نور الدين محمود بن زنكي أدخل نظام التوريث في الإقطاع، إذ كان (من آرائه الحسنة ما كان يعتمده في أمر أجناده. فإنه كان إذا توفي أحدهم، وخلف ولداً ذكراً، أقر الإقطاع عليه.. فكان الأجناد

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨، ابن منقذ، الاعتبار ص ٩٧ ـ ٩٨.

(٢) ابن منقذ، الاعتبار ص ٧٨.

(٣) الكامل ١١ ـ ١٣٤، الباهر ص ١٤٥.

(٤) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨٣ ـ ٢٨٤، وانظر: المقريزي، خطط ٢ ـ ٢١٩.

يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها، وكان ذلك من أعظم الأسباب لصبر الجندي في الحروب بين يديه)[١] ومن المرجح أن زنكي سبق ابنه في إدخال هذا النظام، إذ هنالك سابقة من عهده تشير إلى هذا الاتجاه الجديد في نظام الإقطاع، وذلك عندما قام بنقل طائفة من التركمان مع أميرهم الياروق إلى الشام (وأسكنهم بولاية حلب، وأمرهم بجهاد الفرنج، وملّكهم كل ما استنقذوه من البلاد التي للفرنج وجعله ملكاً لهم، فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويراوحونهم وأخذوا كثيراً من السواد[٢] وسدوا ذلك الثغر العظيم، ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ٦٠٠هـ[٣]، وقد أدى ذلك أيضاً، إلى قيام عمائر كثيرة بظاهر حلب، على ضفة نهر قويق، عرفت بالياروقية، وهي مشهورة هناك[٤]. ولا ريب في أن زنكي أدرك، كما أدرك ولده من بعده، مدى النتائج الإيجابية التي يمكن أن يؤدي إليها نظام التوريث هذا، وأهمها إخلاص جنده له، واستماتتهم في القضاء على ما يهدد إمارته من أخطار، لما في ذلك من مصلحة لهم ولأولادهم، الذين سيرثون إقطاعهم، من بعدهم.

٢ـ الأتابكية:

عرف زنكي بلقب (الأتابك)[٥] منذ تعيينه حاكماً على الموصل عام ٥٢١ هـ. واشتهرت الإمارة التي أسسها باسم (أتابكية الموصل)، والسلالة التي

---

(١) مفرج الكروب ١ ـ ٢٨٠.

(٢) المنطقة الزراعية المحيطة بحلب.

(٣) الباهر ص ٨٠، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين ١ ـ ١١١ ـ ١١٢، وابن واصل، مفرج الكروب ١ ـ ١٠٣.

(٤) أبو الفدا، المختصر ٥ ـ ٦٦.

(٥) تتألف كلمة (أتابك) من لفظين تركيين هما: (أتا) بمعنى أب و (بك) بمعنى أمير (أي الأمير الوالد): (ابن خلكان، وفيات ١ ـ ٣١٦). وأول من لقب بذلك هو نظام الملك، وزير ملكشاه، حين فوض إليه هذا تدبير المملكة عام ٤٦٥ هـ ولقبه بألقاب منها (أتابك)، وربما =

أعقبته في الحكم باسم الأتابكة ، وقد بدأت تسمية زنكي بهذا اللقب في شعبان عام ٥٢١ هـ عندما ولّاه السلطان محمود الموصل وسلمه ولديه ألب أرسلان، وفروخ شاه (المعروف بالخفاجي)، وجعله أتابكاً لهما[١].

وقد ترتبت على (أتابكية زنكي) نتائج عديدة، فقد كان عليه من الناحية الرسمية، أن يحكم باسم ألب أرسلان، أكبر الأميرين، وأن يخطب له، ولذلك أظهر للخلفاء والسلاطين وأصحاب الأطراف أن البلاد التي يحكمها (إنما هي للملك ألب أرسلان) وأنه نائب فيها (فكان إذا أرسل رسولاً أو أجاب على رسالة فإنما يقول: قال الملك: كذا وكذا)[٢]. وكان هذا الإجراء من قبل زنكي لا يعدو أن يكون شكلياً، إذ أن السلطة الفعلية كانت متركزة في يده، ولم يكن لأحد من ابني السلطان محمود أية سلطة عملية، بل كانا أشبه بالمحتجزين، إذ فرق زنكي بينهما فجعل أحدهما في أحد معاقل سنجار، والآخر تحت إشراف زوجته في الموصل[٣]. وربما استهدف من الخطبة لألب أرسلان، إلقاء الصفة الرسمية (الشرعية) على سياسته وأعماله مستغلاً اسم الملك السلجوقي.

= قصد به أبو الأمراء، أي أكبر الأمراء المقدمين، (وليس للأتابك وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهي، وغايته رفعة المحل وعلو المقام)، وكان الأتابك يكلف من قبل السلطان الحاكم بالوصاية على واحد أو أكثر من أبنائه الذين لم يبلغوا سن الرشد (القلقشندي صبح الأعشى ٤ ـ ١٨). Gibb, Damascus Chroicle, pp. 23-24.E.I.2 S.V.Atabak, (by cl.cahen).

(١) ابن خلكان، وفيات ١ ـ ٣١٥ ـ ٣١٦، ٢ ـ ٧٩ ـ ٨٠. ويشير البنداري، إلى أن الخفاجي لم يسلم إلى زنكي من قبل السلطان محمود، وإنما كان مقيماً لدى الأمير دبيس بن صدقة المزيدي، فانتزعه منه في إحدى الحروب: (السلجوق ١٨٧)، والمهم هو أن كلا الأميرين غدا تحت إشراف زنكي. ويشير ابن العماد إلى الخفاجي فقط (شذرات ٤ ـ ١٢٨)، أما ابن واصل (١ ـ ٢٣٣) فيخطئ بالمزج بين ألب أرسلان والخفاجي بقوله: إن زنكي استلم ألب أرسلان المعروف بالخفاجي. وانظر ما يلي من الفصل.

(٢) الباهر ص ٧١.

(٣) البنداري، آل سلجوق ص ١٨٧.

كما عمل زنكي على استغلال وجود هذين الملكين السلجوقيين، فقام بمحاولات ثلاث (٥٢٥ ـ ٥٢٩ هـ) لتنصيب ألب أرسلان على عرش سلاجقة العراق بالاتفاق مع الخليفة العباسي ضد السلطان السلجوقي في أصفهان، وقد استهدف من وراء ذلك جعل السلطة الفعلية لسلاجقة العراق بيده، باسم السلطان الشرعي المنصب، لكن هذه المحاولات انتهت جميعاً بالفشل[١].

إلا أن أهم ما ترتب على أتابكية زنكي هي تلك المؤامرة التي قام بها الملك الخفاجي عام ٥٣٩ هـ أثناء غياب زنكي عن الموصل[٢]، إذ اتفق الخفاجي وأنصاره على اغتيال نصير الدين جقر نائب زنكي في الموصل ومن ثم السيطرة على المدينة وإعلان العصيان ضد زنكي، وفي صباح الثامن (أو التاسع) من ذي القعدة عام ٥٣٩ هـ ركب جقر في موكبه، كعادته، واخترق شوارع المدينة متجهاً إلى الدار التي يقيم فيها الملك الخفاجي للتسليم عليه، وهنالك في الدهليز المفضي إلى القصر هاجمه المتآمرون وضربوه بالسيوف والسكاكين فمزقوا جسده[٣]، ونادوا بشعار الملك الخفاجي، فاضطربت المدينة وعمتها الفوضى، وخاف الأهالي عاقبة الأمور من غضبة زنكي وعقابه[٤]. ولكن أنصار الملك لم يأبهوا لذلك، مما اضطر عدداً من الحراس والأهالي إلى قتالهم[٥]، واستطاع القاضي تاج الدين

(١) انظر الفصل الثاني.

(٢) البنداري، آل سلجوق ص ١٨٧، ويخلط ابن الأثير بين الخفاجي وأخيه ألب أرسلان، مشيراً إلى أن بطل المؤامرة هو (الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجي) (الكامل ١١ ـ ٤١، الباهر ص ٧١)، ويصحح أبو شامة ذلك بقوله (ووهم ابن الأثير في قوله فالخفاجي غير ألب أرسلان على ما ذكره البنداري): (الروضتين ١ ـ ١٠٥) ورأي البنداري هو المؤكد، لأن الخفاجي هو الذي كان مقيماً في الموصل (السلجوق ص ١٨٧).

(٣) الكامل ١١ ـ ٤١، الباهر ص ٧١ ـ ٧٢، البنداري، السلجوق ص ١٨٧ ـ ١٨٨، ابن خلكان، وفيات، ١ ـ ٣١٦، مفرج الكروب ١ ـ ٩٥.

(٤) البنداري، آل سلجوق ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

(٥) الكامل ١١ ـ ٤١ ـ ٤٢، الباهر ص ٧٢، ونقل عنه أبو شامة، الروضتين ١ ـ ١٠٤، وابن واصل ١ ـ ٩٥ ـ ٩٦.

يحيى الشهرزوري، أحد رجال زنكي، أن يخدع الملك الخفاجي، بأن أظهر أنه معه، وطلب منه التوجه إلى القلعة واتخاذها مقراً له، لكي يقوم من هناك بتجميع الأموال والسلاح والجند كي يسهل عليه السيطرة التامة على البلد (إذ ليس دون الموصل مانع)، فوافق الملك على ذلك واتجه هو وأنصاره مع القاضي إلى القلعة، وعندما دخلوها قبض عليهم جند زنكي(١)، وبعد أيام قليلة قتل الخفاجي(٢) وأنصاره داخل القلعة(٣).

وهكذا أحبطت هذه المحاولة التي كادت أن تطيح بحكم زنكي، وقد ساعدت على القيام بها عوامل عديدة، منها أن زنكي كان بعيداً عن الموصل مشغولاً بحصار قلعة البيرة الصليبية، ومنها أن نصير الدين جقر، نائبه في الموصل ، كان ظالماً(٤)، وكانت علاقته بالملك الخفاجي غير ودية إذ كان كثيراً ما يعارضه في آرائه ووجهته(٥). وبلغت المشكلة غايتها عندما راح (جقر) يبسط لسانه في الخفاجي ويتهدده، بعد أن أخذ يحس بطموح هذا الملك وسعيه لفرض كلمته في الموصل، كما كان تشجيع أنصار الخفاجي له على المضي في الطريق عاملاً هاماً على القيام بالمؤامرة(٦)، هذا فضلاً عن مساورة الشكوك للخفاجي وتخوفه من تهديدات جقر المستمرة مما دفعه إلى الاجتماع بأنصاره والقيام معهم برسم خطة الاغتيال(٧).

---

(١) المصادر السابقة، نفس الصفحات، البنداري، السلجوق ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

(٢) البنداري، السلجوق ص ١٨٨.

(٣) الباهر ص ٧٣، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين ١ ـ ١٠٤.

وينفرد ابن العديم: (زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨٠ ـ ٢٨١) في القول بأن زنكي هو الذي قام بنفسه بقتل الخفاجي، لدى عودته إلى الموصل، وهي رواية ضعيفة.

(٤) البنداري، السلجوق، ص ١٨٧ ـ ١٨٨، ابن خلكان، وفيات ١ ـ ٣١٥ ـ ٣١٦.

(٥) ابن خلكان، وفيات ١ ـ ٣١٦.

(٦) الكامل ١١ ـ ٤١، الباهر ص ٧١.

(٧) البنداري، السلجوق ص ١٨٧ ـ ١٨٨، ابن خلكان، وفيات ١ ـ ٣١٦.

اضطر زنكي إلى فك الحصار عن البيرة، ومغادرتها، خوفاً من حدوث نتائج خطيرة في الموصل قد تهدد حكمه[(١)]، واكتفى في بداية الأمر بإرسال قائده زين الدين علي كجك ليحل محل جقر[(٢)]، ثم ذهب هو بنفسه بعد ذلك لإقرار الأوضاع هناك.

أبدى زنكي، بعد مقتل الخفاجي، عطفه على الملك الآخر (ألب أرسلان)، فألغى احتجازه في أحد معاقل سنجار، ومنحه حرية أكثر، وعين له حراساً وموظفين لخدمته، واهتم بمراسيم جلوسه وركوبه، وطالب رجاله بالاهتمام بأمره واحترامه وتلبية مطالبه، وقد استهدف من هذه الإجراءات تغطية مقتل الملك الخفاجي[(٣)]، كي لا يثير السلاجقة ضده، ومحاولة منه لاستغلال ألب أرسلان لتحقيق أمله في المستقبل، وذلك بالمطالبة بتوليته سلطنة العراق، بعد وفاة عمه السلطان مسعود، ليصبح زنكي المتحكم الفعلي باسم السلطان الجديد[(٤)].




(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠، الكامل ١١ ـ ٤٢، الباهر ص ٧٠ ـ ٧١.
البنداري، السلجوق، ص ١٨٦، ابن شداد، الأعلاق (قسم الجزيرة) مخطوطة، ورقة ٣٦ أ ـ ٣٦ ب.

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨١، الكامل ١١ ـ ٤٢، ابن خلكان، وفيات ١ ـ ٣١٦ البنداري، السلجوق ص ١٨٨.

(٣) البنداري، السلجوق ص ١٨٨.

(٤) الكامل ١١ ـ ٤١، الباهر ص ٧١، ونقل عنه: أبو شامة، الروضتين ١ ـ ١٠٤ وابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ٩٥.

الفصل العاشر
النظم الإدارية

عند البحث عن النظم الإدارية لأية دولة أو إمارة إسلامية، يجب التأكيد دائماً على نقطتين، أولاهما أن سكوت المصادر عن بعض التنظيمات والأمور الإدارية في بعض العهود لا يعني عدم وجودها، بل من المحتمل في أغلب الظن أن المصادر، بتركيزها على القضايا السياسية والحربية، قد أهملت الأمور الإدارية، وثانيتهما أن حدوث أي تحول سياسي أو حربي، والانتقال من عهد إلى عهد آخر، وسقوط الأمراء وقيام آخرين بدلهم، لا يعني سقوط التنظيمات الإدارية قاطبة وقيام أخرى جديدة لا علاقة لها بالتنظيمات السابقة، إذ أن ذلك يناقض استمرارية التماسك (البيروقراطي) والاجتماعي بعد حدوث هذه التحولات، مما يحتم القول بأن هذه التنظيمات لا يصيبها تغيير جوهري خلال تلك الانقلابات.

وهكذا فإن تحول الموصل من عهد ولاة السلاجقة (٤٨٩ ـ ٥٢١ هـ) إلى عهد الأتابكة، لم يؤد إلى ظهور مؤسسات إدارية جديدة بالمرة على المنطقة، بل إن معظم هذه المؤسسات ظل موجوداً في العهد الجديد مع إجراء بعض التعديلات، واستحداث عدد قليل من المناصب التي اقتضتها الظروف السياسية والعسكرية الجديدة.

أقام زنكي تنظيماته الإدارية على أكتاف مجموعة من الموظفين منحهم نوعاً من الاستقلال الذاتي في ممارسة شؤونهم الإدارية، ولكن تحت إشرافه

التام ومراقبته الدقيقة، وكان هؤلاء الموظفون يعملون في أربعة مجالات رئيسية هي:

١ـ محافظة قلعة الموصل وسائر قلاع الإمارة، وكانت تسمى في كثير من الأحيان: النيابة، ويدعى متوليها (النائب).

٢ـ ولاية المدن والأعمال.

٣ـ الوزارة.

٤ـ الدواوين.

نيابة الموصل أو محافظة القلعة:

أنشأ زنكي هذا المنصب حال دخوله الموصل في رمضان عام ٥٢١ هـ. وقد أطلقت المصادر عليه لقب النيابة أحياناً[١]، ودزدارية قلاع الإمارة أحياناً أخرى[٢]. ولما كانت كلمة دزدار الأعجمية تعني حافظ القلعة، فمن الممكن تسمية هذا المنصب بالمحافظة، أيضاً، وإذا كان زنكي مشغولاً معظم أوقاته في حروبه وتنقلاته، كان مكوثه في الموصل قليلاً، مما يرجح أن يغدو نائبه فيها المسؤول الأول، وأن يتمتع بسلطات عملية واسعة.

ولم تشر المصادر إلى مهام هذا الموظف بالتفصيل، والأعمال التي كلف القيام بها، وتكتفي بالإشارة إلى أنه كان على النائب أن يدير شؤون الموصل وبقية أجزاء الإمارة نيابة عن زنكي، وأن يكاتب السلطان السلجوقي والخليفة العباسي عن أحوال الإمارة خلال تغيب الأمير[٣].

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٣ ـ ٢٧٠، ابن خلكان: وفيات الأعيان ١ ـ ٣١٥.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص ٣٥، الكامل ١٠ ـ ٢٤٦، أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين ١ ـ ٧٦، ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ١ ـ ٣٤، ابن خلدون: تاريخ ٥ ـ ٥٥.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٣.

ونصوص أخرى تشير إلى بعض المهام التفصيلية التي كان يمارسها النائب، كجمع الضرائب وجباية الأموال[١]، والإشراف المستمر على أحكام تحصينات الموصل وتعميق خنادقها[٢]. فضلاً عن الأعمال العسكرية المحضة كالدفاع عن المدينة[٣]، والقيام بحملات توسعية بناء على أوامر زنكي[٤].

وهذه الإشارات جميعاً توضح كيف أن نائب زنكي كان يمارس سلطات واسعة في شتى المجالات الإدارية والمالية والعمرانية والعسكرية، ذلك أنه كان معتمده الأول في إمارته، ينطبق عليه ما ذكره القلقشندي عن هذا المنصب في العهدين الأيوبي والمملوكي، من أن النائب هو: القائم مقام السلطان في عامة أموره، أو غالبها[٥].

إن الألقاب التي أطلقت على النائب تقودنا ثانية إلى مشكلة صلاحياته وطبيعة اختصاصه، فهو من جهة (دزدار) قلعة الموصل وسائر قلاع الإمارة، ومن جهة أخرى (نائب زنكي)، فإذا ما قارنا هذين المنصبين بتنظيمات العصرين الأيوبي والمملوكي، نجد أنهما منفصلان عن بعضهما، فالنائب ـ هناك ـ كان يشترك مع السلطان في منح لقب الإمارة وتوزيع الإقطاعات وتعيين الموظفين، ويعرض عليه كشفاً بأسماء الأشخاص الذين يرى وجوب ترشيحهم للمناصب المختلفة، فيقرها السلطان دون أن يرفض تعيين أحد المرشحين إلا نادراً[٦]. وكان من أعمال النائب ـ كذلك ـ توقيع المراسيم

(١) ابن خلكان: وفيات ١ ـ ٣١٥ ـ ٣١٦.
(٢) المصدر السابق، نفس الصفحات.
(٣) المصدر السابق، نفس الصفحات.
(٤) ابن الأثير: الكامل ١١ ـ ٥ ـ ٦ الباهر ص ٦٤.
(٥) صبح الأعشى ٥ ـ ٤٥٣.
(٦) المقريزي: الخطط ٢ ـ ٢١٥، السبكي: معيد النعم ص ٣٤.

والمنشورات، وتنفيذ القوانين[١]، والركوب على رأس فرق الجيش في المواكب الرسمية[٢]، وترؤس اجتماعات ديوان الجيش[٣]، وتلقي مكاتبات نواب المدن بصدد الأمور المتعلقة بنياباتهم[٤]. وهكذا كان النائب هو المتصرف المطلق في شتى المجالات العسكرية والمالية والإدارية[٥]. وقد أكد (فان برشم) على أن نائب السلطنة كان على رأس الموظفين، وله كل الاختصاصات التي لنواب السلطنة في الأقاليم الأخرى[٦].

أما (نائب القلعة) فهو غير نائب السلطنة، إذ أن اختصاصات الأول تنصب على الإشراف على فتح وإغلاق باب القلعة المخصص لدخول الجند وخروجهم[٧]، وتفقد أسوار القلعة ومنافذها، والعمل على إصلاحها وصيانتها، ثم ما لبث أن أصبح من اختصاصه ـ كذلك ـ الفصل فيما يقع بين العامة من الخصومات[٨]. وكان يتمتع باستقلال كبير عن النائب[٩].

وإضافة إلى هذين المنصبين ـ في العاصمة ـ كان هناك منصب ثالث هو منصب الوالي، وكانت مهمة هذا الموظف هي الاستعلام عن مجددات ولايته من قتل أو حريق كبير أو نحو ذلك من نوابه، ثم تكون مطالعة جامعة بذلك تحمل إلى السلطان صبيحة كل يوم ليقف عليها[١٠]. وكان هذا الموظف يتولى ـ كذلك ـ تنفيذ الأحكام، وإقامة الحدود، وتعقب المفسدين ومثيري الفتن

---

(١) المصدر السابق: الخطط ٢ ـ ٢١٤، العمري: التعريف بالمصطلح الشريف ص ٦٥ ـ ٦٦.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٤ ـ ١٧.
(٣) المصدر السابق: ٤ ـ ١٦، المقريزي: الخطط ص ٢١٤.
(٤) المقريزي: ٢ ـ ٢١٥.
(٥) المصدر السابق: ٢ ـ ٢١٥.
(٦) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية ص ٢١٥.
(٧) القلقشندي: صبح الأعشى ٤ ـ ٢٢ ـ ٢٣.
(٨) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك ص ٢٣١ عن: الخالدي: المقصد ص ٧.
(٩) المصدر السابق، نفس الصفحة عن: Van Berchem: Corpus, Egypte, 1/ 210-211.
(١٠) القلقشندي: صبح الأعشى ٤ ـ ٦٠.

ومدمني الخمر، ومعاقبة كل منهم حسب جريمته، فضلاً عن مراقبة أبواب العاصمة، والطواف في إحياء التجارة والمال[١]. وهكذا يبدو أن مهمة هذا الموظف كانت أشبه بمهمة البلدية في الوقت الحاضر، أما مهمة نائب القلعة فأشبه بمهمة الحامية العسكرية، وأما النائب فأشبه برئيس الوزراء.

يتضح مما سبق أن نائب زنكي كان يجمع بيده هذه السلطات الثلاث، مما يشير إلى مدى اتساع صلاحياته، كما تتضح لنا تفاصيل هامة عن المهام التي كان يقوم بها بمجرد مقارنتها بنظم العصرين الأيوبي والمملوكي التي هي استمرار للنظم الإدارية للفترة السابقة، لا سيما الفترة الزنكية ـ النورية، كما يؤكد القلقشندي بقوله: (إن الدولة الأيوبية لما طرأت على الدولة القاطمية وخلفتها في الديار المصرية، خالفتها في كثير من ترتيب المملكة، وغيرت غالب معالمها، وجرت على ما كانت عليه الدولة الأتابكية بالموصل ـ زمن عماد الدين زنكي ـ ثم ولده الملك العادل نور الدين محمود بالشام)[٢]. ومن ثم فبالإمكان تتبع الخطوط العريضة لنظم زنكي الإدارية على ضوء المعلومات الكثيرة المتيسرة عن نظم العهدين الأيوبي والمملوكي.

ورغم ذلك فإن هناك أسئلة عديدة عن هذا المنصب لا تحظى بجواب، أسئلة عن علاقة النائب ببقية الموظفين، تقف إزاءها صعوبات شتى أهمها سكوت المصادر عن تحديد الاختصاصات بين المؤسسات الإدارية، وإعطاء تفاصيل واضحة عن مدى نشاط كل منها، والأخطر من هذا أن بعض المصادر تجعل العمل الإداري الواحد مشتركاً بين عدة مؤسسات أو موظفين، مما يزيد في صعوبة التوصل إلى اختصاص كل موظف.

ولا ريب أن هذه الصعوبات تكمن أساساً في طبيعة النظم الإدارية لتلك الفترة، فهي رغم تبلورها إلى حد ما في العهدين الأيوبي والمملوكي، كانت

---

(١) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك ص ٢٣٠.

(٢) صبح الأعشى ٤ ـ ٥.

تعاني مشكلة التداخل بين المؤسسات الإدارية، وعدم وجود خطوط واضحة للتخصص، ويظهر أن بعض الموظفين كانت اختصاصاتهم مشتركة في عدد من الأمور، كما هو الحال بين والي القاهرة والمحتسب مثلاً، ولسنا ندري ماذا كان يحدث في مثل هذه الحالات، ولكن الباحث يصل إلى أن سلطة الوظائف كانت تتوقف إلى حد كبير على شخصية شاغليها، وإن أحدهم كان يقوي نفوذه وتبرز مواهبه فيطغى على اختصاص غيره.. ومثل هذا الاضطراب في الوظائف واختصاصها أمر غير مستغرب في بيئة لم تكن النظم الإدارية فيها قد وضعت على أسس وقوانين لا تقبل التفسيرات المختلفة[١].

وأغلب الظن أن السلطات الإدارية الواسعة التي كان نائب زنكي يمارسها كانت تتطلب جهازاً إدارياً واسعاً لتنفيذ الأوامر والقرارات؛ رغم أن المصادر اكتفت بالإشارة إلى أن النائب كان يساعده في الحكم وال يعينه هو وله الحق في عزله إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك[٢]. وربما يشير النص الذي أورده البنداري[٣] عن عقاب زنكي لأصحاب نائبه جقر بقوله: (وأحل بنوابه نوائبه، وسلبهم القوة والقوت) إلى احتمال وجود نواب ثانويين يعتمد عليهم نائب زنكي في مهامه.

نواب زنكي في الموصل:

١ـ نصير الدين جقر بن يعقوب ٥٢١ ـ ٥٣٩ هـ:

هو أبو سعيد جقر بن يعقوب الهمذاني الملقب: نصير الدين[٤]. وجقر اسم أعجمي، ويرجح أنه كان مملوكاً[٥]. وكان جقر أعظم أصحاب زنكي منزلة، وقد لعب دوراً هاماً في توليته على الموصل عام ٥٢١ هـ[٦].

---

(١) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك ص ٢٦٠.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١ ـ ٣١٦، ابن العماد: شذرات الذهب ٤ ـ ١٢١ ـ ١٢٢.

(٣) تاريخ السلجوق ص ١٨٨.

(٤) ابن خلكان ١ ـ ٣١٥.

(٥) المصدر السابق ١ ـ ٣١٦.

(٦) الباهر ص ٣٤ ـ ٣٥.

اتبع جقر سياسة إدارية تضاربت المصادر في تحديد سماتها، بل إن المصدر الواحد لم يستطع تجنب هذا التناقض، فابن خلكان يصفه بأنه عرف بالعدل والانصاف وتجنب الجور والظلم، ثم يشير إلى أن الطابع العام لسياسته وما اشتهر عنه هو الظلم وأنه كان (جباراً عسوفاً سفاكاً مستحلاً للأموال)[١]. ويشير الفارقي إلى ما لقي الناس منه من (شدة الجور والظلم والقتل والمصادرات والأقساط)[٢]. ويرد في رواية ابن القلانسي أن جقر كان يسعى لجمع المال بمختلف الطرق الحلال والحرام، وأنه كان يحاول تغطية سياسته المالية الظالمة هذه بالحيلة والرفق بالقول، وكان لبقاً في ذلك حتى وصفت سياسته بأنها (القصد السديد في سياسة الجمهور، والغاية في مرضي السياسة، والنهاية في قوانين الرئاسة)[٣].

كان ظلم جقر ـ كما يشير ابن خلكان ـ أحد أسباب المؤامرة التي دبرها أحد الأمراء ضده[٤]. وكان زنكي يقول عنه (أنه يخافني وما يخاف الله)[٥]. ويمكن توضيح هذه التناقضات بأن جقر اتبع سياسة شديدة قاسية ممتزجة بأسلوب من الرفق واللباقة أضفى على سياسته سمات العدل، ودفع بعض المؤرخين إلى عدم التاكيد على أي من الجانبين، ويظهر أنه كان قد اهتم إلى حد كبير بتجميع الأموال لحسابه وحساب أهله وأقاربه، حتى إن زنكي لدى عودته إلى الموصل بعد مقتل جقر استخرج ذخائره، وصادر معظم ما لأولئك الأقارب[٦].

إن أهم الأعمال التي أنجزها جقر خلال فترة نيابته هي أحكامه لأسوار الموصل، وحفره لخنادقها، ودفاعها عنها ضد حصار الخليفة المسترشد

(١) وفيات الأعيان ١ ـ ٣١٥ ـ ٣١٦.

(٢) تاريخ آمد وميافارقين عن: حاشية ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٢٨١.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

(٤) وفيات الأعيان ١ ـ ٣١٦.

(٥) ابن منقذ: الاعتبار ص ١٥٧.

(٦) ابن خلكان ١ ـ ٣١٦.

العباسي عام ٥٢٧ هـ الذي اضطر أخيراً إلى الانسحاب بسبب صمود جقر[١]. كما قام جقر بقيادة جيوش زنكي لدى مهاجمة حصون الأكراد في الجهات الجبلية شمالي الموصل، حيث تمكن من الاستيلاء على معظمها[٢].

كان يساعد جقر في حكم الموصل وال يعينه هو، وقد ولى أولاً رجلاً يدعى (القزويني) فسار سيرة قبيحة وظلم الناس، فكثرت شكواهم منه مما اضطر جقر إلى عزله وتولية (عمر بن شكله) مكانه، وقد أساء عمر السيرة أكثر من سلفه[٣]، وربما كان هذا أحد الأسباب الرئيسية في وصف المؤرخين لجقر نفسه بالظلم وسوء السيرة.

٢ـ زين الدين علي كجك بن بكتكين ٥٣٩ ـ ٥٤١ هـ:

تعرف زنكي على زين الدين منذ أيام طفولته عندما توفي والده وهو في العاشرة، فعني به مماليكه وأصحابه، وكان زين الدين من بينهم، ولم يكن هو الآخر قد جاوز مرحلة الطفولة[٤]. ومنذ ذلك الوقت ظل زين الدين ملازماً لزنكي. وعندما تولى هذا أمره الموصل كان زين الدين قد غدا من أبرز رجاله، واتضحت قابليته في المجال العسكري، لذا جعله زنكي أحد قادته الكبار[٥]، حيث اشترك معه في معظم حروبه في بغداد والشام ومناطق الأكراد. ولشدة حب زنكي له واعتماده عليه أقطعه عدداً من المدن المهمة

(١) المصدر السابق ١ ـ ٣١٥ ـ ٣١٦.
(٢) الكامل ١١ ـ ٥ ـ ٦، الباهر ص ٦٤.
(٣) ابن خلكان: وفيات ١ ـ ٣١٦، ابن العماد: شذرات الذهب ٤ ـ ١٢١ ـ ١٢٢.
(٤) الباهر ص ١٥.
(٥) ابن العديم: زبدة الحلب ٢ ـ ٢٦٤ ـ ٢٦٥ حيث يشير إلى أن زين الدين كان من أمراء زنكي الأصفهلارية، وهو لقب فارسي بمعنى رئيس الجيش (حاشية مجد الدين بن الأثير، رسائل ص ١٧١)، أو مقدم العسكر (القلقشندي: صبح الأعشى ٦ ـ ٨).

التي استولى عليها كإربل وعقر الحميدية شرقي الموصل، وشهرزور والرها، ولما كان زين الدين منهمكاً في مهمته كقائد عسكري، لم يستطع أن يشرف بنفسه على إقطاعاته مما اضطره أن يعين فيها نواباً يديرونها باسمه[١].

كان زين الدين رجلاً صالحاً[٢]، ذا أصل تركماني[٣]، لقب بكجك أي: القصير اللطيف، وكان معروفاً بالقوة والشجاعة والإقدام[٤]، رؤوفاً بالفقراء، مواسياً للمرضى[٥]، اشتهر بالمحافظة على حسن العهد وأداء الأمانة، ولم يمارس غدراً قط[٦]، وبلغ من تقواه أن قال عنه زنكي: (إنه يخاف الله ولا يخافني)[٧]. هذه الصفات جميعاً جعلته موضع ثقة سيده، ورشحته لأن يكون نائبه في الموصل، ولأن يقطع عدداً من المدن المهمة، فضلاً عن بقائه قائداً عسكرياً ممتازاً.

وما أن تولى زين الدين منصبه الجديد عام ٥٣٩، حتى سلك بالناس (غير الطريق التي سلكها جقر)[٨]، فتجنب ظلم الأهالي وأشاع فيهم العدل (فرأوا منه كل خير)[٩]، وبالرغم من أنه لم يبلغ مكانة جقر الإدارية أو (يضاهي كفاءته ومضاءه) إلا أنه ـ بسياسته التي انتهجها ـ تمكن من تسكين نفوس أهل الموصل، وإشاعة الاطمئنان في قلوبهم، وبذل جهده في حماية

---

(١) الباهر ص ١٠٩، ١٣٥، ابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ١٥٤، ويخالفهما الفارقي في أن شهرزور كانت إقطاعاً لسيف الدين غازي بن زنكي (تاريخ آمد، مخطوطة ورقة ١٢٧ أ ـ ١٢٨ ب) وإلى ذلك يذهب ابن خلكان: وفيات ٣ ـ ١٧٦.

(٢) وفيات الأعيان ١ ـ ٣١٦.

(٣) الذهبي: دول الإسلام ٢ ـ ٥٥، ابن العماد: شذرات ٤ ـ ٢٠٩.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ١ ـ ٢٧٢ ـ ٢٧٣، الذهبي: دول الإسلام ٢ ـ ٥٥.

(٥) ابن منقذ: الاعتبار ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

(٦) الباهر ص ١٣٥.

(٧) ابن منقذ: الاعتبار ص ١٥٧.

(٨) الباهر ص ٧٢ ـ ٧٣.

(٩) الفارقي: تاريخ آمد (مخطوطة: ورقة ١٢٣ ب ـ ١٢٤ أ)، وفيات الأعيان ١ ـ ٣١٦.

الطرق وقضاء حوائج المحتاجين، والانتصاف للمظلومين (فاستقام له الأمر، وحسنت بتدبيره الأحوال)[١]. وكان من نتائج ذلك أن انتشر الأمن في المنطقة، وازداد عمران البلاد[٢]، وتحققت بهذا آمال السكان[٣].

٣- نائب زنكي في حلب:

أدرك زنكي أهمية حلب بالنسبة لأعماله العسكرية والسياسية في الشام فاتخذها قاعدة له في المنطقة واعتبرها عاصمته الإدارية هناك، وأقام فيها جهازاً إدارياً يشابه إلى حد ما ذلك الذي أقامه في الموصل، وجعل على رأس هذا الجهاز نائبه في حلب، ليقوم في منطقة الشام بما يقوم به نائبه في الموصل في الجهات الشرقية من إمارته[٤].

ولم تقدم المصادر توضيحاً كافياً عن عناصر النظام الإداري الذي اعتمده زنكي في حلب، وتكتفي بالإشارة إلى وظيفتين أولاهما رئاسة حلب والأخرى النيابة، وأن زنكي اكتفى في البداية بتعيين رئيس لحلب عام ٥٢٢ هـ لإدارة شؤونها[٥]، ثم عين نائباً فيها بعد ذلك بسنتين[٦].

كانت حلب قد بلغت درجة متقدمة في نظمها الإدارية، في الفترة التي سبقت سيطرة زنكي عليها، حيث أسهم عدد من كبار الموظفين في إدارة شؤونها المختلفة، فكان هناك منصب النيابة عن الأمير الذي تخضع حلب لممتلكاته[٧]. وأغلب الظن أن هذا كان يمثل السلطة العليا في حلب، إذ

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨١ - ٢٨٢.

(٢) الباهر ص ٧٣، أبو شامة: الروضتين ١ - ١٠٤.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨١ - ٢٨٢.

(٤) الباهر ص ٨٤.

(٥) الكامل ١٠ - ٢٤٧ - ٢٤٨، ابن العديم: زبدة الحلب ٢ - ٢٤٣.

(٦) المصدر السابق ٢ - ٢١٦.

(٧) المصدر السابق ٢ - ٢٢١.

أنه كان ينوب عن الأمير في إدارة المنطقة والإشراف على سائر موظفيها، كما كان هناك منصب الوزارة، وقد تعاقب على هذا المنصب ثلاثة وزراء في الفترة بين ٥١٦ هـ و ٥٢١ هـ، إذ كان هؤلاء عرضة للإقالة والتغيير نظراً لتقلب سياسة الأمراء في تلك الفترة[١]. كما كانت هناك ولاية القلعة[٢]، وشحنكية البلد[٣] أي (محافظته). وقد تعرض هؤلاء أيضاً للعزل والتغيير، ويظهر أنه كان لكل من هذين المسؤولين سلطة غير محدودة نتيجة لاضطراب الأمور في حلب إثر الهجمات الصليبية المستمرة عليها، فقد قاما بظلم الأهالي ومصادرة أموالهم وتسليط الجند عليهم، واستصفيا بذلك أموال جماعة من كبار رجالات حلب وأغنيائها[٤]، وقد أوكلت إلى هذين الموظفين مهمات دفاعية[٥]. وكان هناك، فضلاً عن هؤلاء، موظف يدعى رئيس حلب[٦]، لم تشر المصادر إلى دوره أو علاقاته ببقية كبار المسؤولين، ويظهر أن الرئيس كان يتمتع بسلطة عسكرية إضافة إلى مهامه الإدارية[٧].

وأغلب الظن أن زنكي أقر معظم هذه الوظائف، واكتفى بمجرد تغيير الأشخاص، جاعلاً نائبه في حلب المسؤول الأعلى عن الجهاز الإداري هناك. ويمكن تحديد مهام هذا النائب بتتبّع معالم منصبه في العهدين الأيوبي والمملوكي حيث تكثر التفاصيل، وذلك بالاعتماد على ما قرره القلقشندي من أن الجذور الحضارية لهاتين الفترتين تعود إلى عهد أتابكة الموصل والشام[٨].

(١) المصدر السابق ٢ ـ ٢١٠، ٢٢١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(٢) المصدر السابق ٢ ـ ٢٣٠.
(٣) المصدر السابق ٢ ـ ٢٣٢، ٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(٤) المصدر السابق ٢ ـ ٢١٧، ٢٢٠، ٢٣٧.
(٥) المصدر السابق ٢ ـ ٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(٦) المصدر السابق ٢ ـ ٢١٧، ٢٢٠، ٢٣٧.
(٧) المصدر السابق ٢ ـ ٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(٨) صبح الأعشى ٤ ـ ٥.

ففي عهد الأيوبيين والمماليك كانت تتبع السلطنة المركزية مجموعة من النيابات في بلاد الشام، على رأس كل منها نائب للسلطان، وكان نواب السلطنة في الأقاليم يختارون من أصحاب المناصب الحربية الذين كانت لهم الكلمة العليا في الدولة، وكان النائب يعمل على السيطرة على كل أصحاب الوظائف في هذا الإقليم، وكان السلطان يراقب ذلك بعين ساهرة، ويشعر النائب بوجود السلطة المركزية عن طريق التدخل ـ أحياناً ـ لملء وظائف شاغرة ليست من اختصاص السلطان، أو بإصدار الأوامر مباشرة إلى مرؤوسي النائب[١]. وكان نظام الحكم في كل من هذه النيابات يماثل نظام الحكم في مصر: فكل نيابة فيها عبارة عن مملكة مستقلة تنتظم الدواوين الحكومية والموظفين الذين يتولونها، ولكن بصورة مصغّرة[٢].

ويوضح القلقشندي أهم اختصاصات نائب الإقليم، والتي تتلخّص بنشر العدل، وتوطيد الملك، ومجابهة الأعداء، والقضاء على الفساد، وحماية الثغور، وتنظيم الأمور المالية[٣].

وهذه الصورة عن اختصاصات نائب الإقليم في العهدين الأيوبي والمملوكي توضح، إلى حد ما، اختصاصات نائب زنكي في حلب، فقد اختار الأخير نائبه من كبار القادة العسكريين، وكان يطلق عليه أحياناً اسم (مقدم زنكي في حلب)[٤]، مما يشير إلى أن هذا فوضه قيادة قواته في المنطقة إضافة إلى مهامه الإدارية، أما عن مدى تدخل زنكي في السيطرة

---

(١) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك ص ٢١٩ عن H.Wiet E: Mosquees du Caire. p. 56.

(٢) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك ص ٢١٨ ـ ٢١٩ عن:

H. La Voix: Catalogues des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, Egypte et Syrie, pp. 323-336.

(٣) صبح الأعشى ١٢ ـ ٨ ـ ١٢.

(٤) الكامل ١١ ـ ٣.

على سياسة نائبه فتتضح في قول سبط ابن الجوزي في أن نائب زنكي قد قنع من أمير (بالاسم لا غير)[١]، مما يؤكد عدم تمتع هذا النائب باستقلال يذكر في تسيير الشؤون الإدارية، كما جرى الأمر في العهدين الأيوبي والمملوكي، ولكن يبدو أن استقلال النائب انصب على العمليات الحربية التي كان يقوم بها ضد الصليبيين بسبب طبيعة مركزه العسكري الذي يقتضي بذل مجهود حربي مستمر لإيقاف نشاط الصليبيين، وتقدمهم في المنطقة.

٤ـ نائب زنكي في حلب: سوار بن إيتكين ٥٢٤ ـ ٥٤١ هـ:

قدم إلى حلب في عام ٥٢٤ هـ الأمير سوار بن إيتكين الملقب بمسعود، هارباً من دمشق إثر تدهور علاقته بأميرها، وتقدم لعرض خدماته على زنكي (فأكرمه هذا وشرفه وخلع عليه، وأجرى له الإقطاعات الكثيرة وأعطاه ولاية حلب وأعمالها، واعتمد عليه في قتال الصليبيين، وكان له بصيرة بالحرب وتدبير الأمور)[٢].

كان يطلق على سوار أحياناً لقب (مقدم عسكر زنكي بحلب)[٣]، وذلك لأن سيده فوضه قيادة قواته في المنطقة إضافة إلى مهامه الإدارية، بل إن أعماله العسكرية هي التي أكسبته شهرة واستنفدت معظم أوقاته وجهوده[٤]، بسبب قربه من المواقع الصليبية، وهكذا كان الأمير سوار يشنّ هجمات سريعة خاطفة على قوات الصليبيين وقوافلهم، وكان ـ أحياناً أخرى ـ يمد قوات زنكي بجند من عنده يقودهم بنفسه إن دعت الضرورة، كما كان يقوم بالدفاع عن مدينة حلب وأعمالها ضد هجمات الصليبيين، وفضلاً عن الجنود النظاميين الذين اعتمدهم، كان ينضم إليه ـ أحياناً كثيرة ـ تركمان

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٥.
(٢) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٤٥.
(٣) الكامل ١١ ـ ٣.
(٤) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٤٥.

المنطقة[١]، طمعاً في الغنيمة أو حباً للجهاد، وقد استمر سوار في منصبه حتى مقتل زنكي عام ٥٤١ هـ.

ولاة (نواب زنكي) على المدن والقلاع:

يتضح مما سبق أنه كان لزنكي نائبان مركزيان هما: نائبه في الموصل، الذي يشرف على الجهات الشرقية من الإمارة، ونائبه في حلب الذي يشرف على الجهات الغربية (أي القسم الشامي). وفضلاً عن هذين عين زنكي على المدن والأقاليم التي فتحها مجموعة من الولاة يطلق عليهم اسم النواب أو العمال.

وتكتفي المصادر في هذا المجال بذكر أسماء ولاة زنكي وسنيّ تعيينهم أو إقالتهم، وتعرض ـ أحياناً ـ نبذة مختصرة عن سياستهم الإدارية، ولكنها لا تشير إلى سلطات أي من هؤلاء وحدود اختصاصه، ومدى الحرية التي يمارسها، وفي أي المجالات ؟ ومدى صلاحياته تجاه زنكي وطبيعة ارتباطه به، والجهاز الإقليمي الذي يعاونه في شؤون الإدارة، ومن الذي يقوم بتعيين أعضاء هذا الجهاز: زنكي أم الوالي ؟ وما هي علاقة الوالي بالجند، والمالية، والمؤسسات القائمة ؟ كما أن هذه المصادر لا تشير حتى إلى الفروق في السلطات بين هؤلاء وبين نائبي زنكي في الموصل وحلب، وإن كان المرجح أن الذي يفصل بينهما هو خطورة المناصب التي كان يتمتع بها نائبا الموصل وحلب كعاصمتين للإمارة، بينما كانت مراكز ولاة الأقاليم ثانوية.

ولا ندري شيئاً عن التنظيم الإداري الذي اتبعه زنكي في إدارة أجزاء إمارته الشاسعة، وهل قسمها إلى أقاليم عين على كل منها وال من قبله، ثم أعطى لذلك الوالي الحرية في تعيين الموظفين داخل نطاق ولايته؟ أم أنه

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٠ ـ ٢٤١، الكامل ١٠ ـ ٢٦١.

أكد على الاتجاه المركزي في الإدارة حيث جعل ولاته مرتبطين به لا يقومون بإصدار أمر أو تعيين أحد إلا باستشارته؟ وهل من الممكن اعتبار النظام الإداري الذي سار عليه الأيوبيون والمماليك هو ذات النظام الذي سار عليه زنكي؟

فقد قسم الأيوبيون ـ والمماليك من بعدهم ـ دولتهم إلى أقاليم أو نيابات تضم كل منها مجموعة من المدن والحصون، حيث يعتبر النائب المسؤول الأعلى في نيابته، وممثل السلطان الشخصي الذي يرتبط به ويتلقى الأوامر منه. وإلى جانب هذا النائب كان السلطان يعين نواباً آخرين على القلاع، وكان يصدر بتعيينهم مرسوم سلطاني يكتب بديوان الإنشاء.

كان نائب المدينة أو القلعة مستقلاً في معظم الأحيان عن نائب السلطنة في الإقليم، وتابعاً للحكومة المركزية مباشرة، وكان من واجبه أن يتجسس على النائب ويقاومه إذا حدثته نفسه بالخروج على السلطان[١]. وكانت أهم واجبات نائب القلعة هذا، فضلاً عما سبق، هي أن (يتولى حفظ القلعة وصونها، ولا يسلم مفتاحها لأحد إلا لمن يتولاها مكانه، أو لمن يأمره السلطان بتسليمه له)[٢].

كان هذا التقسيم الإداري يشمل مناطق الشام وفلسطين، أما في مصر فقد كانت الإدارة المحلية متمثلة في الوالي، حيث كان يشرف على كل من الأعمال فئة من الموظفين على رأسهم والي الإقليم الذي كانت مهمته العمل على استتباب الأمن والنظام، وبث الطمأنينة في النفوس، والمحافظة على أموال الناس وأرواحهم[٣].

---

(١) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك ص ٢٣١ عن
V.Berchem: Corpus, Egypte, 1/210-211 Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 56.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٤ ـ ١٨٥.

(٣) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك ص ٢٣٢.

إلا أن هذه التقسيمات لا توضح ما كان عليه الوضع في عهد زنكي، وربما كان من أهم أسباب ذلك أنه لم يأت إلى الحكم في إمارة واسعة مستقرة عمل من سبقه على ترسيخها، والقضاء على مشاكلها الأساسية، وإتاحة المجال لإجراء الإصلاحات الإدارية فيها وفق تنظيم معين. ولكنه ـ أي زنكي ـ تسلم الحكم في الموصل ولم يكن خاضعاً له آنذاك سوى هذه المدينة وبعض المواقع المجاورة، وأما معظم المدن التي شملتها إمارته فيما بعد، فقد جاءت إثر عمليات الفتح والاستيلاء اللتين أنفق معظم جهوده في مجالهما، ولذلك لم يتح له القيام بتنظيم إداري كالذي شهدته عهود الأيوبيين والمماليك، وإنما كان يكتفي بتعيين من يثق به على كل مدينة أو موقع يتمكن من الاستيلاء عليه، وفي أحيان أخرى كان يقطع ما يفتحه من مدن وقلاع لبعض قواده ومقربيه، وهكذا كان تنظيمه الإداري للأقاليم قائماً على أساس شبه مرتجل.

وإذ كانت معظم المدن التي نتكلم عنها ذات قلاع وحصون، فإن المرجح أن أهم أعمال ولاتها كانت ـ حسب ما ذكره القلقشندي ـ حفظ تلك القلاع، وعمارة ما دعت الحاجة إلى عمارته منها، والأخذ بقلوب من فيها وجمعهم على الطاعة، وادخار آلات الحرب ومهماتها، والاعتناء بغلق أبواب القلعة وفتحها، وتفقد أحوالها في كل صباح ومساء، وإقامة الحرس، وإدامة العسس، وتعرف أحوال المجاورين لها من الأعداء، وإقامة نوب الحمام بها، والمطالعة بكل ما يتجدد لديه من الأخبار . هذا بالإضافة إلى مهمات الوالي المالية والعسكرية الأخرى، كمساعدة سيده في عملياته الحربية، سواء بإمداده بالجند والميرة، أو بتوسيع مناطق الولاية والدفاع عنها ضد هجمات الأعداء.

وفيما يلي جدول بأسماء الولاة الذين عينهم زنكي على المدن التي فتحها، وسيكون تنظيم هذا الجدول قائماً على أساس التسلسل الزمني لتاريخ الاستيلاء على تلك المواقع. وسوف نلاحظ أن المصادر استعملت كلمات مختلفة بالنسبة لتعيين الولاة على المدن، فتارة تذكر عبارة (أقطع زنكي. . .)

وتارة أخرى (ولي. . .) وتارة ثالثة (وهب. . .) وهكذا. وهذا يشير ـ بطبيعة الحال ـ إلى نوعية السلطة والاختصاصات التي كان الوالي يمارسها، حيث نجد المقطع يتمتع بصلاحيات أوسع، في مجال إقطاعه، من الوالي الذي يمارس عملاً إدارياً فحسب، وسوف يرد في الجدول عدد من المدن والقلاع التي لم يذكر ولاتها بسبب إغفال المصادر لهم، ربما لعدم أهمية المكان، أو لتطرفه في البعد عن مركز الإمارة. إلا أن المصادر تغفل أحياناً ولاة بعض المدن المهمة، ويرجح في هذه الحالة أن بعض هذه المدن كانت تابعة لأشراف أحد ولاة زنكي في مدينة أخرى مجاورة أو بعيدة.

اسم الموقع	سنة فتحه	الولاة وفترات حكمهم
البوازيج	٥٢١	لم يعين عليها أحد، ربما لصغرها وعدم أهميتها.
جزيرة ابن عمر	٥٢١	تقي الدين حسن البربطي (٥٢١ ـ ؟)، ثم عزل لسوء سيرته[١]، والمرجح أن عمر بن محمد البرزي الفقيه أعقبه في الولاية واستمر فيها حتى مقتل زنكي[٢].
منبج وبزاعة	٥٢٢	كانتا تابعتين لحلب لقربهما منها، وقد ولي على منبج الأمير حسان البعلبكي.
نصيبين	٥٢٣	جمال الدين محمد الأصفهاني (٥٢٣ ـ ؟)، وبعد تسلمه الوزارة[٣] أقطعت لأحد أمراء زنكي الكبار ويدعى أبا بكر[٤]، وبقيت تحت حكمه حتى مقتل زنكي[٥].

(١) الباهر ص ٨٤.
(٢) ياقوت: معجم البلدان ٢ ـ ٧٩.
(٣) الباهر ص ١١٨ ـ ١١٩.
(٤) المصدر السابق ص ٨٩ ـ ٨٠.
(٥) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة (مخطوطة) ورقة ٣٩ ب.

سنجار	٥٢٣	تليماك (٥٢٣ ـ ٥٤١ هـ)[١].
الخابور	٥٢٣	لم يعين عليها أحد، ربما لتبعيتها لسنجار.
حران	٥٢٣	سوتكين الكرجي (٥٢٣ ـ ٥٢٧ هـ)، حيث أعلن العصيان واستمر خارجاً على حكم زنكي حتى عام ٥٣٣ هـ حين توفي، فاستولى زنكي ثانية على حران[٢] وأقام نوابه بها إلى حين مقتله[٣]. والمرجح أنه عين فيها جمال الدين أبو المعالي فضل الله بن ماهان رئيس حران السابق[٤].
السن	٥٢٣	لم تشر المصادر إلى واليها.
حماة	٥٢٣	اقتطعت للياغسياني فأناب فيها ابنه شهاب الدين أحمد (٥٢٣ ـ ٥٤١ هـ)[٥]، فيما عدا فترة استردادها من قبل حاكم دمشق (٥٢٧ ـ ٥٢٩ هـ).
سرجة	٥٢٤	لم تشر المصادر إلى واليها.
دارا		لم تشر المصادر إلى واليه، وقد سلم إلى أمير ماردين عام ٥٣٣[٦].
حصن الأثارب	٥٢٤	قام زنكي بتخريبه كيلا يستغله الصليبيون[٧].
إربل	٥٢٦	اقتطعت لزين الدين علي كجك (٥٢٦ ـ ٥٤١)[٨] وقد عين هذا نائباً عنه فيها.

(١) المصدر السابق، ورقة ٤٧ أ ـ ٤٧ ب.
(٢) المصدر السابق، ورقة ١٧ أ ـ ١٨ أ، ابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ٨٤.
(٣) ابن شداد: المصدر السابق، ورقة ١٧ أ ـ ١٨ أ.
(٤) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٧٩ ـ ٢٨٠.
(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨، ابن منقذ: الاعتبار ص ٩٧ ـ ٩٨.
(٦) الفارقي: تاريخ آمد (مخطوطة)، ورقة ١٢١ ب ـ ١٢٢ أ.
(٧) الباهر ص ٣٩ ـ ٤٢.
(٨) ابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ٩٧، ١ ـ ١٥٤.

قلعة الصور	٥٢٨	وهبها زنكي لأمير ماردين الأرتقي[١].
عقر الحميدية وأعمالها	٥٢٨	أقطعت لزين الدين علي كجك (٥٢٨ ـ ٥٤١)[٢].
الشوش وأعمالها	٥٢٨	قريبة من الحميدية، وأغلب الظن أنها ألحقت بها وأقطعت لزين الدين[٣].
الرقة	٥٢٩	شهاب الدين أميرك الجاندار[٤].
جبل جور	٥٣٠	وهبه زنكي لأمير ماردين[٥]، ثم استرده عام ٥٣٩ هـ.
السيوان	٥٣٠	وهبه زنكي لأمير ماردين[٦] ثم استرده عام ٥٣٩ هـ.
البارعية	٥٣٠	وهبه زنكي لأمير ماردين[٧].
دقوقا	٥٣١	لم تشر المصادر إلى واليها، وربما ألحقت بإربل أو شهرزور.
حصن الخربة	٥٣١	أقطع للياغسياني فأناب فيه عيسى الحاجب (٥٣١ ـ ٥٤١ هـ)[٨].
بعرين	٥٣١	لم تشر المصادر إلى واليها.
حصن عرقة	٥٣٢	قام زنكي بتخريبه كيلا يفيد منه الصليبيون[٩].
معرة النعمان	٥٣٢	لم تشر المصادر إلى واليها.
حصن المجدل		لم تشر المصادر إلى واليه.

(١) ابن منقذ: الاعتبار ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ١٥٤.

(٣) الباهر ص ١٣٥.

(٤) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة (مخطوطة) ورقة ٢٤ أ ـ ١٢٢ أ.

(٥) الفارقي: المصدر السابق، ورقة ١٢١ ب ـ ١٢٢ أ.

(٦) المصدر السابق، نفس الورقة.

(٧) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

(٨) ابن منقذ: الاعتبار ص ٧٨ ـ ٧٩.

(٩) الباهر ص ٥٧.

بانياس	٥٣٢	أعلن صاحبه إبراهيم بن طرغت طاعته لزنكي فأقره على منصبه حتى عام ٥٣٤ هـ[١]، حيث استولى الصليبيون عليه.
كفر طاب	٥٣٢	أقطعت للياغسياني (٥٣٢ ـ ٥٤١ هـ)، ما عدا الفترة التي سيطر فيها الروم عليها سنة ٥٣٢ هـ[٢].
حمص	٥٣٢	أقطعت للياغسياني (٥٣٢ ـ ٥٤١)[٣].
بعلبك	٥٣٤	ولي عليها نجم الدين أيوب (٥٣٤ ـ ٥٤١ هـ) وأقطعه زنكي ثلثها[٤].
شهرزور	٥٣٤	أقطعت لزين علي كجك لقربها من إقطاعه في إربل، فأناب عنه في حكمها الأمير بوزان (٥٣٤ ـ ٥٤١هـ)[٥].
قلعة بهمرد	٥٣٥	لم تشر المصادر إلى واليها.
الحديثة	٥٣٦	تكتفي المصادر بالقول بأن زنكي: عين نوابه فيها[٦].

---

(١) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٢) ابن منقذ: الاعتبار ص ٤٥.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٧.

(٤) أبو شامة: الروضتين ١ ـ ٨٦ ـ ٨٧، ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٥) الباهر ص ١٠٩، ١٣٥، ابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ ١٥٤.

(٦) ابن الجوزي: المنتظم ١٠ ـ ١٠٢، الكامل ١١ ـ ٣٦ ـ ٣٧.

قلاع الأمراء الهكارية

أشب	٥٣٧	كانت تحت إشراف زين الدين علي كجك (٥٣٩ ـ ٥٤١ هـ)[١]
جبل لهيجة	٥٣٧	
قلعة الجلاب	٥٣٧	
نوشى	٥٣٧	

قلاع الأكراد المهرانية

الشعباني	٥٣٧	لم تشر المصادر إلى ولاتها، والمرجح أنها بمجموعها كانت تحت إشراف نائب زنكي في الموصل.
فرح	٥٣٧	
كواشي	٥٣٧	
كوشر	٥٣٧	
ألقي	٥٣٧	
سروة	٥٣٧	
الزعفراني	٥٣٧	
الربية	٥٣٧	

في ديار بكر

طنزة	٥٣٨	لم تشر المصادر إلى ولاتها، والمرجح أنها بمجموعها كانت تحت إشراف نائب زنكي في الموصل.
أسعرد	٥٣٨	
المعدن	٥٣٨	
حيزان	٥٣٨	

(١) الباهر ص ١٣٥.

الزوق	٥٣٨	
فطليس	٥٣٨	
باتاسا	٥٣٨	
ذو القرنين	٥٣٨	
أنيرون	٥٣٨	
أروق	٥٣٨	
أبرذون	٥٣٩	
عته	٥٣٨	لم تشر المصادر إلى واليها.
حاني		لم تشر المصادر إلى ولاتها، والمرجح أنها بمجموعها كانت تحت إشراف نائب زنكي في الموصل.
أرقتين	٥٣٩	
حيرموك	٥٣٩	
بالمرقتين	٥٣٩	
الرها	٥٣٩	وليت لقطب الدين ينال بن حسان صاحب منبج (٥٣٩ ـ ٥٤١)[١].
سروج	٥٣٩	

قلاع الأكراد البشنوية

الهيثم		لم تشر المصادر إلى ولاتها، والمرجح أنها بمجموعها كانت تحت إشراف نائب زنكي في الموصل. (وجميعها لم يحدد زمن فتحها).
جديدة نصيبين		
شاروا		

(١) ابن شداد: الأعلاق (مخطوطة) ورقة ٢٩ أ.

الوزارة:

تثير مشكلة الوزارة في عهد زنكي كثيراً من التعقيدات بسبب غموض بعض النصوص واتباعها طريقة التعميم. كما أن أحداً من المؤرخين لم يشر إلى مهام الوزير في عهد زنكي، واكتفت المصادر بعرض أسماء وزرائه وسنيّ تعيينهم وعزلهم، مع نبذ عن تراجمهم الشخصية التي لا تلقي ضوءاً على الموضوع. وتزداد المشكلة تعقيداً عندما نتذكر مهام نائب زنكي الذي كان يتمتع بسلطات واسعة و (تفويض) على شؤون الديوان والموظفين. فما هي مهام الوزير إذاً؟

إن تتبع الوزارة في التاريخ الإسلامي، منذ نشوئها وحتى العصرين الأيوبي والمملوكي في مصر والشام، يوضح بعض الشيء مشكلة الوزارة في عهد زنكي، وحدود اختصاصات الوزير، وطبيعة علاقاته ببقية الموظفين والمؤسسات الإدارية، خاصة إذا ما تذكرنا النص الذي أورده القلقشندي والذي أكد فيه على أن جذور النظم الأيوبية ـ المملوكية تعود إلى العصر الأتابكي في الموصل وحلب[١]، فضلاً عن أن الوزارة في عهد زنكي ليست سوى جزءاً من التطور العام لهذا المنصب طيلة عصور التاريخ الإسلامي.

تبلور منصب الوزير منذ العصر العباسي الأول، وكان عمله في البداية يقتصر على تنفيذ أوامر الخليفة العباسي، لذا سمي هذا النوع من الاستيزار بـ (وزارة التنفيذ). وبعد مرور فترة قصيرة ظهر نوع آخر، عندما فوض الخليفة وزيره لإدارة شؤون مملكته، أطلق عليه (وزارة التفويض)[٢]. واستمر هذا المنصب يتأرجح بين التنفيذ والتفويض حسب مركز الخليفة أو السلطان الحاكم، حتى جاء الأيوبيون فأدخلوا نظام نيابة السلطنة، وحولوا

(١) صبح الأعشى ٤ ـ ٥.

(٢) انظر موضوع الوزارة في: الماوردي: الأحكام السلطانية.

معظم اختصاصات الوزير وسلطاته العملية إلى نائب السلطان، وهكذا غدا منصب الوزير أقل أهمية من ذي قبل.

ومع ذلك فإن الوزارة في هذا العهد، والعهد المملوكي الذي أعقبه، لم تفقد مكانتها نهائياً، بدليل ما أورده المؤرخون المعاصرون لتلك الفترة عن هذا المنصب. فالظاهري يقول: (ومن انتصب لهذه الوظيفة ـ أي الوزارة ـ لزمه النهوض بمهمات الدولة وأمور المملكة، بأن يحمل أثقالها، ويزيح اختلالها، ويصلح أحوالها، ويحفظ رجالها، وينمي أموالها، ويستخدم الكفاة ويوليهم أعمالهم.. فمن أخلص رفعه، ومن غدر عزله، ويعتني بجهات الأموال وحراسة أسبابها.. وضبط حسابها، والعدل في جبايتها.. ويقوم بتوزيع القطائع...)[١]. كما يذكر القلقشندي بأن الوزارة (من أجل الوظائف، وأرفعها رتبة في الحقيقة)[٢].

إلا أن الذي حد من نفوذ الوزير في هذا العهد، ليس فقط نائب السلطان، وإنما إيجاد مجموعة من الوظائف على رأس كل منها شخص يدعى الناظر، كناظر الجيش، وناظر الخاص (أموال السلطان)، وناظر الدولة (الذي يشارك الوزير في الأمور العامة والقضايا المالية)، وهكذا[٣].

اعتاد الأيوبيون والمماليك اتخاذ وزيرين، أحدهما من أرباب الأقلام ويدعى وزير الصحبة، لأنه يرافق السلطان في أسفاره وتنقلاته، والآخر من أرباب السيوف، ويبقى مقيماً في العاصمة، وسلطاته العملية أكثر أهمية من وزير الصحبة[٤]. وفضلاً عن ذلك، كان لكل نيابة من نيابات الشام وزير

---

(١) زبدة كشف الممالك ص ٩٣ ـ ٩٥.

(٢) صبح الأعشى ٤ ـ ٣٨.

(٣) المصدر السابق ٥ / ٤٦٥ ـ ٤٦٦.

(٤) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك ص ٢٢٥ عن: الخالدي: المقصد ص ٢٦ و
Van Berchem : Corpus 1/203-204, 243

يتمتع بما يتمتع به الوزير في مصر، ولم يكن يطلق عليه اسم الوزير وإنما: ناظر المملكة الشريفة، أو ناظر النظار[١]. أما مصدر تعيين الوزير فهو السلطان مباشرة حيث يصدر بذلك تقليد سلطاني[٢].

ولا بد من الإشارة إلى أن القلقشندي عرض نموذجين من الوزراء في هذا العهد، أولهما يشبه وزير التفويض حيث تكون مهمته (الإيصاء بالعدل وزيادة الأموال وتثميرها، والإقبال على تحصيلها، واختيار الأكفاء... إلخ)[٣]، وثانيهما يشبه وزير التنفيذ (أما الوزارة في زماننا فقد تقاصرت عن ذلك كله، حتى لم يبق منها إلا الاسم دون الرسم)[٤].

هذا هو الخط الأساسي لتطور نظام الوزارة، وبخاصة في العهدين الأيوبي والمملوكي، وسنلاحظ أن في استعراض هذا التطور ما يوضح ـ إلى حد ما ـ مشكلة الوزارة في عهد زنكي.

فقد استحدث زنكي في إمارته منصب النائب، وكان هذا النائب ـ كما رأينا ـ يتمتع بسلطات إدارية واسعة في المجالات المالية والإدارية، والأمن، وما يسمى اليوم بالدفاع المدني، فضلاً عن مهامه العسكرية، وهو بهذا يشبه إلى حد كبير ما كان يتمتع به النائب من صلاحيات في العهدين الأيوبي والمملوكي، مما أثر إلى حد كبير على اختصاصات الوزير، وأفقده الكثير من سلطاته العملية وجعله ـ كما يقول القلقشندي ـ: لا يملك إلا الاسم دون الرسم. وربما كان هذا هو السبب الأساسي في إغفال المصادر لذكر مهام واختصاصات وزراء زنكي، واقتصارها على تراجمهم الشخصية وسنيّ تعيينهم فحسب.

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٤ ـ ١٨٨، ١٨٩، ٣٠٩.

(٢) المصدر السابق ١٢ ـ ٣٣.

(٣) المصدر السابق ١٠ ـ ٩٢، ١١ ـ ٣٢١ ـ ٣٢٥.

(٤) المصدر السابق ٥ ـ ٤٩٩.

إلا أن المشكلة الأساسية في موضوع الوزارة في عهد زنكي تبرز لدى تحليل منصب وزيره المشهور: جمال الدين الأصبهاني. فالمصادر تجمع على أن منصب الوزارة في عهد زنكي استمر مشغولاً طيلة الفترة بين ٥٢٨ و ٥٤١ هـ من قبل الكفر توثي (٥٣٨ ـ ٥٤١). فما هو إذاً دور جمال الدين الذي تطلق عليه بعض المصادر لقب (وزير صاحب الموصل)[١]؟ وكيف ينسجم هذا مع وجود وزراء آخرين لدى زنكي في هذه الفترة ؟

تذكر المصادر ـ من جهة أخرى ـ أن زنكي جعل جمال الدين (مشرف مملكته كلها، وحكمه تحكيماً لا مزيد عليه)[٢]، فما هي طبيعة منصبه إذاً؟ لعل المعلومات المختصرة، التي قدمتها المصادر عن هذا الرجل، تلقي ضوءاً على الموضوع، فعبارة: جعله زنكي مشرف مملكته كلها، تعني أنه أعطي سلطة عامة وشاملة تتيح لصاحبها الهيمنة على كل الأمور الإدارية في الإمارة، وهذا يعني أن يكون منصبه أعلى في مستواه ـ من حيث الإشراف ـ من مستوى الوزير، وربما النائب أيضاً، ويؤكد هذا ما أورده ابن خلكان من أن زنكي، لما أعطى جمال الدين ذلك المنصب، كان الوزير يومئذ الكفر توثي، فلما توفي هذا عام ٥٣٦ وتولى الوزارة بعده أبو الرضا بن صدقة (بقي جمال الدين على وظائفه)[٣]. وهذا يشير أيضاً إلى أن منصب جمال الدين كان ثابتاً لا يتأثر بالتقلبات الوزارية. ويذكر ابن الأثير كيف أن أحد الولاة توسط لدى الوزير الكفرتوثي لدى سماعه بأن جمال الدين يسعى لعزله، وكيف أن هذا الوزير أجابه: ما سمعت من جمال الدين شيئاً من هذا عند زنكي، ومع هذا فالرجل يدخل قبلي ويخرج بعدي فما أعلم ما يكون منه، ولم يزل كذلك إلى أن قتل زنكي[٤]. ويظهر من هذه الرواية أن

(١) الباهر ص ١١٨ ـ ١١٩، البنداري: آل سلجوق ص ١٩٢، ابن العماد شذرات الذهب ٤ ـ ١٨٥.
(٢) الباهر ص ١١٨ ـ ١١٩، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤ ـ ٢٢٨.
(٣) وفيات الأعيان ٤ ـ ٢٢٨.
(٤) الباهر ص ١١٨ ـ ١١٩.

ارتياب الكفرتوثي بجمال الدين لم يدفعه إلى الاصطدام معه، إذ أدرك ما في ذلك من خطورة، حيث كان جمال الدين يستند إلى قوة زنكي وحبه له وثقته به، تلك الثقة التي دفعته إلى (تحكيمه في إمارته تحكيماً لا مزيد عليه). ولعل هذا يوضح ـ بدوره ـ طبيعة العلاقة بين جمال الدين ووزراء زنكي، حيث يظهر أنه كان يتمتع بمركز أقوى من مركز الوزير.

ولكن ما هي السلطات العملية التي كان جمال الدين يمارسها من خلال إشرافه العام؟ يقول ابن الأثير: (قال والدي: كنت أرى من جمال الدين الوزير في أيام زنكي من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها، والمحاققة ـ أي التحقيق ـ فيها، ما يدل على تمكنه من الكفاية)[١]. وتشير المصادر إلى أن زنكي عول على جمال الدين، في الفترة الأخيرة من حكمه، في الإشراف على ديوانه، وزاد راتبه[٢]، ومكنه في منصبه[٣].

لم يحاول جمال الدين أن يستغل منصبه لجمع المال لحسابه الخاص، بل كان يأخذ ما يكفي لمعيشته (ويرفع جميع ما يحصل له إلى خزانة زنكي)[٤]، مما زاد من اعتماد الأخير عليه وثقته به، (فمكنه من أصحاب ديوانه)[٥]، وهكذا كان جمال الدين يتمتع بسلطات عملية واسعة، وخاصة في مسائل الإشراف على الديوان والمسائل المالية.

يتضح مما سبق أن جمال الدين كان يشغل منصباً خطيراً، إلا أننا لا نستطيع تحديد اسم هذا المنصب، خاصة وأن معظم المصادر تطلق على جمال الدين لقب (وزير). كما لا يمكن اعتبار جمال الدين وزيراً ثابتاً في الموصل، واعتبار الآخر وزير صحبة يتنقل مع زنكي أينما سار، ذلك أن

---

(١) المصدر السابق ص ٨٢.

(٢) البنداري: آل سلجوق ص ١٩٢ ـ ١٩٣، ابن خلكان ٤ ـ ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٣) البنداري ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٤) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٥) المصدر السابق، نفس الصفحة.

الوزير الثابت ـ لدى الأيوبيين والمماليك ـ كان من أرباب السيوف بينما كان جمال الدين رجلاً مدنياً ـ كما سنرى من ترجمته ـ، هذا فضلاً عن عدم وجود ما يؤكد تنقل الوزير الآخر مع زنكي كوزير صحبة، لان الكفرتوثي ـ مثلاً ـ يقول عن نفسه (كان جمال الدين يدخل قبلي ويخرج بعدي، فما أعلم ما يكون منه ولم يزل كذلك إلى أن قتل زنكي)[1]، مما يؤكد أنه كان مقيماً في الموصل، أو ملازماً لجمال الدين على الأقل. ثم إن جمال الدين نفسه كان يتنقل أحياناً مع زنكي، كما حدث عام (٥٤١) وهي السنة التي قتل فيها زنكي حيث كان جمال الدين بصحبته.

من الممكن ـ إذاً ـ اعتبار وظيفة جمال الدين مشابهة ـ إلى حد كبير ـ لمنصب (ناظر الدواوين) أو (ناظر الدولة) في العهدين الأيوبي والمملوكي، وهو الذي يعبر عنه في مصطلح الدواوين باسم صاحب (الصحبة الشريفة)، أي أنه يتحدث مع الوزير في كل ما يتعلق بأعماله، ويشاركه الكتابة والتوقيع على القضايا المعروضة عليه. وإذا صادف أن كان الوزير صاحب سيف، تولى الناظر الإشراف على شؤون الدولة المالية، واقتصرت مهام الوزير على التنفيذ[2]. وهذا الرأي ينسجم تماماً مع كون جمال الدين (مشرفاً على الديوان).

وزراء زنكي:

الكفرتوثي ٥٢٨ ـ ٥٣٦ هـ:

تجمع المصادر على أن أول من استوزره زنكي هو ضياء الدين أبو سعد بهرام بن الخضر الكفرتوثي[3] عام (٥٢٨). ويتضح من هذا أن السنوات

---

(١) الباهر ص ١١٨ ـ ١١٩.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٥ ـ ٤٦٥.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٣، الكامل ٥ ـ ١١ وفيات الأعيان ٤ ـ ٢٢٨، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٥٤. الكفر توثي نسبة إلى كفر توثا، وهي قرية من أعمال الجزيرة بين رأس عين ودارا: ياقوت: معجم البلدان ٤ ـ ٢٣٢.

السبع الأولى من حكم زنكي لم يكن قد اتخذ خلالها وزيراً، وربما كان نائبه في الموصل هو الذي يقوم بمهام الوزير، مما جعل زنكي يستغني عن هذا المنصب طيلة تلك المدة.

لم تشر المصادر إلى الظروف التي دفعت زنكي إلى استحداث هذا المنصب في هذه السنة بالذات، كما تتغاضى عن المهام التي كلف الكفرتوثي القيام بها، وتكتفي بالقول بأنه كان (مشهوراً، حسن الطريقة والكفاية وحب الخير والمذهب الحميد)[١]. وقد قدم مع زنكي إلى حلب[٢]، مما يشير إلى أنه لم يكن مستقراً في الموصل بشكل دائم.

أبو الرضا بن صدقة ٥٣٦ ـ ٥٣٨ هـ:

بقي الكفرتوثي في منصبه كوزير طيلة اثني عشر عاماً، وتوفي في شعبان عام ٥٣٦ هـ[٣]. فاستوزر زنكي بعده جلال الدين أبا الرضا محمد بن صدقة[٤]، الذي ترجع معرفته به إلى عام ٥٣٠ هـ، وذلك عندما ثار الخليفة العباسي الراشد ضد السلطان السلجوقي مسعود، وانضم إليه زنكي وعدد من الأمراء، وكان أبو الرضا آنذاك وزيراً للراشد، وحدث أن تدهورت العلاقة بين الخليفة ووزيره وسعى إلى القبض عليه، فالتجأ أبو الرضا إلى زنكي الذي استطاع أن يقنع الخليفة بإعادته إلى الوزارة[٥]. وبعد هزيمة الراشد وزنكي عام ٥٣٠ توجها إلى الموصل، وكان أبو الرضا بصحبتهما، وقد أقنعه زنكي بالبقاء بالموصل إثر خروج الراشد منها[٦].

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٤٣ ـ ٢، ٢٧٥، الكامل ١١ ـ ٥، ٣٧، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٥٤.

(٢) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٥٤.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٥، الكامل ١١ ـ ٣٧، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٧٦.

(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٧، الفارقي: تاريخ آمد (مخطوطة ورقة ١١٦ ب ـ ١١٧أ)، البنداري: آل سلجوق ص ١٦٥، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٧٦.

(٥) الباهر ص ٥١ ـ ٥٣، الكامل ١١ ـ ١٥.

(٦) ابن الجوزي: المنتظم ١٠ ـ ٦٧ ـ ٦٨، الذهبي: العبر ٤ ـ ٨٤.

وربما كان من أهم أسباب ترشيحه للوزارة أنه مارس مهام هذا المنصب فترة من الزمن، بحيث أصبحت له دربة كافية فيه، ولكنه لم يستمر في منصبه الجديد طويلاً، إذ عزله زنكي عام ٥٣٨ (لأسباب أوجبت ذاك ودعت إليه)[١]، ويظهر أن أبا الرضا لم يقم بدور يذكر كوزير، ويشير ابن طباطبا إلى أنه (لم يكن له من السيرة ما يذكر)[٢]. أما حقيقة الأسباب التي دعت إلى عزله فربما كانت تعود إلى عدم كفاءته، أو إلى موقف معين اتخذه مما دفع زنكي إلى إقالته، وقد عاد أبو الرضا بعد عزله إلى بغداد[٣].

أبو الغنائم حبشي ٥٣٨ ـ ٥٤١ هـ:

استوزر زنكي بعد إقالة أبي الرضا: حبشي بن محمد الحلي[٤]، وينفرد ابن العديم بالإشارة إلى هذا الوزير، دون أن يوضح دوره أو المهام التي أنجزها.

أبو المحاسن العجمي:

يذكر ابن القلانسي أن زنكي ألقى القبض عام ٥٣١ هـ على وزيره أبي المحاسن علي بن أبي طالب العجمي، واعتقله في قلعة حلب، حيث بقي هناك، بسبب مصادرته للأموال (وانكسار المعاملات التي عجز عن القيام بها) وتأدية ما عليه من التزامات مالية[٥]. ويبدو من هذا النص أن زنكي كان يعتمد على وزيرين اثنين ـ أحياناً ـ أحدهما مقره الموصل والآخر حلب، كما حدث في العهدين الأيوبي والمملوكي حيث عينوا عدة وزراء في نياباتهم، ولم تشر المصادر إلى الوزراء الذين سبقوا (العجمي) وأعقبوه

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٧، الفارقي: تاريخ آمد (مخطوطة ورقة ١١٦ ب ـ ١١٧أ)، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٧٦، ٢٧٨.

(٢) الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٤٧.

(٣) الفارقي: ورقة ١١٦ ب ـ ١١٧ أ.

(٤) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٧٨.

(٥) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٣.

في منصب الوزارة في حلب، ولكن الراجح أن زنكي رأى نفسه مضطراً إلى اعتماد وزير له هناك للإشراف على الأمور الإدارية والمالية، لا سيما وأن نائبه في حلب (الأمير سوار) كان يصرف معظم وقته وجهوده في جهاده للصليبيين، ولم تقدم المصادر عن ترجمة العجمي شيئاً يستحق الذكر.

جمال الدين الأصفهاني:

أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الملقب بجمال الدين والمعروف بالجواد الأصفهاني. تولى أبوه مناصب مهمة في بلاط السلطان السلجوقي ملكشاه (٤٦٥ ـ ٤٨٥ هـ) فلما ولد جمال الدين عني بتأديبه، وعندما كبر دخل في خدمة ديوان السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه فظهرت كفايته، فلما ولي زنكي الموصل استصحب معه جمال الدين وقربه[١]، وعندما استولى على نصيبين في العام التالي ولاه عليها، فأبان عن نزاهة ومقدرة وكفاية دفعت زنكي إلى أن يضيف الرحبة إلى ولايته، وسرعان ما عاد جمال الدين من خواص زنكي وأكبر ندمائه، فاستدعاه إلى الموصل وجعله (مشرف مملكته كلها)[٢] ـ كما مر بنا ـ.

وتطنب المصادر في وصف أخلاق جمال الدين، مركزة الأضواء على كرمه العجيب، تلك الأخلاق التي قربته من زنكي، وجعلته محبوباً ومشتهراً في أنحاء واسعة من العالم الإسلامي، ومنحته لقب الجواد لكثرة جوده، كما دفعت أبناء زنكي ـ فيما بعد ـ إلى الاعتماد عليه في إدارة إمارتهم[٣].

---

(١) البنداري: آل سلجوق ص ١٩٢ ـ ١٩٣، الباهر ص ١١٨ ـ ١١٩.

(٢) الباهر ص ١١٨ ـ ١١٩، وفيات الأعيان ٤ ـ ٢٢٨.

(٣) يراجع بشأن ترجمة جمال الدين بإسهاب، المصادر التالية: ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٦، البنداري: آل سلجوق ص ١٩٢ ـ ١٩٣، ٢٠١، ابن الأثير: الباهر ص ١١٨ ـ ١١٩، ١٢٩ ـ ١٣٠، الكامل ١١ ـ ١٢٥ ـ ١٢٦، ابن خلكان وفيات الأعيان ٤ ـ ٢٢٨ ـ ٢٢٩، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢ ـ ٢٤٨ ـ ٢٤٩، ابن العماد: شذرات ٤ ـ ١٨٥.

يتضح من استعراض تراجم هؤلاء الوزراء جميعاً أن معظمهم ليسوا من الموصل، بل ليسوا من إمارة زنكي، على سعتها، فأبو الرضا من بغداد، والعجمي والأصبهاني من بلاد فارس، وأبو الغنائم من الحلة، والوزير الوحيد من سكان الإمارة هو الكفرتوثي، وأغلب الظن أن أهم العوامل التي دفعت زنكي إلى ذلك هي رغبته في اعتماد وزراء يتميزون بالكفاءة والدربة الإدارية اللازمتين لتسيير شؤون إمارة تتّسع أطرافها يوماً بعد يوم. وهناك عوامل أخرى كالإخلاص والأمانة، فضلاً عن روابط الصداقة والمعرفة السابقة، وربما كان امتناع زنكي عن استيزار أهالي الموصل خوفه من قيام الوزير (الموصلي) باستغلال منصبه وتقريب جماعته وأنصاره في وظائف الإمارة ومرافقها المختلفة، وتجنباً لحدوث تكتلات داخل الجهاز الإداري، وإن لم يمنع هذا من قيام بعض وزرائه بممارسة هذه الأخطاء.

ويتضح من هذا الاستعراض ـ كذلك ـ أن زنكي استوزر أشخاصاً مدنيين، وتحاشى القادة والأمراء العسكريين، وربما قدر أن منصب الوزارة بطبيعته منصب مدني يسند إلى أرباب الأقلام لا السيوف، ومن ثم لا نجد في عهد زنكي ما حدث في العهدين الأيوبي والمملوكي ـ مثلاً ـ من اتخاذ وزيرين أحدهما من أرباب السيوف والآخر من أرباب الأقلام، ثم إن هذا الاستعراض يبين لنا أن عزل وتعيين الوزراء كان بيد زنكي مباشرة، ولا علاقة لكبار الموظفين ـ كالنائب مثلاً ـ بهذا الأمر.

الموظفون ونظام التوظيف والدواوين:

اهتم زنكي بأمر الوظائف والموظفين اهتماماً كبيراً كي يستطيع أن يسير أمور دولته بشكل منظم، وكي يجنب جهازه الإداري الهزات التي كثيراً ما تعرقل سير الأمور، وقد طبق زنكي مبدأ تكافؤ الفرص في المجال الإداري كي يحقق هدفه آنف الذكر ويضع يديه على الموظفين الأكفاء، فكان (يتعهد

أصحابه ويمتحنهم، فلا يرفع أحداً فوق قدره الذي يستحقه ولا يضعه دونه)[١]، كما كان يجعل كفاءة الشخص أساساً لتقدير راتبه[٢].

وكان زنكي ـ من جهة أخرى ـ يولي موظفيه ثقته (على قدر ما يعلم منهم) كي يشعرهم بالأمن والاستقرار، وهو أمر ضروري لتقديم خدماتهم الإدارية على أحسن وجه، فكان (قليل التلون والتنقل، بطيء الملل والتغير، شديد العزم، لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك إلى أن قتل إلا بذنب يوجب التغير، والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولاً، هم الذين بقوا أخيراً، فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له)[٣]. وهذا هو الذي دعا جمال الدين الوزير إلى وصف زنكي بأنه كان (متمكناً قوي العزم لا يتجاسر أحد على الاعتراض عليه ولا يتلون بأقوال أصحابه) مما دفع أصحابه إلى (حفظه)[٤].

كان زنكي ينتقي موظفيه من (الرجال ذوي الهمم العالية، والآراء الصائبة، والأنفس الأبية)[٥]، فإذا ما أضيف إلى ذلك توسيعه في رواتب موظفيه[٦]، أدركنا مدى إخلاص هؤلاء له ولعملهم، ومدى سير الأمور الإدارية في ولايته سيراً طبيعياً، وخير مثل على ذلك موظفه الكبير جمال الدين الأصبهاني الذي أظهر في أيامه (من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها، و (التحقيق) فيها ما يدل على تمكنه من الكفاية)، فلما وزر ـ جمال الدين نفسه ـ لقطب الدين مودود بن زنكي، قلت كفايته وصار يهمل بعض

---

(١) الباهر ص ٧٩، الروضتين ١ ـ ١١١.

(٢) الباهر ص ٦٣.

(٣) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٤) المصدر السابق ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٥) المصدر السابق ص ٨٣، الروضتين ١ ـ ١١٤.

(٦) المصدران السابقان، نفس الصفحات.

الأمور، وعندما سأله أحد الموظفين عن السبب في ذلك أجاب: (ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان، إنما هي أن يسلك الإنسان في كل زمان وما يناسبه)[١]!!

كان زنكي يؤمن بما يسمى اليوم (الدكتاتور العادل)! ويسعى إلى تطبيق هذا المبدأ في مجال الإدارة، فكان يقول: (ما يتفق أن يكون أكثر من ظالم واحد ـ يعني نفسه ـ)[٢]، وواضح من هذا أن كلمة ظالم لا تعني ـ هنا ـ مفهومها اللغوي بقدر ما تعني السيطرة الفردية المركزية في الحكم، وعدم السماح للموظفين الآخرين بالارتفاع إلى مستوى مسؤوليته في الإدارة، ومشاركته في الحكم، ولهذا السبب ـ نفسه ـ لم يكن زنكي يسمح لموظفيه وعماله بظلم أحد من أفراد الرعية، أو التعرض لهم بأي أذى، وقد عاقب عز الدين الدبيسي ـ وهو من أكابر أمرائه ـ لأنه سلب أحد يهود جزيرة ابن عمر بيته[٣]، وعاقب أحد ولاته بسمل عينيه لتعرضه لامرأة[٤]، (فخاف الولاة وانزجروا)[٥]، و (عجز القوي عن ظلم الضعيف)[٦].

ولذلك أيضاً كان ينهى أصحابه وموظفيه عن اقتناء الأملاك، قائلاً لهم: (ما دامت البلاد بأيدينا فأي حاجة بكم إلى الأملاك؟ فإن الإقطاعات تغني عنها، فإن خرجت البلاد من أيدينا، فإن الأملاك تذهب معها!! ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية، وتعدوا عليهم، وغصبوهم أملاكهم)[٧]. وقد لخص زنكي بهذا التصريح سياسته العادلة إزاء

---

(١) الباهر ص ٨٢ ـ ٨٣.
(٢) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨٤.
(٣) الباهر ص ٧٦ ـ ٧٧، الكامل ١١ ـ ٤٥، الروضتين ١ ـ ١٠٩ ـ ١١٠.
(٤) الباهر ص ٨٤، الكامل ١١ ـ ٤٥، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨ ـ ١٩٠.
(٥) سبط ابن الجوزي: مراة ٨ ـ ١٩٠.
(٦) الباهر ص ٧٦ ـ ٧٧، زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨٤.
(٧) الباهر ص ٧٧، الروضتين ١ ـ ١١٠، ابن واصل: مفرج الكروب ١ ـ١٠١.

الرعية، وموقفه من موظفيه، كما أوضح مفهومه عن الحكم المستبد العادل، وهذا هو الذي دفع عدداً من المؤرخين إلى التأكيد على سياسته العادلة لدى استعراضهم لسيرته[١]، وإنه ـ على سبيل المثال ـ كان يتقبل آراء الرعية وانتقاداتهم، ويروي ابن واصل أن زنكي كان يمارس الظلم في بدء أمره، فسمع في إحدى الليالي شخصاً يغني بيتين من الشعر عن العدل، فبكى وتبدلت نيته في الظلم، وألزم نفسه بالعدل منذ ذلك اليوم[٢]. كما يشير ابن العديم إلى أن أهل حران امتدحوا سياسة زنكي العادلة معهم، ثم يقول: (وبلغني أنه لا يتجاسر أحد من رعيته، كائناً من كان، أن يظلم أحداً من خلق الله)[٣].

ولكن الذي يؤخذ على زنكي ـ في هذا المجال ـ سماحه لبعض كبار موظفيه ـ كالياغسياني وجقر ـ بظلم الرعية، وتغاضيه عن هذا الظلم، ويشير قوله لابن منقذ، في تعليق له عن كبار موظفيه، إلى مدى هذا التساهل إزاء هؤلاء، إذ قال: (ثلاثة غلمان! أحدهم يخاف الله تعالى وما يخافني: يعني زين الدين، والآخر يخافني وما يخاف الله تعالى: يعني جقر، والآخر ما يخاف الله ولا يخافني: ويعني الياغسياني)[٤]. وعلى أية حال فإن قولاً عابراً كهذا لا يمكن بحال أن يسم سياسة زنكي بالظلم، وينفي كل التأكيدات السابقة.

إن الكلام عن الوظائف ونظام التوظيف يجرنا إلى موضوع الدواوين وتنظيمها وعددها واختصاصات كل منها، وهل كان هناك عدد من الدواوين يتمتع كل منها باستقلاله عن الآخر؟ أم أنها ركزت ـ جميعاً ـ في ديوان واحد

(١) الباهر ص ٧٦ ـ ٧٧، الكامل ١١ ـ ٤٥، مفرج الكروب ١ ـ ١٠٠ ـ ١٠١ ابن كثير، البداية والنهاية ١٢ ـ ٢٢١.
(٢) مفرج الكروب ١ ـ ١٠٠ ـ ١٠١.
(٣) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨٤، بغية الطلب (مخطوطة ٨ ـ ٢١١ و) حاشية الزبدة ٢ ـ ٢٨٤.
(٤) الاعتبار ص ١٥٧.

يمتلك كل الاختصاصات بشكل مختلط؟ فنحن نجد عدداً كبيراً من الدواوين المستقلة شهدها العصران الأيوبي والمملوكي، كديوان المستأجرات والحمايات الشريفة، وديوان الأحباس (ما يحبس به من الأرزاق)، وديوان الإشراف (عن أنساب الإشراف)، وديوان العمائر (يتعلق بالمهندسين وأرباب العمائر)، وديوان الذخيرة (تجمع به أموال الذخيرة من جهات متعددة)، وديوان الاستيفاء، وديوان الزكاة، وعدد كبير آخر من الدواوين التي كان لكل منها ناظر ومباشرون[(١)]. فهل كان في إمارة زنكي مثل هذا التخصص في الدواوين؟

الذي يلاحظ أنه ـ فيما عدا ديوان الجند ـ[(٢)] لم ترد سوى إشارتين عن الديوان بصفة عامة، إحداهما تقول: إن زنكي جعل جمال الدين مشرف ديوانه، وهي لا تقدم صورة عن اختصاصات الديوان وأقسامه المالية والإدارية المختلفة، رغم أن هذا الديوان كان ـ على ما يظهر ـ ذا أهمية كبيرة بحيث جعل الأصفهاني مشرفاً عليه، وهو الذي عرفنا عنه أنه كان يتمتع بمنصب أكثر أهمية من منصب الوزارة، مما يشير إلى أن وظيفة الإشراف على الديوان كانت على درجة كبيرة من الأهمية.

أما الإشارة الثانية إلى الديوان فهي تلك التي أوردها ابن الأثير وتقول إن ديوان زنكي كان (يقاس بدواوين السلاطين السلجوقية لكثرة التجمل، ونفاذ الأمر، وعظم الحاشية والخرج)[(٣)]. وهذا يؤكد أهمية ذلك الديوان وبلوغه مرحلة متقدمة من الاتساع والنمو وكثرة الموظفين وضخامة المصروفات؛ بحيث إن أي مراجع كان يقصده كان يجد من (توفر موظفيه عليه ونظرهم في مصالحه ما يجعله كأنه في أهله)[(٤)].

---

(١) الظاهري: زبدة كشف الممالك ص ١٠٩ ـ ١١٠.
(٢) انظر فصل (النظم العسكرية: الجيش).
(٣) الباهر ص ٨٣.
(٤) المصدر السابق، نفس الصفحة.

الأمن الداخلي والإعمار:

استطاع زنكي، بإدارته الحازمة (وضبطه للأمور)[١]، وعدالته، وبمساعدة أجهزة الجيش والبريد، أن يحقق نتائج هامة في إمارته في مجال إقرار الأمن والقضاء على المفسدين ونشر العمران في البلاد، حيث يشير ابن العديم إلى أن البلاد عمرت في أيام زنكي (بعد خرابها، وسادها الأمن بعد الخوف، وكان زنكي لا يبقي على مفسد)[٢]. وقد كان الأمن مضطرباً في الموصل نفسها خلال الفترة التي سبقت حكم زنكي، ويورد ابن الأثير نصاً يلقي ضوءاً على الموضوع، رغم ما فيه من مبالغة، يقول فيه: (كان الناس لا يقدرون على المشي إلى الجامع غير يوم الجمعة لبعده عن العمارة)[٣]، وكانت معظم مناطق الموصل البعيدة عن المركز خربة لا عمران فيها ولا أمن، وسرعان ما ساد العمران هذه المناطق لدى مجيء زنكي[٤]، بفضل حمايته للبلاد، ومنعه المفسدين، وكفه أيدي الأقوياء[٥].

كان لانتشار الأمن في المنطقة أثر واضح في زيادة عدد السكان في إمارة زنكي[٦]، كما غدت الموصل ملجأ للمهاجرين من بغداد بسبب فقدان الأمن هناك واشتداد الضوائق الاقتصادية[٧]. وبالإمكان معرفة الدور الذي لعبه زنكي في مجال الأمن بتتبع ذلك في الأيام التي أعقبت اغتياله حيث (اضطربت الأعمال، واختلت المسالك، وانطلقت أيدي الحرامية في إفساد الأطراف والعبث في سائر النواحي)[٨].

(١) المصدر السابق ص ٧٧.

(٢) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨٤.

(٣) الباهر ص ٧٧، الكامل ١١ ـ ٤٥ وانظر ابن العبري: مختصر تاريخ البشر ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٤) الباهر ص ٧٧، الكامل ١١ ـ ٤٥.

(٥) الباهر ص ٧٧ ـ ٧٨.

(٦) الكامل ١١ ـ ٤٥.

(٧) المصدر السابق ١١ ـ ٢٥، ابن خلدون: العبر ٥ ـ ٦٣.

(٨) أبو شامة: الروضتين ١ ـ ١١٥ ـ ١١٨.

وعندما كان زنكي يسيطر على المدن، لم يكن يترك جنوده يتحكمون بمقدراتها ويسيئون إلى أهاليها وينشرون الرعب والفوضى في ربوعها، بل كان سرعان ما يعين عليها والياً من قبله كي تكون الكلمة والسلطة بأيدي رجال مدنيين، من أجل إحلال الأمن في المدينة وإعمارها.

وكان لا يسمح ـ أبداً ـ لجنده ـ خلال التحركات والعمليات الحربية ـ بأن يعتدوا على الفلاحين بنهب أو تخريب مزارعهم (فكان العسكر يمشي خلفه كأنهم بين خيطين، مخافة أن يدوس العسكر شيئاً من الزرع.. ولا يجسر أحد من أجناده أن يأخذ ـ ولو مقداراً ضئيلاً من التبن ـ من فلاح إلا بثمنه، أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية، وإن تعدى أحد صلبه)[١].

ومراراً عديدة، وفي مناطق مختلفة، أثبت زنكي حبه للنظام، والاستقرار وكراهيته للتخريب والهدم والتسلط العسكري. ففي عام ٥٢٨ ـ مثلاً ـ قام بالقضاء على أعمال النهب والفوضى التي كان يقوم بها بعض أكراد شرقي الموصل ضد الفلاحين[٢]. وفي عام ٥٣٣ استولى على منطقة شهرزور التركمانية (فأصلح أحوال أهلها وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان)[٣]، وفي عام ٥٣٧ هـ استطاع أن يستولي على عدد من حصون الأكراد شمالي الموصل وأن يقضي على أعمال الفساد في المنطقة[٤]. وفي عام ٥٣٩ هـ قام عسكره ـ إثر استرجاع الرها من الصليبيين ـ باستباحة المدينة خلال الأيام الأولى من الفتح (فلما دخل زنكي البلد أعجبه منظره، فأسف لمثله من الخراب، ورأى أن تخريبه وإخلاءه من أهله غير مستحسن من مثله، فأمر بإعادة ما أخذ من سبي وأموال، فردوا عن آخرهم.. وعاد

(١) ابن العديم: زبدة الحلب ٢ ـ ٢٨٣ ـ ٢٨٤، الباهر ص ٩١، الكامل ١١ ـ ٥٠.
(٢) الباهر ص ٨٠، الكامل ١١ ـ ٥، مفرج الكروب ١ ـ ٥٥.
(٣) الباهر ص ٥٧ ـ ٥٨.
(٤) المصدر السابق ص ٦٤، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ٨ ـ ١٩٠.

البلد عامراً آهلاً آمناً..)[١]. ثم أصدر أوامره بإعادة إعمار الرها[٢]. ولا أدل على حب زنكي للإعمار ورفقه بأهالي المناطق المفتوحة من تعيينه نجم الدين أيوب والياً على بعلبك عام ٥٣٤ هـ، وهو الذي توسط لدى زنكي في العفو عن أمراء بعلبك الذين حكم عليهم بالإعدام، فأجابه زنكي إلى طلبه وولاه على بعلبك وأقطعه ثلثها[٣].

وقد اتبع زنكي ما يمكن تسميته بـ (سياسة الترحيل)، أي نقل جماعة من مكان إلى مكان آخر لتحقيق غرضين أولهما: التمكين لحكمه في بعض المناطق التي استولى عليها، وثانيهما: اتخاذ بعض هذه الجماعات كقوات حاجزة بين ممتلكاته وبين مناطق الأعداء، ففي عام ٥٣٦ هـ استولى على مدينة الحديثة الواقعة على الفرات، ونقل من كان بها من المهراش إلى الموصل، ورتب أصحابه فيها[٤]، وأغلب الظن أن المهراش هم حكام (الحديثة) الذين كانوا يهددون سيطرة زنكي على المدينة مما اضطره إلى إبعادهم، وفي عام ٥٤٠ هـ عندما أعلن أرمن الرها العصيان ضد زنكي واستطاع نائبه زين الدين كجك أن يقضي على المحاولة، أمره زنكي بإعدام قادة المؤامرة، ثم قام بترحيل بعض الأرمن من المدينة، وأحل محلهم ثلاثمئة عائلة يهودية، تخلصاً من خطر وجودهم[٥].

وخلال فترة مبكرة من حكم زنكي قام بنقل طائفة من التركمان تدعى (الإيوانية) مع أميرهم ياروق أرسلان إلى الشام، وأسكنهم في ولاية حلب، وأمرهم بجهاد الصليبيين، ومنحهم الحق في تملك كل ما استولوا عليه من

(١) الباهر ص ٦٩، الكامل ١١ ـ ٤٠ ـ ٤١.

(٢) زبدة الحلب ٢ ـ ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٣) أبو شامة: الروضتين ١ ـ ٨٦ ـ ٨٧.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٠ ـ ١٠٢، الكامل ١١ ـ ٣٦ ـ ٣٧.

(٥) Runciman: A History of the Crusades 11/238. 39

البلاد العائدة لهؤلاء، وقد استطاعت هذه الطائفة ـ فعلاً ـ أن تسترد من الصليبيين الكثير من الأراضي المحيطة بحلب حيث بقيت بأيديهم إلى سنة ٦٠٠ هـ[١]. وكان ياروق مقدماً كبيراً، وإليه نسبت الطائفة الياروقية من التركمان، وقد حققت هذه الطائفة ـ فضلاً عن أعمالها الحربية ـ نتائج عمرانية، إذ بنى ياروق وأتباعه، على شاطىء نهر قويق المار بحلب، عمائر كثيرة عرفت بالياروقية، واشتهرت هناك[٢].

لم تتطرق المصادر بحرف إلى الجهاز الذي نظمه زنكي لضبط الأمن الداخلي كالشرطة مثلاً، ولا توجد هناك إشارة واحدة إلى وجود شرطي في عهد زنكي، إلا أن هذا لا يجعلنا نجزم بعدم وجود رئيس للشرطة أو مسؤول أعلى للأمن. وأغلب الظن أن زنكي اعتمد ـ في هذا المجال إلى حد كبير ـ على جهاز استخباراته الدقيق[٣]، وعلى البريد، للمساعدة في تحقيق الأمن الداخلي، إضافة إلى مهمات هذين الجهازين في الأمن الخارجي أو السياسي، ويمكن القول بأن جند زنكي وحرسه وحاميات المدن قاموا ـ كذلك ـ بدور تنفيذي هام في هذا المجال.

وقد طرأ على نظام البريد تقدم واضح في عهد زنكي، لاسيما بعدما أصابه من اضطراب إثر الحروب التي نشبت بين السلاجقة، وقد ذكر القلقشندي أن هؤلاء اقتصروا في بريدهم على الخيل والبغال، وأن الدولة الزنكية أدخلت الجمال سريعة الحركة في الخدمات البريدية[٤]. كما استعملت الحمام في نقل الرسائل التي تتطلب سرعة أكبر، كما يفهم مما أورده المؤرخ المذكور من أن الحمام، الذي عرف استخدامه في مصر

---

(١) الباهر ص ٨٠، الروضتين ١ ـ ١١١ ـ ١١٢.

(٢) أبو الفداء: المختصر ٥ ـ ٦٦.

(٣) سبق الحديث عنه لدى الكلام عن (جيش زنكي).

(٤) صبح الأعشى ١٤ ـ ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

والشام، كان قد نقل عن الموصل (وأن أول من اعتنى بها من الملوك ونقله من الموصل، هو نور الدين محمود بن زنكي عام ٥٦٥ هـ)[1]. ولا ريب أن استخدام الحمام في البريد ـ فضلاً عن الجمال السريعة ـ قد حقق تقدماً كبيراً في مجال الخدمات البريدية، وقدم لزنكي معلومات ذات قيمة في ضبط أمور مملكته.




(١) المصدر السابق ١٤ ـ ٣٩٠.

موارد البحث

١ـ المصادر القديمة:

ابن الأثير: أبو الحسن عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (ت ٦٣٠ هـ). التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل)، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة ـ ١٩٦٣ م. الكامل في التاريخ، ١٢ جزءاً، دار الطباعة، القاهرة ـ ١٢٩٠ هـ.

الأربلي: عبد الرحمن سنبط بن قنيتو (ت ٧١٧ هـ). خلاصة الذهب المسبوك (مختصر من سير الملوك)، مطبعة جاورز جيوس القدس ـ ١٨٨٥ م.

ابن إياس: محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري (ت ٩٣٠ هـ). بدائع الزهور في وقائع الدهور، جزءان، ط ١، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر ١٨٩٤ م.

البدليسي: شرف خان (ألف في أواخر ١٠٠٥ هـ). شرفنامة، جزءان، ترجمة محمد علي عوني، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ـ ١٩٥٨ م.

ابن بطوطة: محمد بن عبد الله إبراهيم اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩ هـ). تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار صادر بيروت ـ ١٩٦٠.

البنداري: الفتح بن علي بن محمد الأصفهاني (ت ٦٤٣ هـ). تاريخ دولة آل سلجوق، من إنشاء عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ) واختصار (البنداري)، مطبعة الموسوعات، مصر ـ ١٩٠٠م.

ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن بن تغري بردي الأتابكي (ت ٨٧٤ هـ). النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، ١٣ جزءان ط ١، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ـ ١٩٢٩ ـ ١٩٥٦ م.

ابن جبير: محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت ٨٧٤ هـ). رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت ـ ١٩٥٩ م.

ابن الجوزي: عبد الرحمن علي بن محمد بن علي (ت ٥٩٧ هـ). المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ٥ أجزاء، ط ١، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند ـ ١٣٥٩ هـ.

الحسيني: صدر الدين أبو الحسن علي بن أبي الفوارس ناصر بن علي (ت ٦٢٢ هـ). أخبار الدولة السلجوقية (المسمى زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية)، تحقيق محمد إقبال، نشريات كلية بنجاب لاهور ـ ١٩٣٣ م.

ابن حوقل: أبو القاسم النصيبي (ت ٣٦٧ هـ). صورة الأرض، ط ٢، مطبعة بريل، مدينة ليدن ـ ١٩٣٨ م.

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ). العبر وديوان المبتدأ والخبر، ط بولاق، ٧ أجزاء، ١٢٨٤ هـ. و ط بيروت، ٦ مجلدات، دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦ ـ ١٩٥٩ م.

ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٦ أجزاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ١، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ـ ١٣٦٧ هـ.

الدميري: كمال الدين محمد بن موسى (ت ٨٠٨ هـ). حياة الحيوان الكبرى، جزءان، ط ٣، نشر مصطفى البابي الحلبي، مصر ـ ١٩٥٦ م.

الديار بكري: حسين بن محمد بن الحسن (ت ٩٨٢ هـ). تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، جزءان، المطبعة الوهبية، القاهرة ـ ١٢٨٣ هـ.

الذهبي الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني (ت ٧٤٨ هـ. دول الإسلام، جزءان، ط ٢، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند ـ ١٢٦٤ هـ. العبر في خبر من غبر، ٤ أجزاء (الجزءان الأول والرابع تحقيق صلاح الدين المنجد، دار المطبوعات والنشر، الكويت ـ ١٩٦٠ . والجزءان الثاني والثالث تحقيق فؤاد السيد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت ـ ١٩٦١ م).

ابن الساعي: أبو طالب علي بن أنجب تاج الدين (ت ٦٧٤ هـ). الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، عني بنشره مصطفى جواد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد ـ ١٣٥٣ هـ. مختصر أخبار الخلفاء (اختصر من قبل مؤرخ مجهول من أهل القرن السابع للهجرة في أواخر سنة ٦٦٦ هـ، والأصل لابن الساعي)، ط ١، المطبعة الأميرية ببولاق، مصر ـ ١٣٠٩ هـ.

سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي (ت ٦٥٤ هـ). مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، جزءان، ط ١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند ـ ١٣٧٠ هـ.

السبكي: أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين (٧٧١ هـ). طبقات الشافعية الكبرى، ٦ أجزاء، ط ١، المطبعة الحسينية، القاهرة ـ ١٣٢٤ هـ. معيد النعم ومبيد النقم، طبعة David W. Myhrman لندن ـ ١٩٠٨م.

السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ). تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٢، مطبعة السعادة، مصر ـ ١٣٧٨ هـ.

أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥ هـ). كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، جزءان، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ـ ١٩٥٦م.

الروذراوري: أبو شجاع محمد بن الحسين (ت ٤٨٨ هـ). ذيل تجارب الأمم، تحقيق أمدروز، شركة التمدن، مصر ـ ١٩١٦ م.

ابن شاهين الظاهري: غرس الدين خليل (ت ٨٧٣ هـ). زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، صححه بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس ـ ١٨٩٤ م.

ابن الشحنة: أبو الوليد محمد (ت ٨٨٣ هـ). روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر، منشور بحاشية الكامل لابن الأثير في الأجزاء ٧، ٨، ٩، دار الطباعة، القاهرة ـ ١٢٩٠ هـ.

ابن شداد: القاضي بهاء الدين (ت ٦٣٢ هـ). النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة ـ ١٩٦٢ م.

ابن شداد: عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت ٦٨٤ هـ). الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، قسم الجزيرة: مخطوطة (أكسفورد ـ رقم، (Bodl.Marsh 33 قسم حلب: تحقيق دومينيك سورديل، المعهد الفرنسي، دمشق ـ ١٩٥٣. قسم لبنان والأردن وفلسطين: تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق ـ ١٩٦٢ م.

ضياء الدين ابن الأثير: (ت ٦٣٧ هـ). رسائل ابن الأثير، تحقيق أنيس المقدسي، دار العلم للملايين، بيروت ـ ١٩٥٩ م.

الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ). تاريخ الرسل والملوك، ٣ أجزاء، طبع دي غويه، ليدن ـ ١٨٧٩ م.

ابن الطقطقي: محمد بن علي بن طباطبا العلوي (ت ٧٠٩ هـ). الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، مطبعة محمد علي صبيح، الأزهر ـ ١٩٦٢م.

ابن العبري: غريغوريوس الملطي (ت ٦٨٥ هـ ـ ١٢٨٦ م). تاريخ مختصر الدول، تحقيق أنطوان صالحاني اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ـ ١٩٥٨م.

ابن العديم: كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠ هـ). زبدة الحلب من تاريخ حلب، جزءان، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ـ ١٩٥٤ م.

العظيمي: محمد بن علي (ت ٥٥٦ هـ). تاريخ العظيمي، مخطوطة نشرها كلود كاهين في مجلة (.J.A)، باريس ـ ١٩٣٨ م، ونشر سامي الدهان بعض أقسامها المهمة في حاشية زبدة الحلب.

ابن العماد الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩ هـ). شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨ أجزاء، مكتبة القدسي، القاهرة ـ ١٣٥٠ هـ.

العمري: شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت ٧٤٩ هـ). التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة ـ ١٣١٢ هـ. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الأول، تحقيق أحمد زكي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ـ ١٩٢٤ م.

الفارقي: أحمد يوسف بن علي بن الأزرق (ت ٥٧٢ هـ). تاريخ آمد وميافارقين، مخطوطة رقم: (Oxford , 6 , 310) نشر القسم الأول منها: بدوي عبد اللطيف عوض، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة ـ ١٣٧٩هـ.

أبو الفدا: الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢ هـ). تقويم البلدان، تحقيق ماك كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية باريس ـ ١٨٤٠ م. المختصر في أخبار البشر، مجلدان، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

القرماني: أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي (ت ١٠١٩ هـ). أخبار الدول وآثار الأول، منشور في حاشية الكامل لابن الأثير الأجزاء: ١-٦، دار الطباعة، القاهرة ـ ١٢٩٠ هـ.

ابن القلانسي: أبو يعلى حمزة (ت ٥٥٥ هـ). ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أمدروز، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ـ ١٩٠٨ م.

القلقشندي: أحمد بن علي بن أبي اليمن القاهري الشافعي (ت ٨٢١ هـ). صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزءاً، المطبعة الأميرية ودار الكتب المصرية، القاهرة ـ ١٩١٣ ـ ١٩٢٢ م.

ابن كثير: إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ). البداية والنهاية في التاريخ، ١٤ جزءاً، مطبعة السعادة، القاهرة ـ ١٩٣٢ م.

المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ). مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٩ أجزاء، تحقيق باربيه دي مينار، باريس ـ ١٨٧٤ م.

مسكويه: أبو علي أحمد بن محمد (ت ٤٢١ هـ). تجارب الأمم وتعاقب الهمم، جزءان، تحقيق أمدروز، ومرغليوث، ليدن ـ ١٩١٣ م.

المقدسي: المعروف بالبشاري (ت ٣٧٥ هـ). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دي غويه، مطبعة بريل ليدن ـ ١٩٠٦ م.

المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ). السلوك لمعرفة دول الملوك، ٦ أجزاء، تحقيق محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة ـ ١٩٣٦ م. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، مطبعة بولاق، القاهرة ـ ١٢٧٠ هـ.

ابن منقذ: أسامة بن مرشد الكناني الشيزري (ت ٥٨٤ هـ). كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة ـ ١٩٣٠ م.

ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧ هـ). مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٣ أجزاء، تحقيق جمال الدين الشيال، جامعة فؤاد الأول، القاهرة ـ ١٩٥٣ م.

ابن الوردي: زين الدين عمر (ت ٧٥٠ هـ). تتمة المختصر في تاريخ البشر، جزءان، المطبعة الوهبية، القاهرة ـ ١٢٨٥ هـ.

ياقوت الحموي: شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ). معجم البلدان، ٦ أجزاء، تحقيق فستنفلد، ليبزك ـ ١٨٦٦.

٢ـ المراجع الحديثة:

بيومي: علي. قيام الدولة الأيوبية في مصر، دار الفكر الحديث، القاهرة ـ ١٩٥٢ م.

بولياك: أ. ن. الإقطاعية في مصر وسورية وفلسطين ولبنان، ترجمة عاطف كرم، منشورات وزارة التربية الوطنية، بيروت ـ ١٩٤٨ م.

حبشي: حسن. نور الدين والصليبيون، دار الفكر العربي، القاهرة ـ ١٩٤٨ م.

إبراهيم حسن: علي. دراسات في تاريخ المماليك البحرية (وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص)، ط ٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ـ ١٩٤٨ م.

حسنين: عبد المنعم. سلاجقة إيران والعراق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ـ ١٩٥٩ م.

رنسيمان: ستيفن. محاضرات في: المدنية البيزنطية ـ الحروب الصليبية، ترجمة صالح أحمد العلي، مطبعة وزارة المعارف، بغداد ـ ١٩٥٦ م.

زامباور: إدوارد فون. معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، جزءان، ترجمة وإخراج زكي محمد حسن ورفاقه، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ـ ١٩٥١ م.

زكي: محمد أمين. خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، المجلد الأول، ترجمة محمد علي عوني، مطبعة السعادة، القاهرة ـ ١٩٣٦ م. تاريخ الدول والإمارات الكردية في العهد الإسلامي، (وهو المجلد الثاني) من (خلاصة تاريخ الكرد)، ترجمة محمد علي عوني، مطبعة السعادة، القاهرة ـ ١٩٤٨ م.

سعداوي: نظير حسان. التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ـ ١٩٥٧ م. نظام البريد في الدولة الإسلامية، دار مصر للطباعة، القاهرة ـ ١٩٥٣ م.

عاشور: سعيد عبد الفتاح. الحركة الصليبية، جزءان، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة ـ ١٩٦٣ م.

العريني: السيد الباز. الشرق الأوسط والحروب الصليبية، دار النهضة العربية القاهرة ـ ١٩٦٣ م.

لستر انج: كي. بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة وتحقيق: بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مطبوعات المجمع العلمي، بغداد ـ ١٩٥٤ م.

ماجد و البنا: عبد المنعم ماجد وعلي البنا، الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة ـ ١٩٦٠ م.

٢. المراجع الأجنبية:

Cahen: Claude, La Syrie de Nord a L'époque des Croisades, (Paris - 1940), Mouvements POPULAIRES ET Antonomise Urbaine dans l'Asie Musulmane du Moyen Age. (Leider -1995).

Dozy: R. Supplement aux Dictionnaires Arabes, (Leiden. 1927).

Gibb: H.H.R. The damascus Chronical of the Crusades. (London -1932) Zengi and the Fall of Edessa, (Setton, Vol.I, PP. 449-462.

Grousset: Rene, Histoire des Croisades et da Royaume France de Jeruselem, 3 vols. (paris1934-1936.

Lambton: Ann K.s. Landlord and peasant in persia, (London -1953.

Lane- Pool: S. A History of Egypt in the Middle Ages, (London1925. Saladin and the fall of the Kingdon of Jerusalem, (London 1898. The Mohammadan Dynasties, (Paris -1925.

Nicholson: R.L. The Growth of the latin States. 1118-1144 (Setton, Vol. I, 410-447.

Runciman: Stevn. A History of Crusades, 3 Vol. Cambridige 1957.

Setton: K.M. A History of the crusades, 2 vols. (Pennsylvania 1955,1958).

Stevenson: W.B. The Crusaders in the east, (Cambridge - 1907.

The encyclopedia of Islam, I, 2, Edition, (Leiden - London).

فهرس الموضوعات